

د. سامية عامر

الصليبيون في شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس
(١٢٧٠ م) - (٦٦٨-٦٦٩ هـ)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الصليبيون فى شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس

١٢٧٠ م / ٦٦٨ - ٦٦٩ هـ

تاليف

دكتورة/ سامية عامر

كلية التربية ببور سعيد - جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى

٢٠٠٢م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : وائل محمود



الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٢

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 387169

إهــــداء

إلى روح أستــاذى الفاضل
دكتور جوزيف نسيم يوسف



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد شهد العالم منذ أقدم عصوره وحتى اليوم العديد من الأحداث الهامة والانتفاضات الخطيرة التى اهتز لها كيانه والتى تركت بصماتها على سير مجرى الأحداث. ولعل أهمها هى الحركة الصليبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) والتى تمثل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط والأمر الهام أن هذه الحركة تركت آثارها على المسرح الدولى ليس حتى نهاية العصر الوسيط فحسب بل امتدت بشكل أو بآخر لتؤثر على سير الأحداث فى التاريخ الحديث والمعاصر .

وقد اشتملت تلك الحركة على العديد من الحملات العسكرية الكبيرة التى تعرض لها العالم العربى الإسلامى من مشرقه إلى مغربه وفيما بين هذه الحملات وجدت فترات من الهدوء النسبى فى بعض الأحيان وفترات ساخنة تخللتها معارك عديدة فى كثير من الأحايين.

ويلاحظ أن الحملات الكبيرة ظهرت فيها مؤلفات قيمة عديدة بمختلف اللغات الحية وكانت أقلها حظا هى حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس عام ١٢٧٠م/ ٦٦٨-٦٦٩هـ وكانت هذه الحملة هى آخر حملات القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) وهى التاسعة فى عداد تلك الحملات وكان قد ظهر كتابان لأستاذى الدكتور جوزيف نسيم يوسف عن حملتى هذا الملك على كل من مصر والشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى)، فرأيت اختيار حملته الثالثة على تونس فى الشمال الأفريقى فى أواخر ذلك القرن لتكون موضوعا لدراستى لدرجة الدكتوراه .

وهذه الحملة لم يظهر فيها مؤلف علمى قائم بذاته يتناول كافة أحداثها ، ووقائعها كما عبرت عنها مختلف الوثائق والمصادر القديمة من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة وإيطالية قديمة وغيرها .

حقيقة ظهر منذ قرابة مائة عام مضت كتاب بالألمانية بعنوان :

Sternfeld , Luduigs des Heiligen Irreuzzug nach Tunis (1270) und die politik karls I Vinsizilien , Berlin 1896 .

إلا أن هذا الكتاب إلى جانب قدمه فقد عبر عن الحملة من وجهة نظر واحدة اعتمد فيها أساسا على الأصول الأجنبية، فجاءت دراسته معبرة عن شطر واحد من البحث دون الشطر الآخر، أى غير معبرة عن الحقيقة التاريخية كاملة وما قيل عن مؤلف شترنفلد يقال أيضا عن مؤلف سيلفستر دى ساسى Silvester de Sacy و ج. جراند شامب G. Grand Champ وبذلك أصبحت مثل تلك المؤلفات غير ذات موضوع بعد فقدانها لقيمتها. فجاءت دراستنا لتسد هذا النقص ولتعبر عن مختلف وجهات النظر . وهذا هو الهدف من أى بحث فى التاريخ . هذا فضلا عن العديد من القضايا الهامة المتعلقة بتفاصيل الحملة التي أغفلتها تلك المراجع وقد قمنا بدراستها وتحليلها وتوصلنا إلى آراء حاسمة بشأنها .

وفيما عدا ذلك ، فكل ما هنالك اشارات مقتضبة فى المؤلفات الخاصة بتاريخ الحركة الصليبية. وفى مقدمتها كتابا رينيه جروسيه وسيتفن رانسيمان ومجموعة بنسلفانيا عن تاريخ تلك الحركة والتى صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء وهناك أيضا مؤلفات عن سيرة لويس التاسع وضعت أساسا لتمجيده وذكر مآثره وفضائله ولاتحتل حملة تونس مكانا رئيسيا فيها نذكر منها على سبيل المثال مؤلفات

H. Bor deaux, E. Berger ,

A. Bailly , de Tillemont , F. Perry , W knox, M. Guizot ,

A . Bary, J. Boulenger, H. Wallon , M. Sepet .

كذلك توجد بعض الدراسات فى جوانب معينة من الحملة أو أحد عناصرها وهى تدور بصفة خاصة حول معاهدة الصلح بين شارل كونت أنجو والمستنصر وذلك فى عدد من المجلات والدوريات التاريخية المعروفة، وقد ظهرت هذه الدراسات هى الأخرى منذ زمن بعيد وفى صفحات قلائل وتعبر فى معظمها ، أيضا عن وجهة نظر واحدة دون وجهة النظر الأخرى فجاءت مبتورة لاتفى بالغرض المطلوب .

كل هذا تلافيناه فى دراستنا عن الحملة معتمدين على وثائقها وأصولها من عربية وغير

عربية خطية ومطبوعة وكانت النتيجة دراسة موضوعية متكاملة قائمة على أساس منهجي سليم فرضته طبيعة الموضوع وقد تناولنا عشرات القضايا والنقاط الغامضة التي واجهتنا بالدراسة النقدية القائمة على المقارنات والموازنات التاريخية وتوصلنا منها إلى استنتاجات وآراء واضحة محددة تناولنها بالتفصيل فى قمة البحث واستعرضناها بايجاز وتركيز فى خاتمته .

على أية حال إذا كانت جغرافية أى موقع هى مفتاح تاريخه فهذا يصدق وينطبق تماما على تونس فجغرافيتها هى فى الحقيقة مفتاح تاريخها الذى يكشف عن الأسباب الحقيقية التى وجهت حملة لويس التاسع الصليبية إليها وهذا يتطلب منا وقفة أمام مسرحها الجغرافى حيث وقعت أحداث الحملة، أن نظرة فاحصة مدققة إلى خريطة تونس تبين أنها تقع فى الجزء الشمالى الغربى من قارة أفريقيا[١] يحدها شمالا وشرقا ساحل البحر الأبيض المتوسط وجنوبا ولاية طرابلس والصحراء الكبرى، وغربا الجزائر ، وهى تكون مع الجزائر والمغرب وحدة جغرافية واحدة[٢] ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسى، باستثناء برقة وطرابلس اللتين تعرفان اليوم باسم ليبيا واللتين كانتا امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية. وقد أثرت هذه الطبيعة الجغرافية على بلاد المغرب لكى يحافظ على معالم حضارته وأصوله عبر التاريخ [٣]. فقد تأثر المغرب باتجاه سلسلة جبال أطلس فى جهة موازية للساحل [٤]. لذا فقد عمل على أن يقف حجرة عثر فى طريق المؤثرات الأوربية [٥]. ولعبت تلك الجبال دورا هاما لحماية المغرب بوجه عام وتونس بصفة خاصة من تلك الاعتداءات الأوربية المتكررة ضدها. فقد ساعدت الطبيعة المغرب الإسلامى على المقاومة والقدرة على الاحتمال واعتلاء الجبال

١- لفظ أفريقيا مشتق من كلمة Aphri التى أطلقها الفينيقيون على سكان قرطاجنة ثم عممه اليونانيين وأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ويقال أنها سميت أفريقيا لأنها فرقت بين مصر والمغرب وللمزيد أنظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١٢٦-١٢٧ ، أحمد بن خالد: تاريخ المغرب الأقصى، ج١ ، ص٢٣، جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص٢٦١ ، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ، ص٦-٧ .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦، ص٩٨ .

٣- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١٢٨، لوبون : حضارة العرب، ص٢١٦ .

٤- الأصطخرى : مسالك الممالك، ص٣٩، البشارى: أحسن الأقاليم، ص٢٣٦، ٣١٥ .

٥- جمال الدين الناصورى : جغرافية العالم، ص١٤٣ .

وقطعوا خط الرجعة على الصليبيين بعد وفاة ملكهم لويس التاسع، ثم أن جهود الملك شارل الانجوى ذهبت هباء يوم أحكم التونسيون خططهم ووحدوا هدفهم للاستفادة من هذه الجبال.

تبلغ مساحة تونس ١٦٥ كيلو مترا مربعا، وتطل على الطرف الشرقى لسلسلة جبال اطلس ويقسمها الجغرافيون العرب إلى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الشمالى وهو عبارة عن مزارع خصبة يمر على جانب كبير منها نهر مجردة الذى ينبع من الجزائر ويعتمد أهل تونس عليه فى الشرب [١].

أما القسم الثانى فهو الساحل الذى يمتد من جهة الشرق بحذاء البحر، ويتألف من أراض خصبة غزيرة العمران. أما القسم الثالث فهو ناحية الجنوب ويشتمل أيضا على سهول عظيمة ومراع شاسعة وواحات ونخيل . وتونس مدينة جميلة بالغ الرحالة والجغرافيون فى ذكر محاسنها . يقول عنها الادريسى : «أنها مدينة حسنة تحيط بها من جميع الجهات المزارع والمراعى المعمورة الخيرات» [٢]. وهى من أصلح بلاد أفريقيا ماء وهواء وأكثرها خيرا[٣]، كما يصفها ابن حوقل قائلا «أنها مدينة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة»[٤]. وقد منحها هذا الموقع الممتاز شهرة عظيمة فكانت ملتقى الصناع والفنانين، وكان الأندلسيون يفخرون بوجودهم فيها [٥]. ويرجع هذا إلى قرب المسافة بين تونس وأعظم بلاد أفريقيا آنذاك وهى قرطاجنة. وقد آثر امتداد الساحل الأفريقى فى طبيعة السكان وكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم وهو جزء لايتجزأ من حياتهم الاقتصادية، وهو الأمر الذى ظهر بوضوح حين استقل المغرب عن تبعيته للأمويين وبلغ نشاطهم ذروته فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (القرنان التاسع والعاشر الميلاديين) وتمكنوا من احتلال صقلية وجنوب إيطاليا ومالطة وسردينيا[٦].

١- البشارى : أحسن التقاسيم، ص٢٣٩، ابن حوقل: صورة الأرض ، ص٧٣ ، أنظر أيضا. يسرى الجوهرى: أفريقيا ، ص٢٠٣ .

٢- الادريسى: صفة المغرب والأندلس، ص١١١ .

٣- الدمشقى: نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، ص٢٣٧ .

٤- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٣ .

٥- القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص١٧٣ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٣ .

٦- عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٧ .

وتونس فى العصر القديم لم تكن سوى قرية صغيرة مهملة ظهرت قيمتها ومزايا موقعها الجغرافى بعد الفتح الإسلامى لها، حين قرر الحسان بن النعمان تحطيم قرطاجنة مكمن الخطر على الوجود الإسلامي. وعمل على عمارة تونس بدلا منها لتكون المقر الرئيسى للحكم الإسلامى هناك. وهى تقع فى جون[1] خارج عن البحر على بحيرة محتفرة عرضها أكثر من طولها، لأن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال ويقال أن هذه البحيرة كانت موجودة منذ ألفى عام قبل ذلك التاريخ وقد غلب عليها ماء البحر . إلى أن أعيد حفرها في حين يذكر أبى أبى دينار «أن هذه البحيرة لم تكن موجودة من قبل وإنما حفر فى البر حفير انتهى به إلى مدينة تونس ومن فم هذه البحيرة إلى قرطاجنة ثلاثة أميال، ويؤكد أن حفرها تم فى العصر الإسلامي لأن قرطاجنة كانت تقف حائلا بين تونس والبحر، فلما ضربت أصبح من الضرورى حفر هذه البحيرة لجذب مياه البحر إلى تونس[2]. حيث كانت المسافة بين تونس والبحر ستة أميال[3]، وقيل أربعة أميال [4].

وتتصل البحيرة بالبحر عن طريق فم الوادى[5] وتبلغ مساحة هذه البحيرة أربعين ميلا وقد أجرى ماء البحر فى هذه البحيرة حتى جاوز أعلاها بربع قامتها وربما أقل[6]، وعند آخر هذه البحيرة جزء يتسع فيه الماء ويعمق ويطلق عليه التونسيون اسم وقور، وإليه تصل السفن المحملة بالبضائع وترسو هناك. ونظرا لكبر حجم السفن أحيانا كان التونسيون يعدون زوارق صغيرة تفرغ المراكب الكبيرة فيها حمولتها ، وهكذا حتى تنتهى عملية النقل حيث أن سعة البحيرة لا تحتمل إلا الزوارق الصغيرة [7]. وقد لعبت تلك البحيرة دورا كبيرا فى اقتصاد

١- الجون : هو الجزء الضيق من البحر الداخل فى الأرض .

٢- الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار، ص١٤٣ .

٣- ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، ص٨ .

٤- الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٣ .

٥- فم الوادى يعـــرف إلى الآن فى تونس باسم حلق الوادى. انظر ابن أبى دينار: المؤنس، ص٨ ، الادريسى: صفة المغرب ، ص١١٢، البكرى: المغرب ، ص٣٧-٣٨ .

٦- القامة: هى طول الشئ انظر جبران مسعود : الرائد، ج١، ص١١٤٧ .

٧- الادريسى: صفة المغرب، ص١١١، الدمشقى : نخبة الدهر، ص٢٢٥ .

تونس، واعتمد الأهالي عليها فى الصيد وهم على علم بمواضعها الخطرة التى كانوا يتجنبونها خشية المخاطر [١].

ويحيط بتونس سور دائرى تبلغ مساحته أربعة وعشرين ألف ذراع[٢]، وقيل واحد وعشرين ألف ذراع [٣]. ويصف الادريسى هذا السور أنه من تراب وثيق [٤].

وجميع مزارعها وخيراتها داخل هذا السور الذى يقف كسياج حولها [٥]. والسور ليس قديما مثل البحيرة بل يرجح أنه بنى عام ٤٠٠هـ (القرن العاشر الميلادى) حيث يذكر ابن أبى دينار أنه بعد أن دمر أبو يزيد الخارجى مدينة تونس قام الشيخ محرز وأمر ببنائه ليحمى تونس من النهب والدمار[٦] فى حين يعود ابن أبى دينار ويذكر أن النواة الحقيقية فى بناء هذا السور تعود إلى بنى الأغلب[٧] ويقال أن هذا السور كان جهة الشمال فقط وليس دائرى[٨].

والمسافة بين تونس والقيروان تبلغ مائة وسبعة وخمسين ميلا [٩]. وقيل أن المسافر برا كان

١- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص٨، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٣، ابن خردانبة المسالك، ص٨٧ .

٢- الذراع : مقياس طوله ما بين ٥٠-٧٠ سنتميتر ، أنظر جبران مسعود: الرائد، ج١، ص٦٩٣ .

٣- ابن أبى دينار: المؤنس، ص٨ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص٧٩ ، الحميرى ، الروض المعطار، ص١٤٣ .

٤- الادريسى، صفة المغرب، ص١١١ .

٥- القزوينى: آثار البلاد، ص١٧٣، الادريسى ، ص١١١ .

٦- هو أبويزيد بن كيداد الخارجى ، ولد بالسودان ، وهو زناتى الأصل أتى أبوه إلى المغرب وتعلم القرآن وخالط أهل الشيعة الذين كانوا ينادون بتكفير أهل السنة واستباحة أموالهم. وقد عاصر أبويزيد عهد الخليفة المهدى عام ٣٦٣ هـ / ٩٤٣م وتحدى الخليفة وأعلن ضده راية العصيان وقويت شوكته على عهد الخليفة القائم، ودخل أفريقيا وأحدث دمارا كثيرا بتونس وللمزيد أنظر ابن أبى دينار : المؤنس ، ص٥٧-٦٢ .

٧- نسبة إلى إبراهيم بن الأغلب الذى ولاه الخليفة هارون الرشيد ولاية تونس فاستقل بها. انظر ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٧ .

٨- البكرى : المغرب فى ذكر تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص٣٨-٣٩ .

٩- اختلفت المصادر العربية على تحديد المسافة بين تونس والقيروان فهناك آراء تقول أنها مائة ميل أو أزيد أو أقل وللمزيد انظر: البكرى: المغرب، ص٣٧-٣٩، الحموى : معجم البلدان، ج١ ، ص٦٠، ابن أبى دينار: المؤنس ، ص١٣ .

يقطعها فى ثلاثة أيام[١]. وكانت تونس بعد عمرانها فى صدر الإسلام قد بلغت من الشهرة والعظمة لدرجة تسميتها باحدى القيروانين. ويقال أنه كان يوجد بين تونس والقيروان موضع يقال له «مخفة» يحدث به أمر عجيب من كل عام ففى وقت حصاد الزيتون كان يوجد نوع من الطيور يحمل كل طائر فى مخلبيه زيتونتين ويأتى إلى هذا الموضع ويلقى بهما مما يؤدى إلى زيادة غلة الزيتون وأيضا زيادة فى الدخل حددها القزوينى بأنها بلغت ما يزيد عن سبعين ألف درهم في ذلك الحين[٢].

وكان يوجد بتونس خندق حصين وعدد من الأبواب حددها الادريسي بثلاثة [٣]، فى حين قال البكرى أنها خمسة أبواب[٤]، ويذكر ابن أبى دينار أنها عشرة أبواب وتناقص عددها على عهده إلى سبعة[٥] ومن أسماء هذه الأبواب هى : باب الجزيرة فى الجنوب وباب البحر وهو يفتح على الثغر ، وباب قرطاجنة فى الشرق، وباب السقائين فى الشمال وباب أرطه فى الغرب. وكان مدخل تونس عليه سلسلة غليظة تحميها من تسرب سفن الأعداء ويحميها من الجنوب حصن المجرد ويعرف باسم قصر السلسلة[٦].

أما عن مسميات تونس فقد اختلفت المصادر حولها فمن المؤرخين من يقول أن اسمها فى البداية كان ترشيش ولما قدم إليها المسلمون للمرة الأولى نزلوا بصومعة داخلها يسمى ترشيش[٧]، وكانوا يتأنسون هناك بصوت راهب، فيقولون فيما بينهم هذه الصومعة تونس،

١- القزوينى : آثار البلاد، ص١٧٣، الاصطخرى: مسالك الممالك، ص٣٩ ، البشارى: أحسن التقاسيم: ص٢٣٩ .

٢- القزوينى : المصدر السابق، نفس الصفحة.

٣- الادريسي: وصف المغرب، ص١١١ .

٤- البكرى: المغرب، ص٣٧ -٣٩ .

٥- ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠ ، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٣-١٤٥ .

٦- البكرى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

٧- يذكر أ.د. عبد العزيز سالم أن أول عهد للمسلمين بتونس ونواحيها كان زمن الخليفة عثمان بن عفان وذلك بقيادة عبدالله بن أبى السرح ولكنها ليست مرحلة، الفتح المنظم بل هى مرحلة الغارات. انظر عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ١٤١، ١٧٢ .

أى تحدث الأنسة وعدم الوحشة فلزمها هذا الاسم. ويقال أن العرب كانوا طوال الليل الموحش لايسمعون سوى صوت الرهبان فقالوا على هذه البقعة أنها تونس فى حين هناك رواية أخرى مفادها أن العرب وجدوا زيتونه ملقاه فى مكان اقامة جامع الزيتونة فاطلقوا عليها اسم تونس ولزمها الاسم هى والجامع [١]، ويورد ابن أبى دينار رواية أخرى فيقول «إن العرب حين نزلوا صومعة ذلك الراهب أضافهم وأطعمهم دشيش الحنطة، فصار هذا عادة أهل البلد فى رأس السنة يأكلون هذا الدشيش. وفى احدى جلساتهم مع الراهب رأوا مكانا يحيط به الشوك من كل جانب فسأل العرب الراهب عن هذا الشوك فأخبرهم أنه كان يرى فى بعض الليالى نورا ساطعا فى هذه البقعة فعلم أنه سيكون لها شأن فعمل على حمايتها من القاذورات ونجس الكلاب. وصلى العرب الأوائل فى نفس المكان ، وقالوا فيما بينهم إن صح هذا القول فهى بقعة مباركة لأنها شهدت صلاة الصدر الأول من المسلمين ، وظلت على هذا حتى دخلها الإسلام بصورة فعلية[٢] ويؤكد ابن حوقل رواية ابن أبى دينار أن اسمها كان ترشيش وطوره العرب إلى اسم تونس [٣].

ويشير البكرى «أن لتونس خمسة أسماء هى : ترشيش ، وتونس أو تانسى، والحضرة ، والخضراء، والدرجة العليا. أما ترشيش فهو اسمها فى العصر القديم وتونس اسم حادث لها واشتقاقه من التأنيس أو الأنسة، والحضرة لأنها كانت حضرة السلاطين من بنى حفص ، والخضراء لكثرة الزيتون خاصة عند اشتداد لونه الأخضر عليه، أو سميت الخضراء لكثرة مزارعها وخيراتها الزراعية، أما الدرجة العليا فلأن بها الجامع الأعظم ، وقيل لارتفاعها عن باقى البلدان ولارتفاع صيتها وشهرتها بين دول بلاد المغرب » [٤]. بينما يشير الادريسى إلى

١- يذكر أ.د. عبد العزيز سالم أن سبب تسميته بالزيتونة نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت زمن استيلاء الواندال على قرطاجنة وتونس من الروم وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية ، انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص١٥، ٤١ ، ٢٤٩ ، جوزيف نسيم يوسف : ورثة الامبراطورية، ص٥٠ .

٢- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٠-١١، ١٧ .

٣- ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٣ ، الحميرى: الروض المعطار: ص١٤٣ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص٢٤٣ .

٤- البكرى: المغرب ، ص٣٧-٣٩ .

أن كلمة تونس حرفت من اسم طرشيش الذى كانت تعرف به قديما[١]. ويضيف الدمشقى إلى أن اسم تونس اشتق من لفظ ترسوس الذى كان يطلق عليها قبل دخول الإسلام[٢] بينما تشير الروايات الأخرى إلى أن اسم تونس فى الأصل قرطاجنة [٣]، وهى تسمية مجازية لقرب المسافة بين تونس وقرطاجنة ، ولما كانت تتمتع به قرطاجنة من شهرة وعظمة بين باقى مدن شمال أفريقيا.

ويطلق عليها أيضا اسم تونس الغريب لأنه قلما دخلها غريب عنها إلا وتعلق بها ولايفارقها إلا وهو متحسر عليها[٤] ويضيف ابى أبى دينار قائلا «سألت بعض النصارى عن أصل تسميتها فقالوا «تنس» فى كتبنا وتنس معناها باللسان الاغريقى القديم «تقدم»[٥].

ويرجع الفضل إلى العرب فى بناء دار صناعة السفن فى تونس فعندما نظم الخليفة الوليد بن عبد الملك الحملات العسكرية التى قادها حسان بن النعمان لفتح تونس[٦]، شعر المسلمون

١- الادريسى: وصف المغرب، ص١١١، المسعودى: مروج الذهب، ص٥٧ .

٢- الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٣٥ .

٣- ابن الفقيه : مختصر البلدان، ص٧٩ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص٨٧ راجع أيضا : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، ص١٤٤ .

٤- ابن أبى دينار : المؤنس، ص١٦ ، وللمزيد انظر لوبون : حضارة العرب ، ص٢١٦ ، أحمد بن خالد: تاريخ المغرب الأقصى، ص٣٣، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص٦-٧ .

٥- ابن حوقل: صورة الأرض ، ص٧٧، ابن أبى دينار: المؤنس ، ص١٧ ، ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٣٣٤ .

٦- لقد اختلفت الروايات حول اسم القائد العربى الذى فتح تونس، فهناك روايات تنص على أن زهير بن قيس البلوى هو الذى افتتحها عام ٦٧هـ (٦٨٧م) فى حين وردت اشارات أخرى وهى الأصح أن الذى افتتحها هو حسان بن النعمان عام ٧٧هـ (٦٩٧م) وأنه قام على رأس حملتين منظمتين وذلك بعد استشهاد زهير بأفريقيا ولم يكن قد فتح بعد أما حملة حسان الأولى، كانت عام ٧٤هـ (٦٩٤م) والثانية عام ٧٨هـ (٦٩٨م) وعندما وصل حسان إلى هناك بادر بتشديد الحصار حول قرطاجنة ويقال أنه أقام معسكره بتونس ثم بدأ بقرطاجنة وأحكم حصاره حتى افتتحها ثم أمر بتخريبها كى لايتخذها الروم منفذا للانتقام من حسان مما دعا إلى ضرورة بناء وتعمير مدينة تونس التى كانت مهملة بسبب وجود قرطاجنة بشهرتها العظيمة التى طغت على معظم مدن أفريقيا وللمزيد عن الفتح الإسلامى لتونس انظر ابن أبى دينار : المؤنس، ص١٤،٩ -١٥ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٣ ، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٤-١٤٥ ، ابن خلدون : العبر، ج٤ ، ص٨٧ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص٢٤٠-٢٥١ .

بأنه لابد من اقامة تحصينات عسكرية قوية تحمى حدود دولتهم الجديدة تونس من غارات البيزنطيين. لذلك أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بارسال ما يقرب من ألفى قبطى مصرى للعمل على تعضيد موقف حسان بتونس ووضع أسس دار الصناعة هناك[١]. وخرق حسان البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة، ويقول ابن أبى دينار أنه جر البحر ١٢ ميلا أى حفر له حتى وصله إلى دار الصناعة التى جعل منها مرسى وميناء هام للسفن [٢]، وأصبح هذا الميناء القاعدة البحرية التى كانت تقلع منها الأساطيل الإسلامية فى صراعها ضد البيزنطيين بعد احتلال قرطاجنة [٣]، كما شيد بالقرب من دار صناعة السفن دار للإمارة وثكنات للمرابطة وهذه الانشاءات العسكرية ظلت فى تطور مستمر على مر العصور. فقد أزاد فيها موسى بن نصير، لدرجة أن بعض المؤرخين ينسب إليه بناءها، وفى الحقيقة فإن النواة الأولى تعود إلى الحسان بن النعمان. أما ما فعله موسى وعبيدالله بن الحبحاب، والأغالبة، وغيرهم ممن حكموا تونس فما هى إلا اضافات وبصمات ذات قيمة أضيفت للجهد والنواة الأولى التى زرعها حسان بن النعمان، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن تونس لم يكن ينقصها من الناحية العسكرية شئ بل كان يمكن أن تقف حائطا منيعا فى وجه قادة الحملة الصليبية التاسعة فقد وصف البكرى دار الصناعة هذه بأنها كانت متصلة بالميناء والميناء متصل بالبحيرة والبحيرة متصلة بالبحر [٤]، وبالإضافة إلى المنشآت العسكرية التى أقامها المسلمون، فإنه يرجع الفضل أيضا إلى حسان بن النعمان فى وضع نواة جامع الزيتونه، الذى أزاد عليه وطوره عبيدالله الحبحاب [٥]. وجامع الزيتونة بنى على مستوى رفيع من الفن

١- ابن خلدون : المقدمة، ص٢٥٣، البكرى: المغرب، ص٣٨، راجع أيضا أبوزيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٦٧ .

٢- مرسى رادس هو ميناء تونس على البحر المتوسط. انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص٦٠ .

٣- ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٥، راجع أيضا عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ص٢٤٩ .

٤- البكرى: المغرب، ص٣٧ -٣٩ .

٥- عبدالله بن الحبحاب هو عامل الخليفة هشام عبد الملك على مصر وكان من أسرة عريقة وأميرا جليلا وكاتبا بليغا أمره الخليفة بالسير نحو أفريقيا وولاه اياها عام ١١٠هـ (٧٣٠م) وينسب إليه خطأ بناء دار الصناعة ولكنه أزاد عليها وطورها هي والمسجد انظر ابي دينار : المؤنس، ص٤١ .

المعمارى [١]، وهو يطل على البحر وينظر الجالس فيه على جميع جواريه » [٢].

وتشتهر تونس فى الفترة موضوع الدراسة بالأسواق الكثيرة والحمامات وعضادات الأبواب الرخامية الرائعة الصنع وهو ما اشتهرت به قرطاجنة . كما كان يصنع بها الأوانى الخزفية الشديدة البياض وقد صنعت خصيصا للماء ولايرى لها مثيل فى بقية بلاد المغرب[٤] واشتهرت أيضا بالقصور الرائعة ومنها قصر يقع على أعلى جبل يسمى جبل التوبة لاينبت به زرع ويسميه التونسيون الزلاج وشرق هذا القصر غار منحنى الباب يسمى المعشوق ، وبالقرب منه عين جارية وقد اندثر القصر ولايوجد سوى المغارة . وفى الطريق إلى شاطئ البحيرة كانت توجد عين ماء يقال لها الحمام وتشتهر تونس بتعدد ثرواتها الطبيعية ومنها الثروة السمكية حيث يصطاد التونسيون أنواعا عديدة من الأسماك والحيتان[٦] ومنه نوع يقال له البقونس وفيه مثل شعبى «لولا البقونس لم يخالف أهل تونس» [٧]. والسبب فى هذا المثال هو أن أهل تونس كانوا معروفين بمخالفة الحاكم فى الرأى والخروج على الولاة دائما ويصفهم القزوينى بأنهم مشهورين باللؤم ودناءة النفس والبخل الشديد والشغب والخروج على الولاة. وقد قال أحد ولاتهم فيهم شعرا يؤكد هذه الصفات:

١- لقد ثار جدل بين المؤرخين حول المؤسس الحقيقى لجامع الزيتونة إلى أن قام أ.د. أحمد فكرى بدراسة علمية أثرية حوله وتبين من النقوش الموجودة به أنه بنى فى أوائل القرن الثالث الهجرى (أوائل القرن التاسع الميلادى) وللمزيد حول التطور العمرانى لجامع الزيتونة انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص٤٣٥-٤٤٢ .

٣- الجارية : هى السفينة ومنها قوله تعالى فى سورة الرحمن «وله الجوار والمنشآت فى البحر كالأعلام»، آية ٢٤ .

٤- العضادة : هى عضادة الطريق أى ناحيته وعضادة له أى تعاونه وتوافقه وعضادتا الباب أى خشبتاه من جانبيه والعضاد ما يحيط باليد من حلي ونحوها ، أنظر: جبران مسعود ، الرائد ، ج٢ ، ص١٠٣٠ .

٥- الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٣ ، ابن دينار: المؤنس ، ص١٢، المسعودى: مروج الذهب ، ص٥٧ .

٦- ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٣ ، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٥ ، ابن أبى دينار: المؤنس ، ص١٢ .

٧- الحميرى: المصدر السابق، نفس الصفحة .

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها ولكن ألفيتها وهى توحش[١]

وأصدق دليل على ذلك السياسة الملتوية التى سلكها المستنصر صاحب تونس ازاء حملة لويس التاسع على بلاده، وترك أرضه نهبا للعدو. ومن الغريب أننا لم نسمع فى هذه الفترة ولم نتمكن من العثور على أى اشارات تفيد بخروج الشعب التونسى ضد حاكمه رغم تظاهره الواضح بالمالأة مع العدو، وقد وصفها الخليفة عمر رضى الله عنه «بأنها افريقيا ولكنها المفترقة غادرة مغدور بها»[٢].

وعلى أى الأحوال ، فمن المعروف أن مدينة تونس تطورت تطورا ملحوظا منذ الفتح الإسلامى لها وتميزت باستقرار ورخاء اقتصادى تمركز فى حاصلاتها الزراعية ومحاصيلها الفريدة . كما أعطى لها موقعها الممتاز مجالا واسعا لكى تزدهر تجاريا ، حيث كان لقرب جزيرة صقلية من تونس أثر عظيم فى رواج التجارة بها وجعل من تونس حلقة اتصال بين الشرق والغرب[٣]. كما ازدهرت أيضا عن طريق صناعة الخمور نظرا لكثرة محصول العنب بها [٤]. ويذكر ابن بطوطه أن أهل المغرب عادة كانوا يتمتعون برخص أسعارهم عن مصر [٥]، وكثرة محاصيلهم من الزيتون والسفرجل واللوز العجيب والتين الأسود الكبير والرمان الذى له حلاوة لاتوجد فى غيره والبطيخ والموالح [٦]. وقد ترتب على انتعاش تونس اقتصاديا أن عقدت العديد من المعاهدات الاقتصادية مع جنوة وبيزا وصقلية والبندقية وسردينيا وغيرها، وكانت شوارع تونس تعج بالتجار المسيحيين من كل الجنسيات ، وكان التونسيون سفراء المغاربة فى بلاد أوربا وشكلوا وزنا وثقل لايستهان به ابان الحملة الصليبية عليها .

١- القزوينى: آثار البلاد ، ص١٧٣، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٣-١٤٤ .

٢- كان هذا فى مضمون الرسالة التى بعث بها عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص اثناء تقدمه لفتح أفريقيا، ورغبته الملحة فى الحصول على موافقة الخليفة. فكتب إليه عمر بهذا الرد لأنه كان يعلم بثورات أهلها ونكثهم الوعود». وللمزيد انظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١٥١ .

٣- الادريسى: وصف المغرب، ص١١ ، الحميرى: الروض المعطار، ص١٤٥ .

٤- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٢-١٣ .

٥- ابن بطوطة : مهذب الرحلة، ص٤٣٢، البشارى : أحسن التقاسيم، ص٣٣٩ .

٦- ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٧، الحميرى: الروض، ص١٤٥، القزوينى: آثار البلاد، ص١٧٣ .

وإذا كنا قد تناولنا فى بداية عرضنا للمسرح الجغرافى جغرافية مدينة تونس، فهذا يرجع إلى أهميتها السياسية وقت وصول حملة لويس التاسع إليها. ولكن نظرا لأن مسرح الصراع العسكرى كان على أرض قرطاجنة نفسها وليس تونس. فمن الجدير بنا أن نتناول أيضا جغرافية وطبوغرافية قرطاجنة قصبة بلاد أفريقيا كما كانوا يسمونها قديما . وقرطاجنة خلال موضوع البحث كانت بلدة مخربة مهدمة وتابعا سياسيا وعسكريا لتونس، تبعد عنها بما لايقل عن عشرة أميال (١)، وقيل اثنتى عشر ميلا (٢). وهناك أكثر من موضع يحمل اسم قرطاجنة فهناك قرطاجنة الأندلس وهى تقع عند جبل طارق وتعرف باسم قرطاجنة الجزيرة ومرساها عند موضع يقال له وادى الرمل(٣). أما الثانية فهى قرطاجنة الخلفاء بالأندلس(٤) أيضا وهى واحدة من قرى تدمير(٥) وكانت تدمير قد أصبحت فى مكانة مرموقة من الناحية السياسية بعد «تدمير مرسية» وهى فى نفس الموضع جنوب الأندلس (٦)، وكانت ترسي عندها المراكب

١- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢ ، ابن أبي دينار: المؤنس ، ص٢٨ .

٢- ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٣ .

٣- بعث طارق بن زياد عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بحذاء الساحل شمالا واستولت على هذه القرية التي عرفت باسم قرطاجنة الجزيرة وهى تقع في جوف جبل طارق عند مصب نهر يعرف بوادى البحر واستولى على كل المنطقة المحيطة بها. انظر المقرى: نفح الطيب، ج١، ص٢٢٩ ، راجع كذلك عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص٢٧٤ .

٤- الحميرى : الروض المعطار ، ص٤٦٢ ، المقرى : نفح الطيب، ج١ ، ص١٦٨-١٦٩ .

٥- تدمير هذه أقيمت فى موضع مدينة مرسية جنوب أسبانيا ، وقد فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير ويقال أن الذى فتحها هو عبد الأعلى بن موسى بن نصير وليس عبد العزيز وهناك قصة تتعلق بفتحها وذلك أن ملكها كان يسمى غندرس ولما فشلت قواته فى وقف الزحف الإسلامى على تدمير عمل على اخراج النساء وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويقفن على سور المدينة وخلفهن ممن بقى من الرجال، فانعقد له الصلح والأمان ودخل عبد العزيز المدينة وفوجئ بقلة رجال تدمير بن غندرس . وللمزيد انظر الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢، المقرى: نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٧٥ .

٦- لقد خربت قرطاجنة الأندلس لأن ماء البحر طغى على جزء منها وتبقى جزء بسيط ليس له شهرة المدينة الأم ويتضح من بقاياها أنها بنيت على غرار قرطاجنة أفريقيا. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان، ق٤، ص٣٢٣، المقرى : نفح الطيب ج١، ص١٦٤ ، راجع أيضا عبد الحميد حميدة: أعلام الجغرافين العرب، ص١٥٤ .

الصغيرة والكبيرة ، ومشهورة بخصبها وأراضيها الزراعية الشاسعة وعذوبة ماءها . وأما الثالثة فهى قرطاجنة أفريقيا وتنطق بالفتح ثم السكون وطاء مهملة وجيم ونون مشددة وقيل أن اسمها قرطا وأضيف لها كلمة جنة لطيبها وحسنها[١] وهى من أعظم وأقدم مدن أفريقيا يقول عنها وليم دى نانجى مؤرخ وشاهد عيان الحملة الصليبية على تونس «أننا رسونا قرب شواطئ قرطاجنة التى كانت تسمى سيدة مدن أفريقيا على الاطلاق وكانت تتمتع بقدر كبير من المنعة والسيطرة والحصانة»[٢]. ومدينة قرطاجنة غاية فى القدم يقال أنها بنيت قبل بناء مدينة روما باثنين وسبعين سنة ويقال أن ملكها كان جبارا عظيم الشأن ويسمى هانيبال Haniball وكان كثير التعدى على روما فدخلها وقتل ملوكها وأخذ بلادهم وبعث إلى قرطاجنة خواتيم الملوك الذين قتلهم . ولما اشتد حصاره على روما أرسل قائد روما أحد قواده وأمره بضرب حصارا شديدا حول قرطاجنة وكان اسم هذا القائد الرومانى هو شيبون فخرب رجاله قرطاجنة ونزلوا بديارها ولقنوا هانيبال درسا قاسيا كان من أهم نتائجه بداية تخريب قرطاجنة وتهديمها[٣]، إلى أن أتى المسلمون عند فتحهم لتونس على ما تبقى بها من آثار.

وعلى الرغم من سيطرة الرومان عليها إلا أن قرطاجنة ظلت تتمتع بوزن وثقل اقتصادى كبير في حوض البحر المتوسط [٤]، وظلت تناوئ روما فترات وتثور ضدها إلى أن كانت محنة الامبراطورية الرومانية وتضعضع كيانها [٥]، مما أدى إلى ازدياد الطامعين فيها وعلى رأسهم الوندال الذين تمكنوا بقيادة ملكهم Gesrick من الاستيلاء على قرطاجنة فكانت لطمة

١- ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٣ ، وللمزيد عن حكم الفينقيين لقرطاجنة قديما أنظر عبد الحميد حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص١٨-٢٠ .

٢- Nangis , Vie de Saint Louis, p. 441 .

٣- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢-٤٦٤ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، ص٢١-٢٢ ، الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٣٥ ، راجع أيضا آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ص٤٣٣، عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦، جمال الدين الدناصورى جغرافية العالم، ص١٤٣ .

٤- ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٣، انظر أيضا عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦-٤٦٧ .

٥- جوزيف نسيم: ورثة الامبراطورية الرومانية، ص٥٠-٥٢، ابراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا ، ص٢٠ .

قوية وجهت إلى روما حيث اتخذ منها الوندال مركزا للقيام بالغارات البحرية ضد روما. وحاول الرومان جاهدين ارجاعها إلى نفوذهم ولكن دون جدوى حيث منى أسطولهم بهزيمة فادحة قرب قرطاجنة عام ٤٦٨م. وتأكدت روما من ضياعها بأن عقدت معاهدة مخزية مع Gesrick اعترفت بسلطانه على قرطاجنة إلى أن تمكنت الامبراطورية البيزنطية من فرض سيطرتها على المغرب ورحبت قرطاجنة بالبيزنطيين لسوء معاملة الوندال لشعبها وظلت هكذا إلى أن تم الفتح العربى الإسلامى لها على يد حسان بن النعمان(١).

وقد حبت الطبيعة قرطاجنة بمقومات هامة نظرا لوقوعها على ساحل البحر المتوسط وأدرك الرومان والوندال والبيزنطيون ذلك ، وفطن أيضا حسان بن النعمان إلى أهميتها فى ممارسة النشاط الاقتصادى والعسكرى(٢) وأشاد حسان بذلك فى الوقت الذى شعر فيه بخطورتها على الوجود الإسلامى هناك حيث أنها كانت المعبر السهل أمام البيزنطيين لتوجيه الضربات القاسية إلى المسلمين بتونس لذلك أمر بتخريبها وأتى على ما بها .

هذا عن تاريخ قرطاجنة السياسى قبل الحملة عليها، أما عن جغرافيتها فهى تقع أعلى مدار السرطان باحدى عشر درجة ، طولها حوالى ٢٤ درجة وعرضها ٣٥ درجة(٣) بينها وبين بحيرة تونس المحفورة حوالى ثلاثة أميال ونصف وهو الموقع الذى شهد المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة يحيى بن صالح والصليبيين. ويتصل بها من جهة الغرب إقليم سطفورة بمدائنه الثلاث وهى بنزرت واشلونه وتينجه (٤). ويحيط بقرطاجنة ثلاثة أسوار دائرة يضرب البحر فيها من كل جانب(٥) ونظرا للتخريب المتكرر الذى أتى عليها فلم يتبق منها سوى الميناء

١- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٦-١٥، ٤٧ ، ٥١ .

٢- عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦، لوبون : حضارة العرب، ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص٧ ، إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوروبا ، ص١٦-١٧ .

٣- ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٢ .

٤- الادريسى : وصف المغرب ، ص١١٤ وأيضا الخوارزمى: كتاب صورة الأرض عن جغرافيا بطليموس القلوذى، ص١٦ راجع أيضا عبد العزيز سالم وآخرون ، البحرية المصرية ، ص٤٧٧ .

٥- ابن أبى دينار: المؤنس ، ص٢٤ ، الادريسى، وصف المغرب، ص١١٢ ، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ص٣٢٣، الحميرى: الروض المعطار ، ص٤٦٢ .

والبرج وأرض المعلقة التى كانت تحتوى على القلعة ويقع ميناء قرطاجنة داخل المدينة، وكانت له شهرة عظيمة وتتمتع برواج تجارى كبير، وكانت تدخله السفن يوميا محملة بالبضائع المختلفة ووقت وصول الحملة كان خربا مهدما وقد فقد أهميته العظمى عند الفتح الإسلامى، وكان يوجد عليه قصر ورباط[١].

أما البرج فكان يعرف باسم برج سليمان [٢]، وعرفه الزركشى باسم قرطيل المحار[٣] شرقى قرطاجنة وعلى الرغم من أن اعادة بناء هذا البرج وعمارته حدثت فى أواسط القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)[٤]، إلا أن مكانه كان موجودا منذ القدم وتأثر بالتخريب الذى تعرضت له قرطاجنة ، وقد استفاد منه الصليبيون تماما بل كان البرج من أوائل المواقع العسكرية الهامة التى حرص عليها الصليبيون فى بداية نزولهم قرطاجنة.

وقد تبقى من قرطاجنة أيضا قلعة تسمى بالمعلقة[٥]، وهى القلعة التى استولى عليها لويس التاسع بعد نزوله قرطاجنة مباشرة ونقل إليها مرضاه. ويذكر الحميرى عن تاريخ هذه القلعة «أنه كان يسكنها قوم من العرب يعرفون ببنى زياد، ولما طلع عبد المؤمن بن على إلى أفريقيا قبض على أميرهم محمد بن زياد وضرب عنقه وكانت فى وقت عمارتها (أى القلعة) من غرائب البناء وظهرت فيها قدرة عظيمة لم يبلغها أحد من قبل»[٦]. وقد وصفها الادريسى «بأنها من غرائب البناء في وقت عمارتها [٧]، وأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا بالبحر».

وقد تعددت الروايات حول محاسن قرطاجنة وروعة مبانيها قبل تخريبها ويقال أن مجارى مياه قرطاجنة لم يوجد مثلها فى روعتها، وجميعها من الرخام الأبيض والملون المتعدد

١- ابن أبى دينار: المؤنس ، ص٢٤ .

٢- ابن أبى دينار : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٣- القرطيل : هو الرأس البارز من البر في البحر وهو اصطلاح جغرافى قديم .

٤- الزركشى: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١٠٧ .

٥- الحميرى : الروض المعطار، ص٤٦٢ .

٦- الحميرى: المصدر السابق ، نفس الصفحة، ابن أبى دينار : المؤنس ، ص٢٤ .

٧- الادريسى: وصف المغرب، ص١١٢، الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٣٥ .

الأشكال. ويشبهها ياقوت بأن عقود هذه المجارى كانت أشبه بالمنائر وتضاف إلى عظمة منارة الاسكندرية (١).

ويقال أن المسافة بين قرطاجنة والقيروان ثلاثة أيام، والسائر فيها كان يمشى بين جبال منحازة بعضها إلى بعض وبين تلك الحبال عقود معقودة وعمد مبنية، وفوق هذه العقود يجرى الماء بروعة وجمال (٢)، ويضيف الحميرى قائلا «أن من يدخل قرطاجنة كان يجد فى كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل »(٣). ومن أعجب مبانيها أيضا الحنايا، وهى التى جددها الخليفة المستنصر الحفصى وقت توليه الحكم وجلب الماء عليها إلى بساتينه بأبى فهر . وكانت الحنايا هذه من عجائب الدنيا كما يصفها الرحالة العرب، وكان الماء ينبعث إليها من عين يقال لها جوقار أو جلقار، وهى وراء زغوان(٤)، بمسافة كبيرة ويقال أنهم جلبوا إليها ماء زعوان أيضا. وكانت تلك الحنايا تغيب تحت الأرض فى الأماكن المرتفعة ، فإذا مرت على مواضع منخفضة تكون على قناطر فوقها قناطر. وكان يوجد فى وسط قرطاجنة صهريج يقع من هذا الماء المجلوب(٥).

وبالقرب من قلعة قرطاجنة السابق ذكرها كان يوجد قصر يسمى قصر الطياطر(٦)، وكان يتسم بالارتفاع الشاهق وبه قباب معقودة ، ومطل على البحر، شكله مستدير، يقال أن من يراه على بعد يجده كأنه قائم فى الهواء(٧) ويوجد به خمسون قوسا ، كل قوس سعته تزيد عن ثلاثين شبرا ومبنى من حجر يسمى الكلذان وقد رسمت بمحيط استدارته أنواع من الصور والتماثيل العجيبة والسباع والحيوانات . وكان ملمسه ناعما وضم أيضا ملعبا وناديا كان يجتمع فيه آهل قرطاجنة فى أوقات معينة من العام.

١- ياقوت الحموى : معجم البلدان، ص٣٢٢، راجع أيضا : آدم متز: الحضارة الإسلامية ص٢٧٥ .

٢- المقرى: نفح الطيب، ج١ ، ص١٦٨ .

٣- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢ .

٤- يقال أن هذه العين لاتزال موجودة بتونس فى موقع يقال له الحميدية وزغوان مدينة بتونس أيضا .

٥- وللمزيد عن عجائب البناء فى هذه الحنايا: انظر الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٤ ، ابن أبى دينار: المؤنس، ص٢٤-٢٥ .

٦- طياطر، تحريف كلمة تياتر Theatre أى المسرح . انظر : ابن أبى دينار: المؤنس، ص٢٤-٢٥ .

٧- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢ ، ابن أبى دينار ، المؤنس: ص٢٤ .

كما يوجد أيضا قصر يقال له ترمس أو قومش[١]، وكان مبنيا من الرخام الأبيض المفرط في الطول ، يتربع على رأسه سارية من عشرة رجال ، وكان يوجد بها مواجيل يسميها التونسيون مواجيل الشياطين[٢] لأنه لايعرف من أين دخلها الماء ولاتزال تلك المواجيل موجودة حتى يومنا هذا . وقد سكن هذا القصر قوم من قطاع الطرق ، فصمم أهل تونس على التنكيل بهم، وهدموا أجزاء من القصر وهم بداخله فماتوا ودفنوا جميعا فيه [٣].

واشتهرت قرطاجنة أيضا بمبان عجيبة كان اسمها الدواميس[٤] وكان عددها ٢٤ داموسا طول كل منها ١٣٠ قدما وبين كل داموسين يوجد خوخات يصل منها الماء إلى جميعها بهندسة وحكمة، وكان الماء الواصل من عين جوقار التي بقرب القيروان إلى قرطاجنة يفرغ فى هذه الدواميس على عدة قناطير لاتحصى على وزن معتدل على قواعد مبنية بالصخر، وقد انقطع الماء من هذه الدواميس لكسر القناة وخراب قرطاجنة [٥].

وكان يوجد بها أيضا قصران من رخام يعرفان بالأختين فيهما ماء مجلوب من الناحية القبلية من قرطاجنة ، وعليه ماء مجلوب من جوف الأرض ومن تحت الجبل، وماء مجلوب من موضع الميناء القديم ومن أعظم ما يوجد فى هذين القصرين الرخام بأشكاله الرائعة وألوانه الجميلة وكل قطعة من هذا الرخام ليس لها مثيل[٦].

١- الحميرى : الروض المعطار ، ص٤٦٢، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٢٤ .

٢- سميت بهذا الاسم لأنه كان من يتقرب منها ويتحدث كان يسمع دويا هائلا. وكانوا يعتقدون بوجود الشياطين داخلها ولكنها اسطورة ، وكل ما فى الأمر كما ذكر الحميرى، أن الصوت كان يتردد صداه ، ولم يصدق التونسيون ذلك فنسجوا حولها الأساطير . انظر الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٤ ، ابن أبى دينار: المونس ، ص٢٤ ، والموجيل يقصد به الماء الثائر دون انتظام ومنه المرج والمواج والتموجان ، انظر ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٥٤٨، جبران مسعود: الرائد، ج٢ ، ص١٤٥٣ .

٣- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٣ .

٤- الدواميس: هى الأحواض أو الهواويس ومفردها داموس وكانت تستعمل بمعنى السجن ومنها الديماس. انظر المقرى، نفح الطيب، ج١ ، ص١٦٨ .

٥- الادريسي : نزهة المشتاق ، ص١١٣ ، الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٣، ابن أبى دينار: المؤنس، ص٢٤-٢٥ .

٦- ابن أبى دينار : المؤنس : ص٢٤ ، الحميرى، الروض المعطار، ص٤٦٣، الحموى: معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٣، الادريسى، وصف المغرب، ص١١١ .

وقرطاجنة كانت تحيط بها أراض منخفضة عنها عبارة عن سهول ومزارع وحقول لا حصر لها ويزرع بها العديد من الثمار والغلات طوال العام[١].

على الرغم من كل هذه الحضارة العمرانية والمكانة الاستراتيجية والاقتصادية التي تميزت بها قرطاجنة بين كل مدن أفريقيا ، إلا أن يد الخراب امتدت إليها مرارا كما سبق القول فقد دمرتها روما من قبل ، ويوم أتى حسان بن النعمان إلى أفريقيا نزل على قرطاجنة أول ما نزل نظرا للأخبار التى وصلته عن ذيوع صيتها وشهرتها السياسية بين المدن الأخرى ، فحاصرها عام ٧٧هـ (٦٩٧م) واضطر ملكها البيزنطى إلى الهرب ليلا إلى صقلية والأندلس[٢]. ودخلها حسان بالسيف ، ولما وجد فيها مطمعا وفرصة سهلة لاعتداءات البيزنطيين على المسلمين بتونس أمر بتهديمها وانشاء مدينة تونس عوضا عنها، وهى القرية الصغيرة المهملة من قبل. ولم يتبق من آثار قرطاجنة حسبما أسلفنا إلا الميناء والقلعة والبرج[٤]، وهى الأماكن التى احتمى الصليبيون بها يوم وصولهم قرطاجنة، وكان من آثر انتشار الفرنج فى بقية أراضى قرطاجنة.

وهكذا لعب الموقع الجغرافى لتونس وقرطاجنة دوره الخطير فى ازدياد الطامعين فيها. فقد أثر على اقتصادياتها وراجت التجارة بها، وذاعت شهرتها فى كل أوروبا وازدهرت تونس حضاريا، وبنيت فيها القصور والمساجد واتسعت عمارتها وازدادت خيراتها، وعمرت أسواقها وعقدت المعاهدات التجارية بينها وبين معظم مدن الغرب، وبنيت فيها الفنادق والمطاعم

١- الإدريسي: وصف المغرب، ص١١٤ .

٢- الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٣ .

٣- ابن أبى دينار: المؤنس : ص٢٥، ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص١٠ . ابن عذارى، ج١، ص٣٥ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص١٠٩ ، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ص٣٢٣ .

٤- اختلفت المصادر حول التحديد الزمنى الذى خربت فيه قرطاجنة فمنهم من يقول خربها الرومان ومنهم من يقول خربت على عهد عثمان بن عفان لما أرسل قائده عبدالله بن أبى السرح إلى حوض البحر المتوسط. فى حين توجد بعض الآراء القائلة، بأن الحسان هو أول من خربها وللمزيد انظر: الحميرى: الروض المعطار، ص٤٦٢-٤٦٤، ابن أبى دينار، ص٢٦-٢٧، راجع ايضا عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص٢٦٥ .

لاستقبال الزائرين من التجار، لدرجة أن أسواق تونس[١]، ضاقت بهم آنذاك واستمرت هكذا طوال فترة الحملة الصليبية ومدة زمنية كبيرة بعدها إلى أن دخلت فى طور الانحدار بسبب الاضطرابات السياسية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى / أواخر القرن التاسع الهجرى ولولا كل هذا التطور الحضارى الذى اشتهرت به تونس وموقعها الاستراتيجى الجغرافى الممتاز ما طمع فيها لويس التاسع ورفاقه. فالهدف الأسمى بالنسبة لهم هو الاستيلاء على الأرض والمال . وقد ظهر ذلك واضحا . ومات الشعار الصليبى المعروف وزال القناع الدينى الذى طالما نادوا به لتبرير هجومهم على أراضى الإسلام. فلو كان الدين هو الأساس لرحلوا إلى بلاد الشام مباشرة واستولوا على بيت المقدس من المسلمين .

١- دائرة المعارف الإسلامية، ج١٠ ، ص١٧٢ .

دراسة تحليلة نقدية لأهم مصادر الموضوع ومراجعه

أولا : المصادر الأجنبية :

تقييمها وأهميتها : وليم دى نانجى- وليم دى شارتر- جوفروا دى بليه- قوائم الفرسان لمؤلف مجهول- تاريخ الامبراطور هرقل لمؤلف مجهول- فضائل القديس لويس لمؤلف مجهول- حوليات مآثر القبارصة- حوليات الأراضى المقدسة لمؤلف مجهول- وليم دى سان باثوس - ويجلر- وليم دى بادوا .

ثانيا: المصادر العربية :

تقييمها وأهميتها: ابن خلدون - ابن القنفذ- الغبريني- ابن أبى دينار ابن أبى زرع- الحلل الموشية لمؤلف مجهول- الزركشي- الفيومي- العيني- ابن تغرى بردى- ابن الفرات- ابن واصل- ابن العبرى- اليونيني- ابن أيبك- المقريزى- ابن اياس- ابن رسول.

ثالثا : كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب :

الادريسى - ابن خرداذبة - الأصطخرى- المسعودى - ابن حوقل- الحموى.

رابعا : المراجع الحديثة من عربية وأجنبية :

مراجع أجنبية فى تاريخ الحركة الصليبية- مراجع أجنبية فى سيرة الملك لويس - مراجع أجنبية فى تاريخ انجلترا وفرنسا- مراجع عربية شاملة ومتخصصة فى تاريخ المغرب .

موضوع بحثنا وهو حملة لويس الصليبية على تونس، فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى/ أواخر القرن السابع الهجرى، يعد من الموضوعات الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية، فهو الحلقة الأخيرة فى تلك السلسلة الممتدة من الصراع الصليبى الإسلامى .

وعند الخوض فى غمار أحداث هذه الحملة ووقائعها ، والكشف عن غموضها وفجواتها العديدة، كان لابد من البحث والتنقيب فى بطون الأصول العربية والأجنبية على حد سواء، وكان لابد لنا من وقفة مع مختلف الروايات والأسانيد ومناقشتها ومقارنتها بعضها ببعض بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية والكشف عن أسلم الوقائع وأصولها .

واعتمدنا في هذه المصادر على روايات وردت على لسان شهود العيان ممن عاصروا أحداث ذلك الزمان، وروايات منقولة عن أصول منها ما فقد، ومنها ما هو متقدم عنها زمنيا . وتأتي المصادر الأجنبية في المقام الأول من حيث الأهمية، وذلك بسبب انخراط عدد كبير من المؤرخين الغربيين في سلك الحملة على تونس فكانت معاصرتهم للأحداث من بدايتها إلى نهايتها وتسجيلهم لها ذات أثر كبير في الكشف عن الغموض الذي أحاط ببعض قضايا الحملة ومشاكلها . بالإضافة إلى الصدق والواقعية الذي تميزت به المصادر الأجنبية باستثناء بعض الأحداث التي تجلت فيها العصبية والتزمت ، وهو ما كشفته لنا المصادر العربية . لقد كانت المصادر الأوربية بمثابة الضوء الذي تسلط على أحداث الحملة بدقائقها وتفاصيلها . ولكن هذا لايعني اغفال المصادر الإسلامية التي كانت بمثابة ينبوع ملئ بالأحداث السياسية التي أحاطت ببلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص وهو ما عجزت المصادر الأجنبية عن السير وراءه وسبر أغواره. حقيقة أن تلك المصادر لم تكن تجهل تماما أحوال العالم الإسلامي ولكن ما ورد بها لايقاس بما زودتنا به الأصول العربية.

وعلى الرغم من أن مؤلف جوانفيل عن «تاريخ القديس لويس» هو من أهم المصادر الأوربية عن عصر لويس التاسع وحملتيه على مصر والشام. إلا أن عدم مرافقة جوانفيل للويس في حملته الثالثة على تونس، انعكس بصورة أو بأخرى على كتاباته التي نقلها عن البعض ممن رافقوا لويس، مما أضاع علينا فرصة الوقوف على أخبار هذه الحملة بصدق وواقعية جوانفيل مثلما فعل في الحملتين السابقتين اللتين قام بهما سيده . ولهذا كان اعتمادنا على مؤلف آخر عن «سيرة القديس لويس وابنه فيليب » للمؤرخ الغربي المعاصر للأحداث وليم دي نانجي[١]، وقد أعد مؤلفه باللغة اللاتينية ثم نقله إلى اللغة الفرنسية القديمة. واستهله بالتعرض لأهم الأسباب والأحداث التي صاحبت حملات لويس على مصر وبلاد الشام . وقد اعتمد نانجي فيما يتعلق بأنباء هاتين الحملتين على كل من جوفروا دي بلييه وجيلون دي ريمز[٢] Gilon de Reims .

أما ما ذكره عن حملة لويس على تونس . فله طابع خاص وأهمية كبيرة، حيث أنه رحل بالفعل مع لويس وكان شاهد عيان لوقائع الحملة منذ بدايتها وحتى رحيلها عن تونس، وقد

١- Michaud, Crois . VI, pp. 198-9 ; Molinier, t. III, p. 102 .

٢- لقد فقد مؤلف جيلون ولكن صدق نانجي فيما نقله عن جوفروا دي بلييه يؤكد صدقه فيما نقله عن جيلون أيضا وهذا يعني أنه حفظ لنا الكثير من مادة كتاب جيلون المفقود.

اتسمت كتاباته بالصدق والواقعية حيث زودنا بالعديد من صور الصراع بين المسيحيين والتونسيين بشكل تفصيلى دقيق عجز كافة المؤرخين المسلمين عن التعرض لها مثلما فعل نانجى. ولكن يؤخذ عليه النزعة العصبية والقومية فى كثير من الأحيان. ولقد استهل نانجى مؤلفه عن حملة لويس على تونس بذكر أهم الأسباب التى دفعته للدعوة لهذه الحملة والقيام بها. وأكد أن قوة المسلمين المتزايدة بمصر وبلاد الشام باتت تهدد مصالح فرنسا ودول غرب أوروبا بأجمعها، وكان لابد من انتفاضة قوية لقمع هذه القوى. ولم يخف نانجى أن لويس كان مليئا بالحقد على المسلمين بعد أسره وهزيمته فى مصر. وأن من أهم أسباب حملته على تونس هو سبب شخصى نفسى يتعلق به شخصيا. إذ كان يسعى لرد اعتباره بعد أن امتهنت كرامته بعد اذلاله على ضفاف النيل فكان يريد الانتقام من المسلمين والثأر لهزيمته الفادحة فى مصر.

وآكد نانجى أنه من ضمن الأسباب أيضا رغبة لويس فى وضع كنوز تونس من الذهب والفضة والثروات الأخرى بين يديه. كما تعرض بالتفصيل لموقف البابوية من لويس وكيف وجد كل التأييد منها ونوه أن هذا كان فى الظاهر فقط، أما فى الخفاء فقد حقدت البابوية على لويس لتسلطه على مجريات الأحداث فى أوروبا. وأورد أسماء الملوك الذين شاركوا لويس فى الحملة والسلبيات التى واجهها من عدد منهم. ومن رجاله بفرنسا ممن تقاعسوا عن المشاركة فى حملته. وتحدث نانجى باسهاب عن أهم الترتيبات التى أقرها لويس فى فرنسا قبل رحيله واعتماده على الكونت فيسكوسين Viscocine كونت مدينة سان دنيس لاقرار شئون الحكم أثناء غيابه. كما استعرض بتركيز موضوع المراسلات السرية التى كانت تتم بين لويس والمستنصر بشأن دخول الأخير فى الديانة المسيحية. وواضح أنه غلبت عليه العاطفة فى هذه الرواية، وقد أيدها بشدة رغم أنه كان يناقض نفسه فى مرات كثيرة ويقر بخديعة المستنصر لهم بشأن هذا الموضوع. وقد ناقشنا ذلك بالتحليل والتفصيل فى متن الكتاب.

وقد انفرد نانجى فى روايته بالوصف الدقيق الذى أعطى صورة حية عن حالة الجيوش الصليبية فى ميناء اجمورت الفرنسى وكان مبالغا فى وصف تعدد القوات الصليبية، عندما يقال آنه بلغ من كثرتها أنها غطت أرض الميناء، ولم يكن يوجد شبر واحد من الأرض ليس عليه موقع لجندى. كما أنه كشف صراحة عن أنباء الصراع الدائر بين أبناء الصليب من أهالى اجمورت وجنود الحملة، والأحداث المؤسفة التى نجمت عن ذلك. وأرجع نانجى سبب هذه الأحداث إلى أن كهولة لويس لم تمكنه من الامساك بزمام الموقف بيد من حديد. وقد

تملكه اليأس لدرجة أنه فكر فى الرحيل إلى مكان آخر انتظارا لوصول باقى الامدادات. كذلك استعرض نانجى أخبار العاصفة التى أصابت الجيوش الفرنجية فى الطريق من سردينيا إلى تونس وزودنا بوصف دقيق لقوة العاصفة وأثرها على الأسطول والمقاتلين ، وبداية انتشار الأمراض بينهم وهم داخل سفنهم وكان نانجى الوحيد من بين المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذى أقر أن سبب انتشار الأمراض بين الجند ليس نتيجة انتقال العدوى من التونسيين بل نتيجة المجاعة وقلة الأقوات واشتداد العواصف وهم فى الطريق إلى تونس. كما تعرض نانجى للمحنة الكبرى التى ألمت بهم وهى مرض قائدهم نفسه واضطراب معسكر الفرنج بسبب موته وتعرض بالتفصيل لمحتوى الوصية التى تركها لويس لابنه فيليب ولم يأت بجديد فيها عما ذكره غيره من المؤرخين . كذلك أوضح حالة المعسكر الصليبى وقت وصول شارل كونت انجو شقيق لويس التاسع ومحاولته لجمع الشمل من جديد. ولم يغفل أنباء الصراع بين شارل والمسلمين، اذ تعرض باسهاب للمعارك التى دارت بين الطرفين وذكر أنها اثنتى عشرة معركة إلى أن انتهى الأمر بالصلح بين الطرفين فى أكتوبر ١٢٧٠م / صفر ٦٦٩هـ .

وقد امتاز كتاب نانجى بالصدق وعدم التخوف من ذكر الحقيقة حتى لو لم تكن لصالح الفرنج. فقد أشار إلى فتور الروح الصليبية وقت الدعوة للحملة ، وأعلن صراحة أن الصليبيين كانوا يتسمون بالكسل والتراخى مثلهم مثل صليبى الشرق اللاتينى. كما أكد رأيه هذا أثناء الصراع فى اجمورت الذى يرجع إلى عدم اقتناعهم بجدوى القيام بحملة جديدة، وأن تحرير الصليب المقدس لم يعد ذا قيمة فى نفوسهم ، كما أن وجوده بين صفوف الحملة أثناء هبوب العاصفة فى طريقهم إلى تونس سمح له ليصف لنا وبدقة كيف أن كبار القادة لم يفكروا إلا فى أنفسهم . وأنهم كانوا يتصارعون من أجل النجاة ، ولم يفكروا فى رعاياهم ولامرضاهم بل كان كل همهم اعداد زوارق النجاة الخاصة بهم، ولم يلتفت أحدهم إلى من فى مسئوليته لانقاذه وعلل نانجى هذا بأنه راجع إلى فقدان الترابط بين هذه الجماعات وتفضيل الذات على المصلحة العامة. كما أتقن نانجى وصفه للحالة الاقتصادية المتردية التى آلت إليها الحملة قبل وصولها تونس وصور لنا تخبط لويس فى قراراته وارتجاله فى حل هذه الأزمة الأمر الذى ترتب عليه أسوأ العواقب . ولكنه كان مبالغا حين أكد أن لويس عرض بيع أشياء ثمينة خاصة به للتونسيين لم يكن يفكر قط فى بيعها ليشترى بها طعاما ووسائل علاج لمرضاه، وذلك لأن هذا الحدث كان فى اللحظة الأولى من اقتراب الحملة من تونس ولم تكن الأمور قد تأزمت بعد

بالصورة التى ذكرها نانجى وقد أظهر نانجى اعجابه بالمسلمين فى كثير من المواضع، فقد صور لنا اصرارهم على عدم التعامل مع المسيحيين أو بيع أى شئ لهم، كما أقر بأن المستنصر قد خدعهم وأوقعهم فى شراكه ، وأنه لم يكن صادقا فى وعوده لهم بالدخول فى المسيحية .

كما أورد بتفصيل واسهاب المجالس التى كان يعقدها لويس مع قادته، وذكر العبارات التى كان يرددها النبلاء والتى تنم عن كراهيتهم وحقدهم على التونسيين ورغبتهم فى الفتك بهم. فقد سجل ما قاله أحد الفرسان «سيدى اسمح لنا بالهجوم وسنتكفل بهم من جراء ما فعلوه معنا»، ولايجد غضاضه فى مدح الجيش التونسى واستعداده العسكرى لمجابتهم ، ولكنه لايخفى دهشته عن تقاعس التونسيين فى الدفاع عن قرطاجنة وكان دقيقا فى وصفه للخطوات العسكرية التى وضعها لويس لاحتلال قرطاجنة ، وبين كيف تم احتلال المدينة على ثلاث مراحل أولها القلعة ثم البرج فالميناء ، وعبر عن فرحة لويس لسقوط القلعة لاحبا منه فى التوسع على حساب تونس فى هذه الظروف الحرجة. ولكن لأنها أحيت الأمل فى داخله لانقاذ مرضاه الموجودين داخل السفن فى عرض البحر دون أى وسائل علاجية. وكان وصف نانجى لمعركة البرج صورة نابضة بالحياة ، إذ ذكر فيها أنواع الأسلحة التى استخدمت وعدد وأسماء الفرسان المسيحيين. وطريقة بداية الهجوم، ولحظات الحصار، والمراسلات التى تمت طوال الليل بين القادة الصليبيين والملك لويس وهو داخل سفينته. ولكنه كان مبالغا فى تعداد القتلى من المسلمين واغفاله من سقط من المسيحيين فى ساحة القتال، بالإضافة إلى مبالغته فى ذكر حجم الغنائم التى سلبها المسيحيون بعد معركة البرج لأن قرطاجنة كانت خربة ومهدمة ولايعقل أن يترك بها التونسيون أشياء ثمينة وهم على علم بهذه الحملة منذ فترة غير قصيرة قبل مقدمها .

كما أبدى نانجى تعجبه من تقصير التونسيين فى الدفاع عن بلدهم ، واهمالهم لحماية سواحل تونس وهى بلد بحرى من الطراز الأول، وذكر أسماء الفرسان الذين كانوا يتجولون داخل قرطاجنة طوال ليلة حصار البرج وذلك للتجسس على رد الفعل لدى التونسيين، ثم عودتهم ليلا بزوارقهم إلى عرض البحر دون أى اهتمام أو اعتراض من رجال حرس السواحل التونسيين .

وأورد نانجى بدقة مضمون الرسالة التى بعث بها المستنصر للويس يهدده بذبح جنوده إن

لم يرحل عن تونس كما ذكر رد الفعل لدى لويس وتخوفه ، بأن عقد مجلسا استشاريا عاجلا وصفه نانجى بأن لويس كان يهمس فى أذن المقربين منه طوال فترة انعقاد المجلس للدرجة أن نانجى عجز عن سماع أى شئ من هذا الحديث ولكنه وصف لويس بأنه كان قلقا وفى حيرة من أمره ولم يكن ثابتا فى خطواته وقراراته عند أول تهديد تونسى مباشر ضده .

ويؤخذ على نانجى اختلاقه لقصة تقدم عدد كبير من علية القوم فى تونس، بطلب الدخول فى المسيحية، ويبالغ فى تصوير مذلتهم أمام المسيحيين واستعطاف لويس لقبولهم فى ديانته وقد أوضحنا أنها قصة من وحى خيال المؤلف كتبها بدافع العصبية والقومية، وأن هؤلاء هم أسرى لديهم واضطروا إلى هذا أملا فى فك أسرهم وليس عن صدق نية للدخول فى المسيحية.

وعلى هذا، فإنه أورد لنا وصفا دقيقا عن حالة الملك لويس بعد مرض ابنه وتخبطه بعد إحساسه هو الآخر بالمرض. ولم يخف أنباء خوف الملك على نفسه وأولاده من حصار المسلمين لخيمته ، بل أوضح أن لويس اتهم حراسه بالتفريط فى واجبات الحراسة الخاصة به . وانفرد نانجى بذكر وقائع آخر المعارك التى دارت بين لويس والمسلمين قبل اشتداد المرض عليه. وترجع أهمية روايته أنه كان على متن سفينة خاصة بالقرب من الشاطئ، وشاهد عن كثب الأحداث حين أمر الملك بالاستعداد لمعركة حاسمة طويلة مع المسلمين بسبب تزايد مضايقاتهم له ولأسرته ، وخوفه على عدد من الملكات والأميرات اللائى قدمن معه. فيصف كيف قام لويس على فوره بترحيل الملكات إلى بلادهن بينما تقدم كل من بيير شامبلين وعمورى دى لاروش لقيادة الجند فى هذه المعركة . وقد كان نانجى صادقا فى وصفه لها حيث أعلن دون تحيز أن الدائرة دارت فى البداية على المسيحيين وقتل عشرة من أشهر النبلاء الفرنج، وتم للمسلمين الاستيلاء على جيادهم. ويشير إلى أنه رغم مشاهدته للمعركة من بدايتها إلى نهايتها فلم يصبه أى خطر لأنها كانت معركة برية فقط.

ويذكر نانجى قائمة مفصلة بأسماء من قتل فيها ، ومن أشهرهم النبيل يوحنا دى بورسليه والفارس كاستليان دى بيوكيريه .

ثم تعرض بالتفصيل للحظات وفاة لويس والوصية التى أملاها على ولده ومن الملاحظ أنه رغم حضور نانجى لحظة املاء لويس وصيته لابنه فيليب إلا أنه لم يأت بجديد فيها عما ذكره غيره من شهود العيان. ومن المرجح أن اهتمام نانجى كان أوسع من التعرض لسيرة لويس الشخصية ، وأنه وضع نصب عينيه الأحداث العسكرية بتونس .

أما عن مؤلفه عن حياة الملك فيليب ابن لويس فلم يفرد له كتابا مستقلا بل ذكره فى أعقاب سيرة أبيه لويس واستهله بوصف دقيق لرد الفعل الصليبى على وفاة لويس ومدى تعاون الصليبيين مع القائد الجديد. كما أورد نص الكلمة التى ألقاها فيليب على جنوده، وكيف تمكن من احتواء شعبه ولم يحدث اضطرابا أو مؤامرات من جراء فقدان قائدهم .

كما أعلن نانجى صراحة رأيه فى شارل كونت أنجو حين وصل تونس وأن مجيئه كان لتحقيق مطامع شخصية وليس لنصرة جنود الحملة. بل إنه ذكر أن شارل تظاهر بالحزن على أخيه ولم يكن صادقا فى ذلك، لأن حزنه الحقيقى كان على عدم وجود قوة عسكرية صليبية كافية فى تونس تحقق له مآربه الخاصة. ولم يجد نانجى غضاضة فى التعرض لاستعداد المسلمين عسكريا لمواجهة شارل، بل أورد لنا صورة نابضة نابضة بالحياة عن الحزام البحرى البرى المغلق الذى أعده المسلمون بتونس للتصدى لشارل وفيليب وذكر كيف استغل المسلمون فرصة موت لويس استغلالا كبيرا لدرجة أنه صور لنا حالة اليأس التى شعر بها شارل رغم جبروته وشراسته العسكرية بين ملوك غرب أوروبا. وأورد نص العبارة التى قالها شارل للأمير ادوارد الإنجليزى «باستعداد المسلمين لدفع كل ثمين وغال فى سبيل الخلاص من الصليبيين».

ويرجع للمؤلف نانجى الفضل فى كشف النقاب عن دقائق الصراع بين شارل والمسلمين ، ونوعية المعارك التى دارت بينهما إذا كانت معارك برية أم بحرية ، وأسماء القادة فى كل معركة، وعدد المعارك مع وصف دقيق للمعركة الثالثة والرابعة والعاشرة والثانية عشرة. بل كان أدق من المؤرخين المسلمين فى وصفه لخطط التونسيين أنفسهم فى القتال وأماكن معسكراتهم، وعدد المعسكرات التى بالجبال ونوعية الهجوم، واستفادة المسلمون من طبيعة بلادهم. ولكنه كان يبدى دهشته فى التغير المفاجئ الذى طرأ على الجيوش الإسلامية. ففى وصفه لمعركة من المعارك الاثنتى عشرة أوضح كيف كان المسلمون فى البداية مستعدين للهجوم مثل الوحوش الضارية، ولكن فجأة تقاعسوا ولم يلتحموا بالصليبيين، وكان دقيقا للغاية فى وصفه لمعركة جاى دى بوزوا مع المسلمين ووصف أماكن المعركة ومدتها وأسهب فى القاء الضوء على رد الفعل لدى الصليبيين عندما أسر جاى بوزوا ومدى حزنهم عليه لدرجة أن شارل كونت أنجو وهو القائد الأعلى للجيش قد ترك مقره الرئيسى وسار يطارد رد فلول المسلمين الذين أسروا بوزوا ليطلق سراحه وألمح إلى عقم خططه حين أورد نص العبارة التى قالها أحد النبلاء لشارل «سيدى لابد من العودة فربما يكون هناك كمين قد أعده المسلمون لك».

ويبالغ نانجى فى وصفه لعدد القتلى فى هذه المعركة ، وجف قلمه فى التعرض لخسائر الصليبيين ووجد ارتياحا فى وصف حالة المسلمين بالضعف رغم أسرهم لبوزوا أعتى الفرسان الفرنج، ويصفهم أنهم فجأة وبدون مبررات هدموا خيامهم وفروا هاربين أمام الزحف الصليبى ضدهم. بل أكد أن الفشل أصاب المسلمين فى جميع خططهم، وأن التونسيين اعتلوا الجبال هربا منهم، وأن البعض الآخر ركب سفنه للفرار من ميدان المعركة . وقد تجلت هنا نزعته القومية وتحيزه لبنى جنسه لأن الأمور لم تنقلب رأسا على عقب فجأة وأن الحرب كانت سجالا بين الفريقين، وأن المسلمين كانوا حقيقة يحدثون تغيرات مفاجئة فى خططهم ويصيبهم التقاعس دون مبرر، ولكن ليس بالصورة القاتمة التى أوردها نانجى.

وانفرد نانجى بذكر العديد من الوقائع والأحداث الأخرى التى لم يشر إليها غيره من المؤرخين الغربيين أو المسلمين . فقد أورد لنا الخطة الدقيقة التى وضعها كل من فيليب وشارل بتعيين شارجنيتير Chargintcr وهو أحد كبار القادة البحريين ليكون على رأس مهمة قطع المؤن عن تونس بممارسة أعمال القرصنة في البحر ضد جميع السفن المحملة بالأطعمة حتى يوم حصارها اقتصادياً. وصرح نانجى أن هذا لم يأت بنتيجة ايجابية ضد المسلمين وأن المسلمين بقيادة ملكهم نفسه تمكنوا من فك الحصار عن طريق استخدام المؤن المخزونة لديهم. وصور لنا قيادة المستنصر لاحدى المعارك انتقاما من الصليبيين ونوع الطبول التى دقت باعلان قيادة الملك نفسه للمعركة . وكان وصفه رائعا لها وأوضح كيف أنها امتدت إلى الحقول والأراضى الخربة، كما صور لنا انتفاضة شارل والكونت اليسون وملك نافار وعدد ضخم من النبلاء اللاتين للمواجهة العسكرية مع المستنصر . ورغم اعتراف نانجى برجحان كفة المسلمين فى تلك المعركة التى اشترك فيها القادة من الطرفين بأنفسهم إلا أنه سرعان ما يميل إلى بنى جنسه من اللاتين ويعلن رجحان كفة شارل ويبالغ فى عدد من قتل من المسلمين فى هذه المعركة، كما أورد نص العديد من المراسلات بين شارل والمستنصر فى نهاية الأمر لعقد الصلح الذى كتبه باللغة اللاتينية ولم يأت بتعليق على شروطه سوى أن شارل أثبت للجميع أنه كان يعمل لحسابه بعد حصوله على مكاسب عديدة من جراء هذا الصلح .

وعلى هذا تبدو لنا أهمية كتاب نانجى فى الكشف وبدقة عن تفاصيل هذه الحملة التى أوردها شأنه شأن غيره من مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب والشرق على السواء. ويؤخذ عليه المبالغة فى بعض الاحصائيات ولكن هذا لايقلل من قيمة مؤلفه فقد كان مرآة انعكست

عليها أحداث ووقائع الحملة من منبعها الأصلى بفرنسا إلى تونس وحتى عودتها مرة أخرى إلى موطنها بفرنسا فكان يتفحص بعينيه كل صغيرة وكبيرة ما يتعلق منها بالمسلمين أو المسيحيين سواء فى تونس أو فرنسا أو خارجها مما أعطي لمؤلفه قيمة كبيرة تجعله فى مصاف مؤلف جوانفيل عن حياة الملك لويس التاسع وخاصة أحداث حملتيه على مصر والشام. فقد نهج نانجى نهجه فى الاهتمام بعبقرية لويس السياسية والعسكرية إلى جانب الاشادة بفضائله وسجاياه .

ورغم ما ظهر واضحا من تحيز نانجى لبنى جلدته، ومبالغته فى بعض الاحصائيات كما أسلفنا وتناقضه فى بعض الروايات ليضفى على المسيحيين صفة البطولة ، إلا أن هذا لايجعلنا نحكم عليه بعدم الصدق، أو أن هذا هو طابع كتابه كله بل هى حالات فردية لاتمثل وجهة نظر عامة ولا تقلل من قيمة مؤلفه الأمر الذى يجعلنا نعتبره نموذجا تاريخيا نادرا بين مصاف المؤلفات الصليبية الأخرى فقد ابتعد عن السرد والروايات ودون ما شاهده بعينيه وما نقله عن الغير رغم عدم ذكر اسم من نقل عنهم، إلا أن واقعيته فى ذكر الأحداث التى شاهدها بنفسه جعلتنا نركن إلى صدق رواياته المنقولة عن الغير حول بعض التفاصيل من الصراع العسكرى داخل تونس. وقد أفدنا أيضا من كتابه المعنون "Chronicon" وهو تأريخ زمنى من عام ١٢٢٦ إلى عام ١٣٠٠م وكذلك كتابا مختصرا آخر تحت اسم Cronique Abergée وإن كانت المعلومات بهما لاتزيد عما جاء بكتابه الكبير عن سيرة لويس وابنه فيليب .

وإذا كنا قد أفضنا فى تحليل مؤلف وليم دى نانجى لأهميته الكبيرة بالنسبة لموضوع بحثنا، فإن هذا لايمنع من وجود مصادر أخرى لها قيمتها فيما نحن بصدده فهناك مصدر آخر له قيمة كبيرة بالنسبة لموضوع البحث وأهميته تعود فقط إلى مرافقة مؤلفه للويس فى حملته على تونس وهو المؤرخ وليم دى شارتر Guillaume de Chartres أحد الرهبان الدومينكان، وكان يعمل كاهنا خاصا للويس [١]. ونظرا لمرافقته له فى حملاته الثلاث على مصر والشام وتونس فقد كنا ننتظر منه المزيد من التفاصيل والوقائع عن أحداث الحملة على تونس. ولكن للأسف، لقد انصب اهتمام شارتر على حياة سيده لويس وفضائله وسجاياه، وأغمض عينيه عن تفاصيل الصراع الدامى بين المسلمين والمسيحيين بقرطاجنة رغم أنه كان

١- Michaud, Crois, IV, p. 211 ; Molinier , tIII, p. 117 .

شاهد عيان لكل هذه الأحداث. ولعل له في ذلك عذره . فقد كان معظم كتاب العصر الوسيط يهتمون بتمجيد سادتهم من أباطرة وملوك وبابوات أكثر من تسليط الضوء على الأحداث فى عصرهم.

وكان كل ما جاء به اصابة يوحنا الحزين بالمرض ثم موته وحزن لويس عليه ثم مرضه والساعات الطويلة التى أمضاها لويس بين الحياة والموت والعبارة التى كان يرددها قبل وفاته «هيا إلى القدس» ولم يزد على هذا كثيرا سوى مقتطفات مختصرة عن أحوال المعسكر الصليبى بعد موت لويس وحتى عقد الصلح بين طرفى الصراع ثم الرحيل، وأوجز فى ذكر الأحداث التى سبقت تولية فيليب قيادة الحملة وحتى وصول شارل كونت أنجو ، ولم يعط للصراع الدائر بينهم وبين المسلمين أى أهمية رغم أنه ظل موجودا بتونس حتى تم عقد الصلح بين الطرفين ورحل في صحبة الجميع . ولكن هذا ليس جديدا على كتابات شارتر فقد اتبع نفس الأسلوب فى بداية كتابه حين تحدث عن حملتى لويس على مصر والشام فأغفل الجانب العسكرى والسياسى ، واهتم بسيرة لويس وفضائله وسجاياه ، ويلاحظ عامة أن شارتر وغيره ممن كانوا مقربين من الملك كان يروق لهم الاهتمام بالجوانب الشخصية فى حياة لويس أكثر من عبقريته السياسية والعسكرية ومن هؤلاء أيضا جان دى جوانفيل نفسه .

أما جوفروا دى بلييه Geoffroi de Bealieu فهو أحد المؤرخين الغربيين الذين اهتموا بالكتابة حول الموضوع . وهو راهب دومينكانى وأبو الاعتراف الشخصى للويس. فقد وضع تاريخه تخليدا لذكرى لويس بناء على أوامر البابا جريجورى العاشر فى مارس ١٢٧٢م(١). ورغم اهتمام جوفروا بحياة لويس وفضائله وسجاياه خاصة أثناء حملته على مصر والشام حيث كان مصاحبا له فيهما، إلا أنه حين كتب عن حملته على تونس اختلف أسلوبه تمام، واتضح لنا اعتماده على وليم دى نانجى فى هذا الخصوص ، خاصة أنه تعرض لتفاصيل سقوط قلعة قرطاجنة بنفس أسلوب نانجى وأورد أن العقدة النفسية التى أصابت لويس بعد مزيمته فى مصر من أهم أسباب حملته على تونس. وكان نانجى أول من زودنا بهذا التحليل النفسى عن لويس وسار جوفروا على دربه فى التعرض للظروف الحرجة التى مر بها المعسكر الصليبى بسبب المرض الذى تفشى بين أفراده وأسهب فى وصف اللحظات التى كان لويس

١- Michaud, Op. cit., p. 199-208 .

يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة والعبارات التى كان يرددها وكتب سطورا عديدة أعرب فيها عن مشاعره الأليمة لوفاة سيده، وأوجز فى التعرض لحالة الجيش بعد وفاة لويس ، وأورد اشارات مقتضبة عن شارل وأطماعه فى تونس وتعرض فى النهاية لشروط الصلح المبرمة بين الطرفين ولم يأت بجديد فيها بل عاد فى نهاية مؤلفه وتحدث عن فضائل لويس وصفاته الطيبة مثله فى ذلك مثل جوانفيل وشارتر وبداية مؤلف نانجى والخلاصة أن جوفروا هو الدعامة الأولى لمؤلف وليم دى شارتر عن حياة لويس لذا جاءت مؤلفاتهما معا ذات طابع واحد، باستثناء الأحداث القليلة التى نقلها جوفروا عن نانجى فيما يتعلق بحملة لويس على تونس .

يضاف إلى ما تقدم القوائم الخاصة بأسماء الفرسان الذين شاركوا فى الحملة سواء بأشخاصهم أو بمساعدات مالية وهى بعنوان : Liste de Chevaliers Croisés avec Saint Louis

لمؤلف مجهول وقد كتبت باللغة الفرنسية القديمة ولها أهمية فائقة بالنسبة لموضوع البحث إذ ألقت الضوء ليس فقط على أسماء الفرسان الذين شاركوا فى الحملة بل تضمنت قوائم أخرى بالمبالغ وعدد الفرسان الذين ساهم بهم النبلاء فى فرنسا ممن لم يشتركوا فى الحملة بأشخاصهم وقد كشفت هذه القوائم عن فتور الروح الصليبية لدى هؤلاء بدليل مهاجمة لويس لهم فى مواقف كثيرة ومطالبته لهم بالمزيد من المساعدات بل إنه كان يقول لبعضهم أنه ينتظر منهم الكثير، واتهم البعض الآخر بالبخل والتقصير. ومن بين ثنايا سطورها نعرف كيف أن الملك لويس قدم لهم العديد من التسهيلات والمغريات بهدف تشجيع النبلاء لكى يتقدموا بمساعداتهم ، وذلك بأن تكفل هو شخصيا بمعيشة بعض الفرسان من مأكل ومشرب واقامة على نفقته الخاصة منذ رحيل الحملة من فرنسا وحتى عودتها الأمر الذى جعل هذه القوائم تتميز بأهمية كبيرة وبخاصة من الناحية الاقتصادية كما كشفت النقاب عن خبايا الأمور بين الملك والنبلاء . وألقت الضوء على أحوال فرنسا اقتصاديا وضعف تأثير لويس على شعبه لاحياء الفكرة الصليبية من جديد والتى كانت آخذه فى التقلص والانكماش .

ولايفوتنا فى هذا المقام أن نذكر الكتاب المعروف بتاريخ الامبراطور هرقل[1]

١- يعد كتاب «تاريخ الامبراطور هرقل واحتلال أراضى ما وراء البحار» تذييلا لكتاب وليم الصورى صاحب كتاب «تاريخ الأعمال التى انجزت فيما وراء البحار .

"A History of the deeds done Beyond the Sea".

وتاريخ هرقل لايزال بلغته الأصلية وهى الفرنسية القديمة ، أما مؤلفه فهو مجهول الاسم لأن أول صفحة من هذا الكتاب تبدأ بكلمة الامبراطور هرقل .:.

وهو لمؤلف مجهول Le Stoire de Eracles Emperor et La Conqueste de la Terre dóutremer وتناول تاريخ الفترة من عام ١١٨٤ إلى عام ١٢٧٧م (٥٨٠-٦٧٦هـ) أى أنه عاصر سنوات وأحداث الحملة على تونس .

وعلى هذا يمتاز بقيمة كبيرة فيما نحن بصدده ، فقد تناول أحداث الحملة بالتفصيل ، ولكن دون الدخول فى غمار الصراع الحقيقى بين الطرفين . فتحدث عن استعداد أوروبا لها، وأسماء من شاركوا فيها ، ولحظة وصولهم تونس. واعتمد فى رواياته هذه على وليم دى نانجى وجوفروا دى بلييه ، ومارينو ساناتو Marino Sanuto . إلا أنه انفرد بذكر روايات لم تأت فى مؤلفات نانجى رغم تخصصه فى الكتابة عن حملة لويس ضد تونس . ويلاحظ أنه اعتمد فيها على ساناتو وبخاصة قدوم سفارة مكونة من اثنين وثلاثين فارسا صليبيا من الشام وعلى رأسهم أحد قادة الاسبتارية لمؤازرة لويس فى حملته ضد الشمال الأفريقى ، وكان لهم ضلع كبير فى اتمام الاستيلاء على قلعة قرطاجنة بنجاح . وقد تناول هرقل أحداث الحملة من بدايتها والاستعداد لها، وأحداث سقوط قلعة قرطاجنة بالتفصيل ، معتمدا فى ذلك على وصف نانجى . بل أنه ذكر رقم الصفحات التى رجع إليه فيها لكنه أوجز فى باقى التفاصيل العسكرية التى تتعلق بسقوط باقى المدينة. ولم يخض فى تفاصيل الصراع أو خطط لويس العسكرية، كما انتقل سريعا إلى انتشار المرض بين الجنود وموت يوحنا الحزين ثم موت لويس ووصول الملك شارل ولقائه مع الأمير ادوارد ولم يأت بجديد أو بأكثر مما ذكره نانجى بهذا الصدد، وخاصة فى شروط الصلح المبرمة بين الطرفين الصليبى والتونسى. كما ذكر أسماء من تبقى على قيد الحياة من الملوك والأميرات المسيحيين. وذكر أسماء من ذهب ضحية العاصفة التى هبت على الأسطول فى رحلة العودة ، وأن كان قد أخطأ حين ذكر أن تيدالو فيسكونتى Tidalo Viscounty رئيس اساقفة لييج كان من بين المفقودين غرقا، لأنه من المعروف أن تيدالو عاد إلى بلاده واختير بابا تحت اسم جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) .

وعلى العموم يعد تاريخ هرقل من المؤلفات الهامة التى عاصرت هذه الفترة من الزمن ونقلت بصدق وأمانة عن شهود العيان، وكانت افادتنا منه واضحة .

ولايفوتنا أن نذكر المؤلف المجهول صاحب الكتاب المعروف باسم فضائل القديس لويس التاسع "Gesta Sancti Luodovici noni" الذى استعرض فيه وصايا لويس لابنه فيليب بالإضافة إلى نثرات مفككة عن أنباء الحملة ككل ولم يأت بأى تفاصيل عن علاقة فيليب بالتونسيين وكل

ما ذكره لايتعدى صفحة أو صفحتين عن أنباء هذه الحملة وأنصب اهتمامه على حياة لويس وفضائله ومدحه ، دون التعرض لجهوده فى مصر أو الشام أو تونس بل تناول باقتضاب لحظات وصوله تونس ومرضه ووصاياه لفيليب ثم موته. ويعرف عن هذا المؤلف أنه كان راهبا بدير القديس دنيس بفرنسا[1] ومن القضايا التى انفرد بها أنه أورد أسماء عدد من الصليبيين الذين وقعوا الصلح مع المسلمين بتونس ولم يرد هذا فى مؤلفات الغربيين، ولكن دون التعرض لأى تفاصيل تتعلق بالصلح وغيره من الأحداث فى تونس .

وهناك تآليف أخرى انفردت بذكر أنباء حملة الأمير ادوارد التى كانت تعد ضلعا رئيسيا للحملة الصليبية التاسعة على تونس، ومنها حوليات «مآثر القباصة» Gestes des Chiprois التى سلطت الضوء على أحوال انجلترا ابان قيام الحملة وصراع الأمير ادوارد مع النبلاء الإنجليز الذين تقاعسوا عن مشاركته فى الحملة وأشارت إلى الظروف التى دفعت ادوارد ليعدل بحملته من الشام إلى تونس أولا وإن كان يؤخذ عليها أنها أوردت أن رحيل ادوارد كان فى صيف ١٢٧١م / ٦٧٠هـ وهذا عكس ما اثبتاه بأن رحيله كان فى خريف ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ . وعلى العموم فقد أفدنا من هذه الحوليات فائدة كبرى فيما يتعلق بأخبار حملة الأمير ادوارد سواء فى تونس أو حين عودة ادوارد مع باقى فلول الحملة إلى صقلية ، أو حين هاجم بلاد الشام وفشله فى تحقيق أى مكاسب دبلوماسية لانجلترا ، وعلاقة ادوارد بالصليبيين وبيبرس فى بلاد الشام وتعرض لمحاولة الاغتيال من قبل الحشيشية وعودته إلى انجلترا بعد وفاة الملك هنرى الثالث والاضطرابات السياسية داخل بلاده والتى كان عليه أن يتحملها حين نصب ملكا على البلاد .

كذلك آفدنا كثيرا من «حوليات الأراضى المقدسة» Annales des Terrs Saint التى نشرها رهرشت Rohyicht ورينو Raynaud وذلك فيما يتعلق بأنباء الحملة على تونس عامة، وحملة الأمير ادوارد بصفة خاصة وقد نشرها رهرشت تحت اسم حملة الأمير ادوارد الصليبية "La Croisade de Prince Edward" .

ولاننسى فى هذا المقام مؤلف وليم دى سان باثوس Guillaume de St. Pathus [2] عن حياة

١- Michaud, Crois ., VI , p. 202 .3 .

٢- لقد وضع سان باثوس تاريخه عن لويس بناء على رغبة ابنته بلانش وكان معلم اعتراف لها ولأمها مارجريت انظر: Michaud, Op. cit.,p. 198 وأيضا جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام ص١٨

القديس لويس «وهو معلم اعتراف الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع ، حيث تناول فيه أحوال فرنسا وقت الحملة، والترتيبات التى أقرها لويس فى بلاده قبل رحيله. وعلاقته بزوجته مارجريت، ودفعه لصداقها وحقها فى الميراث ، وعلاقته ببناته الغير متزوجات . ولم يهتم سان باثوس بالجوانب السياسية والعسكرية المتعلقة بلويس أثناء اقامته بتونس قدر اهتمامه بحياته الشخصية.

أضف إلى هذا وجود مجموعة أخرى من الكتاب الغربيين ممن عاصروا هذه الفترة وكتبوا عنها ومنهم ويجلر Wieygler ووليم دى بادوا Guillaum de Padua وتاريخا زمنيا تحت اسم Chroni que anonyme finisant «لمؤلف مجهول وتأريخا زمنيا تحت اسم "Chronicon Girardi de Frocheto" لمؤلف مجهول. فقد أمدتنا بمعلومات قيمة على مدى صفحات هذا البحث.

كذلك أفدنا كثيرا من «مؤلف متى أوف وستمنستر» Matt of Westminster Flowers of History وهو من المؤرخين القدامى، الذين سلطوا الأضواء على أحوال انجلترا بصفة عامة وحملة الأمير ادوارد إلى شمال أفريقيا ثم بلاد الشام بصفة خاصة.

هذا عن المصادر الأصلية الأوربية من لاتينية وفرنسية قديمة، أما المصادر العربية من خطية ومطبوعة ، معاصرة وغير معاصرة ، فهى تأتى فى المقام الثانى من حيث الأهمية بالنسبة لدقائق وتفاصيل الحملة. فرغم أهميتها بالنسبة للأخبار المتعلقة بأحوال العالم الإسلامى عامة وبلاد المغرب على وجه الخصوص فقد أوضحت عن الصراع الدائر بين مختلف القوى السياسية ببلاد المغرب وتونس ابان الفترة الزمنية موضوع الدراسة . ويرجع هذا إلى نظام التدوين التاريخى عند المؤرخين العرب فى العصور الوسطى، حيث أنهم لم يتخصصوا فى الكتابة فى موضوع مستقل قائم بذاته . بل اتبعوا طريقة السرد الحولى فى الوقت الذى تقدم فيه فن الكتابة التاريخية في أوروبا . وكتب المؤرخ الغربى فى موضوعات متكاملة مما يشفى غليل الباحث فى موضوع بعينه. بالإضافة إلى أن مؤرخينا اتبعوا عادة النقل عن غيرهم لذا لم تختلف المصادر عن بعضها كثيرا، بل وجدنا الخبر الواحد قد ورد ذكره فى أكثر من مصدر دون تمحيص أو تدقيق. ومنهم من كتب اسم من نقل عنه ، ومنهم من لم يذكر هذا عمدا أو عن غير عمد. هذا ، بالإضافة إلى وجود العديد من الروايات فى بطون هذه المصادر نقلت عن أصول مفقودة ولم تصلنا فحفظها لنا الزمن من العبث والضياع .

ولقد أمدتنا تلك المصادر بمادة من الطراز الأول عن صراع القوى داخل تونس إلى أن

انتهى الأمر بتسلط الحفصيين على الحكم . وسلطت الضوء على سياسة المستنصر الملتوية ، وخبايا الأمور المتعلقة بأهدافه ومآربه الخاصة، الأمر الذى وضع هذه الأحداث فى ميزان حساس، تأرجحت على أثره أحوال الحملة. كما تبين نتائج الصراع بين القوى الإسلامية والصليبية داخل قرطاجنة. أما دقائق وتفاصيل الحملة أو ذكر أخبار جديدة عنها فهذا ما لم تزودنا به المصادر العربية.

وسوف تقسم المؤرخين العرب الذين تناولوا موضوع الحملة وأحوال العالم الإسلامي آنذاك إلى مؤرخين مغاربة وغير مغاربة ، وسوف يكون تحليلنا لمؤلفاتهم طبقا لأهميتهم بالنسبة للموضوع لاحسب تسلسلهم الزمني.

ويأتى ابن خلدون[1] على رأس المؤرخين العرب المغاربة الذين اهتموا بالكتابة عن الحملة بصفة خاصة، وأحوال المغرب وتونس عامة، حيث أفرد صفحات عديدة عنها فى مؤلفه «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر». وقد استهل حديثه عنها بالتعرض لأحوال فرنسا ، وشهرة لويس التاسع بين ملوك غرب أوروبا ، ومكانة فرنسا بين دول الغرب ودورها فى الحركة الصليبية الموجهة ضد قوى الإسلام بصفة عامة، وحملتها على تونس بصفة خاصة. وتعرض ابن خلدون لأولى حملات لويس ضد المسلمين وهزيمته بمصر وقال إن تلك الهزيمة هى أولى الأسباب المباشرة للحملة على تونس انتقاما من المصريين ، على أمل الزحف من تونس برا وبحرا لمعاودة الكرة فى احتلال مصر وتحقيق باقى الأطماع الصليبية. وأوضح أن الأسباب الدينية لتلك الحملة هى أسباب واهية والحقيقة تكمن فى مطامع الصليبيين الاقتصادية فى مناهل شمال أفريقيا . وانفرد ابن خلدون بذكر اسم

١- ينتسب عبد الرحمن محمد بن خلدون إلى بنى خلدون الذين قدموا من اليمن واستقروا بمدينة أشبيلية بالأندلس وكان جد ابن خلدون يعمل فى ديوان بنى حفص، فكان لنشأة ابنه محمد فى بلاط السلطان الحفصى أثر كبير فى تحصيله للعلم مما ترك أثره أيضا على ابنه عبد الرحمن الذى انصب اهتمامه على دراسة اللغة العربية وعلومها. وكان لاختلاطه بكبار الساسة والمحدثين والفقهاء سببا فى بزوغ نجمه فى دنيا السياسة بتونس. ويعد كتابه «العبر» من أفضل ما كتب عن تاريخ العرب والعجم والبربر، وركنا أساسيا فى دراسة تاريخ المغرب. وقد قام باعداده فيما بين عامى ٧٧٦-٧٨٠هـ / ١٣٧٧-١٣٨١م . كما كان لرحيله من تونس إلى مصر فائدة عظيمة بالنسبة له ، وفرصة لزيادة منابع أصول علمه وقراءاته. ويهمنا من مؤلفه الجزء السادس وقد رجعنا إليه من طبعة بولاق عام ١٩٨٤ . انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص١٠٢ .

الوزير التونسي وهو «اللياني» الذى أعدمه المستنصر قبل أن يرد حقوق التجار الفرنسيين عليه، ورفض المستنصر هو الآخر أن يطيب خاطر هؤلاء التجار أو يرد إليهم أموالهم. واعتبر ابن خلدون أن هذه الرواية ضمن أسباب الحملة الغير مباشرة والتى تذرع بها الصليبيون لمهاجمة تونس .

وأسهب ابن خلدون فى الحديث عن الاستعداد للحملة وتأييد البابوية لها وأسماء من اشترك فيها من الملوك والأمراء. وصور لنا بوضوح الاستعداد العسكرى داخل تونس ودور مصر فى شحذ همم المغاربة لمناصرة المستنصر . وألمح إلى خبث ودهاء لويس فى الاستيلاء على أموال دفعت له بطريق الرشوة كيلا يهاجم تونس وجانبه الصواب في تعرضه لخط سير الحملة حيث ذكر أنه بعد رحيلهم من ميناء اجمورت تجمعوا مرة أخرى فى صقلية . وهذا عكس ما أورده المؤرخون الغربيون المعاصرون امثال نانجى وغيره، من أن مكان التجمع هو سردينيا. وتعرض بجرأة إلى سياسة المستنصر الملتوية وخبثه فى معالجة الأوضاع المتعلقة بمصير تونس وقت وصول الحملة، وتردده فى اتخاذ القرارات التى أجمع عليها أهل الشورى من الموحدين وأمراء الأندلس. وزودنا بصورة نابضة بالحياة عن تظاهر المستنصر بالموافقة على رأى الأغلبية فى بلاده فى ترك العدو ينزل تونس لكى يتصيده بعد ذلك فى الوقت الذى كان يعمل فيه فى الخفاء لتحقيق أشياء أخرى في نفسه. ويعد ابن خلدون المؤرخ الوحيد الذى جسد لنا أحداث المعركة التى دارت بين التونسيين والمسلمين بقيادة يحيى بن صالح، وحدد موقعها، والتحصينات التى أقامها الصليبيون بالمدينة ومحاولتهم فى ترميم الصدع الذى كان واضحا فى أسوار قرطاجنة كما تتبع بدقة أحداث هذه المعركة حين تقدم يحيى ومعه جمع ضخم من زعماء قبائل سدويكش ووليهاصة وهوارة حيث دارت رحى معركة قتل فيها عدد ضخم من الفريقين المسلم والمسيحى. وصور لنا أحداث تهدم الخندق الذى بناه الصليبيون والذى كان ذا عمق كبير، وتساقط القتلى المسيحيين فيه. ولم يبالغ فى عدد قتلاهم ليظهر التونسيين بمظهر البطولة، بل أورد رقما معقولا وهو خمسمائة قتيل . كما اتهم ابن خلدون فى رواية أخرى المستنصر لهروبه من ساحة القتال إلى القيروان تاركا شعبه فى أمس الحاجة إليه . وكان دقيقا فى تعرضه لأسماء القادة التونسيين الذين شاركوا فى الجهاد والوحيد الذى انفرد بهذا. ولكنه أغفل دور الفقهاء ورجال الدين فى شحذ همم الناس على القتال اثناء المعارك الدائرة أو قبل وصول الحملة، ولم يسهب ابن خلدون فى التحدث عن المزيد من هذه المعارك التى تمت بين الطرفين قبل وفاة لويس، بل

تعرض فجأة لموته، وأورد أسباب أخرى لوفاته غير تلك التى ذكرتها المصادر الأجنبية . فقد انفرد برواية تقول «أن المستنصر قد أرسل إليه ابن جرام الدلامى وطعنه بسيف مسموم . وفى رواية أخرى قال أن لويس أصابه سهم طائش فقتله ، ويعود فى رواية ثالثة وينوه عن اصابته بوباء أدى إلى موته. ولذا لم يكن رأيه واضحا ومحددا بشأن هذه القضية . كذلك أغمض ابن خلدون عينيه عن المزيد من الأخبار المتعلقة بالمعسكر الصليبى مثله فى ذلك مثل باقى المؤرخين المسلمين، فلم يحدثنا عن انتشار المرض بين صفوف الفرنج أو عدد موتاهم مثلما فعل المؤرخ الغربى.

كما أنه أخطأ حين ذكر أن الذى تولى قيادة الصليبيين بعد موت لويس هو ابنه الذى ولد بدمياط لأن الذى ولد هناك هو يوحنا الحزين وقد مات قبل وفاة أبيه . ويرجع ذلك الخلط إلى وجود بعض الروايات التى ربما يكون ابن خلدون قد نقل عنها والتى ذكرت أن اسم الذى ولد بدمياط هو فيليب وليس يوحنا . كما أغفل ابن خلدون الفترة الهامة من تاريخ الحملة. منذ وصول شارل كونت أنجو رغم تزاحم الحوادث خلال هذه الفترة القصيرة ، وتزايد عدد المعارك بين الطرفين خلالها. ولكنه مرعليها جميعا مرور الكرام، بل أورد أن الصلح تم مباشرة فى أعقاب موت لويس ، وأغفل دور شارل العسكرى فى الأحداث ، واعتبره فقط ممثلا عن جيوش الحملة لابرام الصلح.

وقد انفرد ابن خلدون دون غيره من المؤرخين المعاصرين ، بذكر أسماء كل من حضر مع المستنصر فى توقيع الصلح وهم ابن زيتون وأبو الحسن على بن عمرو وأحمد ابن الغماز وزياد بن محمد بن عبد القوى أمير بنى توجين . كما نوه عن أطماع شارل الخاصة فى تونس ، وكيف أنه اقتنص الفرصة وضمن لنفسه مزايا وصلحا خاصا ببلاده، وكان دقيقا فى ذكره لتاريخ عقد الصلح ومدته ، وإن كان قد اخطأ فى تحديد المدة الزمنية التى أمضتها الحملة فى تونس فذكر أنها ستة أشهر وهذا عكس ما أثبتناه فى الفصل الخامس من أن مدة الحملة كانت فقط ثلاثة أشهر واثنتى عشرة يوما .

وتتبع ابن خلدون الآثار التى ترتبت على رحيل الحملة من تونس ، وهدم قرطاجنة وتسويتها بالأرض حتى لايعاود الصليبيون الكرة عليها من جديد. كما ألقى الضوء على أحوال الغرب الأوروبى بصورة دقيقة ولكن مختصرة وأوضح كيف اضمحلت الفكرة الصليبية فى نفوس الجميع، وألمح إلى انشغال شارل بمصالح بلاده وانصرافه عن فكرة مناوئة المسلمين من جديد،

الأمر الذى يجعل لمؤلفه قيمة كبيرة قد لا نجدها فى المكاتبة التى أرسلها أبو زكريا للصالح نجم الدين أيوب بهذا الشأن . وانفرد هذا المؤرخ بالتعرض لاحتمال وجود أمراض معدية بتونس ، وذكر أن هذا كان ممكنا قبل مقدم الحملة إلى تونس باثنتى عشر عاما حين سقطت بغداد فى قبضة المغول وتزايد عدد القتلى الأمر الذى أدى إلى انتشار الأوبئة التى انتقلت بدورها إلى تونس.

أما ابن القنفذ صاحب كتاب «الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية » فهو الوحيد بين المؤرخين المغاربة الذى أتى برواية اتهم فيها المستنصر بالتخاذل فى الدفاع عن بلاده حين قرر الهروب إلى قسنطينة أثناء معمعة الصراع مع الصليبيين واختلف فى هذه الرواية مع ابن خلدون الذى ذكر أنه قرر الهروب إلى القيروان .

وأعلن صراحة أن المستنصر كان يعد لهذه الخطوة من قبل، وهى الرحيل إلى قسنطينة مع أهله وحاشيته ، بدليل شحنها بالحبوب والمؤن. ونميل تماما إلى الأخذ بهذه الرواية ، نظرا لأن قسنطينه هى موطن ابن القنفذ الأصلى ، وما كتبه عنها جدير بالملاحظة والاهتمام، كما كان ابن القنفذ هو المؤرخ الوحيد الذى انفرد بذكر اسم الرسول الذى بعثه صاحب تونس إلى بيبرس، وهو محمد بن الراسى، ليبرر له فعلته الشنيعة فى عقد الصلح مع الصليبيين، ولكن لم يأت بنص الرسالة أو حتى مضمونها بل أرجع مهمة الحصول على نصها من الكتاب المتوكلى الكبير ولم يتسن لنا معرفة شئ عنه أو عن مؤلفه ، ولعله فقد ولم يصلنا .

ويؤخذ عليه أنه لم يأت بأى تفاصيل حول الصراع الدائر بين الطرفين المسيحى والإسلامى بل مر على أحداث الحملة بصورة سريعة مختصرة. ومع ذلك كان دقيقا للغاية فى التعرض لتاريخ وصولها تونس، وتاريخ عقد الصلح، والمدة التى قطعتها الحملة وتاريخ وفاة المستنصر . هذا بالإضافة إلى أنه أغمض عينيه عن الحوادث الأليمة التى مرت بها تونس وقت الحملة والحقائق المشينة التى تتعلق بشخص المستنصر ، والتى تشوه صورته أمام الحكام المسلمين. فقد أغفل ذكر هذه الحقائق، وأظهر تعصبه لبنى جلدته المغاربة ، وغلبت العاطفة على بعض كتاباته ، ولو أنه تطرق إلى هذه الموضوعات فى حيدة تامة خاصة ما يتعلق منها بزمن وأحداث الحملة بعد وفاة المستنصر، والصورة الحية التى أوضح فيها صراع القوى فى تونس منذ عهد الواثق يحيى بن المستنصر وتنازله عن الحكم لعمه أبى اسحاق ، إلى أن انتهى مؤلفه بعرض سريع لعصر الضعف الحفصى وسقوط الدولة الحفصية فى النهاية . وليس ثمة أى جديد فى رواياته المتعلقة بعصر الضعف ، مثله فى ذلك مثل غيره من المؤرخين المتقدمين عنه زمنيا .

ويعد الغبريني (ت ٧٠٤هـ - ١٣٠٤م) من أهم مؤرخي القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادى) ، وخاصة بالنسبة للفترة موضوع البحث . وكتابه «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء ببجاية» رغم أنه كتاب جامع لسيرة كبار العلماء والمشايخ والفقهاء فى عصره، إلا أنه أمدنا بمادة ممتازة عن أحوال تونس فى عهد المستنصر الحفصى ، وذلك من خلال تعرضه لسيرة كبار الشخصيات السياسية والعلمية ممن كان لهم دور بارز فى نظام الحكم وسير الأمور فى دولة المستنصر . واتسمت رواياته بالواقعية، خاصة حين كشف النقاب عن رد الفعل الحقيقى لدى الشعب التونسى تجاه الصلح مع الصليبيين، وأفصح عن سياسة المستنصر وتسلطه على شعبه مبينا أنه لم يكن يحترم رأى العامة أو الخاصة من القوم، وذلك من خلال ترجمة الغبرينى لسيرة الفقيه أبى القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى. فقد أوضح فى رواية مفصلة كيف حاول المستنصر اجبار أبا القاسم على شهادة الصلح دون تقديم أى مبررات لهذا، واعتبر قراره مرسوم سلطاني نافذ لايقبل المناقشة. وقد كان لهذه الروايات وغيرها من الشذرات المتناثرة فى مؤلفه هنا وهناك عن سوء حكم المستنصر والتواء سياسته ولها أثر كبير فى التعرف على أحوال البلاد فى هذه الفترة الحرجة من تاريخها.

ولايفوتنا فى هذا المجال أن نذكر أهمية مؤلف ابن أبى دينار[١] «المؤنس فى تاريخ أفريقيا وتونس»، وهو عبارة عن تاريخ جامع لأفريقيا عامة وتونس على وجه الخصوص. وقد اعتمد ابن

١- هو أبو عبدالله محمد بن أبى دينار القيرواني ، ولانعرف عنه الكثير سوى أنه عاش بالقيروان فترة ثم رحل إلى تونس ويشير الناشر إلى عدم معرفته بتاريخ مولد ابنى دينار أو وفاته ولكن كل ما يذكر عنه أنه كان على قيد الحياة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (أواخر القرن السابع عشر الميلادى) . ويؤكد الشيخ مخلوف فى كتابه «شجرة النور الزكية» أن ابن أبى دينار كان موجودا على قيد الحياة عام ١١١٠هـ / ١٦٨٩م وقد اعتمد ابن أبى دينار على الزركشى فى مؤلفه «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» وابن الشماع فى مؤلفه «الأدلة البينية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية» ويعرف عنه أنه تولى بعض الخطوط الشرعية السامية مثل قضية سوسة والقيروان وكان أديبا له العديد من المؤلفات منها « تخلص ذوى المودة والصفا بختم أواخر الشفا » وأيضا كتاب «رضاب العقيق فى الروض الأنيق فى مجاراة الاخوان وأحوال الصاحب والصديق» وكتاب آخر فى الأدب تحت اسم «هداية المتعلم»، وللمزيد انظر: ابن ابى دينار: المؤنس، تحقيق محمد شمام ، ص هـ .

أبي دينار في أغلب الموضوعات التي رواها في مؤلفه على ابن الشماع والزركشي وعدد من الشيوخ والفقهاء الذين عاصروه . وقد أفدنا منه كثيرا في التعرف على أحوال تونس إبان الحملة، حيث استهل كتابه بفترة حكم أبي زكريا الحفصي، وأهم انجازاته الحضارية في تونس ، والظروف السياسية التي صاحبت تولية المستنصر بعد وفاة أبيه، كما ألقى الضوء على أخبار الحملة بشكل موجز دون التعرض لأي تفاصيل سياسية أو عسكرية وكل ما سجله والأسباب التي دفعت لويس للتوجه إلى تونس. وشأنه شأن غيره من المؤرخين أرجع سبب الحملة إلى عامل نفسي يعود للويس التاسع نفسه للثأر من المسلمين بعدما أهين بمصر. ولكنه انفرد بذكر رواية أخرى تعد من الأسباب الشخصية للحملة ضد تونس مفادها ، أن المستنصر حين ذكر أمامه اسم لويس «تهكم عليه وقال هذا الذي أسره الأتراك» فغضب لويس عندما علم بذلك وعزم على أخذ تونس. عموما لم يأت ابن أبي دينار بجديد في هذا المضمار بل يتضح تأثره برواية وأسلوب ابن الشماع ، وقد اتسمت روايته بالصدق خاصة فيما أورده عن زمن وصول الحملة ومدتها وتاريخ موت لويس وقد تعرض ابن أبي دينار لأسباب أخرى حول موت لويس غير الوباء وأيد رواية ابن خلدون في احتمال تعرض لويس لمحاولة قتله بسهم مسموم.

وكان على صواب في ذكر مدة وتاريخ الصلح وفيما عدا هذا من أخبار هامة عن تونس بصفة خاصة أو المغرب بوجه عام فقد أفدنا منه على امتداد صفحات البحث .

أما ابن أبي زرع (ت في منتصف القرن الثالث الهجري / أواسط القرن التاسع الميلادي) فقد أفدنا منه بصورة كبيرة وذلك من خلال مؤلفه «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»[1]. فقد وجه عناية كبيرة لأحوال بلاد المغرب قبل الحملة على تونس بسنوات قليلة، مما ألقى المزيد من الضوء على طبيعة العصر الذي قامت فيه الحملة إذ تناول تاريخ الدول ابتداء من الدولة الادريسية حتى عهد الخليفة عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني أي حتى عام ١٢٢٧م / ٦٢٧هـ . لذا فهو سجل دقيق لهذه الدولة التي

١- هو أبو الحسن بن علي بن عبدالله بن أبي زرع ، ولانعرف الكثير عن حياته سوى أنه من أسرة عريقة في فاس وكتابه جامع لأخبار الدول المغربية سياسيا وحضاريا منذ الدولة الادريسية وحتى عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م، وقد عني بنشره تور نبرج Torenberg عام ١٨٦٠ ثم نقله الأستاذ أمبروسو اويثي إلى الاسبانية في ١٩١٨م إلى أن تم طبعه في الرباط عام ١٩٣٦ وهي طبعة غير كاملة. انظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١١٤-١١٥ .

عاصرت مجئ الحملة وهى الدولة الحفصية ، وقد اهتم بأحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . أما عن الحملة على تونس، فمما يؤسف له أنه مر عليها سريعا وتناولها عرضا أثناء تناوله أحداث الفترة من عام ٦٦٥-٧٢٣هـ / ١٢٦٤-١٣٢٢م وقد جانبه الصواب فى تحديد يوم وصول الحملة، وذكر أنه فى شهر ذى الحجة ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٧م والحقيقة أنه فى ٢٣ ذى القعدة ٦٦٨هـ / ١٨ يوليه ١٢٧٠م من نفس العام. كما زودنا بصورة دقيقة عن استفادة الفرنج من اهمال المستنصر فى تحصين سواحله ضد العدو. ولكنه لم يكن دقيقا فى تحديد وقت وفاة لويس حيث ذكر أنه توفى فى ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ / ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م وهذا عكس ما أورده المؤرخون الغربيون المعاصرون من أن وفاته فى ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩هـ وعلى هذا كانت افادتنا من هذا المؤلف قد اقتصرت على الاطار السياسى لأحوال بلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص ، ولم نستفد منه فيما يتعلق بتفاصيل الحملة أو أحداث معاركها .

يضاف إلى ما تقدم كتاب «الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية» لمؤلف مجهول[١] حيث أفدنا منه كثيرا فى التعرف على تاريخ المغرب فى عصر الموحدين خاصة. كما أنه يمتاز بدقة أخباره وصحتها وخاصة ما يتعلق بصراع القوى السياسية على الحكم قبيل مجيئ الحملة على تونس والتطاحن بين الحلفاء إلى أن انتهى الأمر بسقوط دولة الموحدين . وهو مصدر قيم عن أحوال المغرب. وأسلوب الحرب والقتال المتبع آنذاك ونوعية الأسلحة التى كان الموحدون ورثتهم يستخدمونها أمثال بنو حفص حكام تونس وقت قدوم الحملة. ومما يؤسف أنه لم يتعرض فى ثنايا مؤلفه لأخبار الحملة على تونس .

١- ذكر صاحب الحلل أنه انتهى من تأليف هذا الكتاب عام ٧٨٢هـ / ١٣٧٠م. فى عصر محمد الغنى بالله سلطان غرناطة وأبى زيد بن أبى الحسن المرينى سلطان المغرب، واعتمد فى مؤلفه على مصادر معاصرة منها مؤلفات ابن الصيرفى وعبيد الله البكرى وأبى بكر الصنهاجى الذى أفاد منه كثيرا فى الكلام عن أخبار دولة الموحدين وقد عنى بنشر هذا الكتاب المستشرق الأسبانى امبروسيو اوميثى ميراندا، وذلك باللغة الاسبانية بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجنرال فرانكو، وذلك عام ١٩٥٢ . أما الطبعتان اللتان ظهرتا قبل ذلك فى تونس عامى ١٩١٠، ١٩٣٦م فهما مليئتان بالأخطاء والتحريف. وللمزيد انظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١١٠ .

أما الزركشي [1]، فعلى الرغم من أنه تاريخ جامع للمغرب العربي من القرن السادس وحتى القرن التاسع الهجرى من (١٢-١٥م) إلا أنه لم يتعرض لأحداث الحملة من قريب أو بعيد، بل تعرض لهذه الفترة من خلال ترجمته لسيرة المستنصر وبيعته وأهم أعماله وعلاقته بخصومه وجيرانه ، ثم وفاته ولذا فهو أشبه ما يكون بكتب السير والتراجم ولكن لاتنكر افادتنا منه فى التعرف على أهم الأحداث السياسية التى عاصرت سقوط دولة الموحدين وتوطيد حكم الحفصيين فى تونس، مما كان له قيمة فى الكشف عن أحوال المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص زمن الحملة.

ولايفوتنا فى هذا المقان أن نشير إلى أهمية مخطوط «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» لابن تغرى بردى (٨٧٤هـ / ١٤٥٤م[2] أهم مؤرخى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) . لقد تعرض بالتفصيل لأهم أسباب الحملة وذكر أن الألم النفسى داخل لويس من جراء ما حدث له بمصر كان من أهم أسباب حملته ضد تونس ، كما علل سبب مقصده تونس أيضا بأنه يعود إلى هدف عسكرى استراتيجى يتعلق بتطويق مصر برا وبحرا ان تملك تونس. ولكنه أوجز عندما تعرض لأخبار نزول الفرنج بقرطاجنة. وتفاصيل الصراع بين الطرفين، بل جانبه الصواب فى تحديد زمن وصول الحملة وأورده تحت عام

١- هو محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ الزركشى عاش فى القرن التاسع الهجرى وقد سمى باللؤلؤ نسبة إلى جده وهناك روايات تفيد بأنه مملوك مجهول الأصل بتونس وسلك فى تكوين عائلته وتسمية ابنائه على أسماء التونسيين. وشهد فترة الضعف والتمزق الحفصى . ولع الزركشى فى كتابة التاريخ فى عصر الاضمحلال والتدهور الفكرى فى تونس . ومن أهم مؤلفاته «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» «وشرح الدمامينية» وهى قصيدة مدح أرسلها شاعر مصرى يقال له بدر الدين محمد الدمامنى السكندرى فى مدح الخليفة أبى العباس أحمد الحفصى . أما وفاة الزركشى فيرجح أنه لم يكن موجودا بعد عام ٨٩٤هـ / ١٤٧٤م وقد عنى بنشر وتحقيق كتابه عن الدولتين الموحدية والحفصية الكاتب محمد ماضور عام ١٩٦٦ أنظر الزركشى: تاريخ الدولتين، ص٣-٥ .

٢- هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى توفى عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، وله العديد من المؤلفات، ومنها «النجوم الزاهرة» الذى تناول فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى (منذ القرن الأول وحتى القرن التاسع الهجرى) وقد نشرت دار الكتب المصرية الأجزاء من ١-١٢ فى الفترة من ١٩٢٩-١٩٥٦ أما المنهل الصافى، فهو مخطوط لم ينشر بعد .

٦٦٠هـ / ١٢٦١م. وأخطأ أيضا فى تحديد تاريخ وفاة لويس وأوردها تحت عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م . وقد اعتمد على ابن مطروح فى ذكر الأبيات الشعرية التى ذكرت وقت وصول الحملة إلى كل من مصر وتونس كما أمدنا بعرض ممتاز لسيرة المستنصر الحفصى كما أفدنا كثيرا من مخطوط «نثر الجمان فى تاريخ الأعيان» للفيومى (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) [1]، حيث أمدنا بمادة قيمة عن أحوال بلاد المغرب وتونس قبل الحملة، وصراع القوى الثلاثة ورثة الموحدين وهم الحفصيين وبنى مرين وبنى عبد الواد. وأثر ذلك على أحوال تونس داخليا . كما أورد عرضا قيما حول سيرة المستنصر ، وعدم التزامه بالكلمة مع خصومه وغدره بأقاربه والمقربين منه فى سبيل الانفراد بالحكم لنفسه واعتمد فى هذه الأخبار على اليونينى فى مخطوطه «ذيل مرآة الزمان» وأمدنا بصورة رائعة عن علاقة المستنصر بالعربان وجماعات الخلوط، وبعميه اللحيانى والمجدور، وصراع أبى دبوس على الحكم ولكنه أغفل تماما أخبار الحملة بل انشغل عندما تعرض لأحداث عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بالأحداث التى ترتبت على سقوط دولة الموحدين ومقتل أبى دبوس، مما أضاع علينا فرصة التعرف على المزيد من الأخبار المتعلقة بالحملة والاستفادة من أسلوبه التفصيلى الدقيق فى سرد الأحداث المحيطة بتونس فى تلك الفترة من الزمن .

وأفدنا أيضا من مخطوط العينى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» (ت٨٥٥هـ / ١٤٥١م) فقد أسهب فى الحديث عن أحوال مصر وقت الحملة على تونس ومدى استعداد الظاهر بيبرس لها سواء فى مصر أو بلاد الشام ، والمدد الذى قدمه لتونس كما أورد لنا قائمة بأسماء الملوك المسيحيين الذين اشتركوا فى الحملة، وأثر الصراع الدائر بين بيبرس والمغول على سير الأحداث فى تونس، ومدى ارتياح بيبرس لخبر وفاة المستنصر . وألقى الضوء على الصراع الدائر بين الصليبيين وابن الأحمر سلطان الأندلس، وغارات التتار على القسطنطينية وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للتفاصيل العسكرية الخاصة بالصراع الدائر بين الصليبيين والتونسيين ، أو التحديد الزمنى الدقيق للحملة إلا أننا لاننكر افادتنا منه فى مواضع عديدة من البحث وبخاصة فى التعرف على أحوال العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه ابان الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

١- هو أحمد بن محمد بن على الفيومى ومخطوطه «نثر الجمان» عبارة عن مجلدين المجلد الأول يبدأ من عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٤م وينتهى عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، وهو لم ينشر بعد.

كما أفدنا من مخطوط «تاريخ الدول والملوك» لابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) فبالرغم من عدم معاصرته للأحداث ، إلا أنه أمدنا بمادة قيمة عن الحملة . من حيث أسبابها واستعداد تونس لها عسكريا واقتصاديا وعدد الجيش الصليبى الذى تكونت منه والمراسلات التى تمت بين المستنصر وبيبرس ابان الحملة. ويؤخذ عليه عدم ذكر مضمون الرسالة التى بعث بها السلطان بيبرس إلى المستنصر يعلمه بقدوم الحملة على بلاده وإن كان قد تعرض لدور بيبرس فى شحذ همم المغاربة للتصدى للصليبيين كما ألقى الضوء على علاقة الصداقة بين بيبرس وكبار ملوك الفرنج أمثال الامبراطور الألمانى مانفرد Manfred وشارل الانجوى صاحب صقلية . وأشار كذلك إلى رسالة أخرى لم يأت بمضمونها أرسلها المستنصر لبيبرس ومعها هدية قيمة حتى يثنيه عن اتهامه بالتواطؤ والخيانة ، نظرا لاحساسه بالتقصير فى حق بلده تونس وإن كان ابن الفرات قد ألمح إلى مضمونها بأنها حملت عبارات التوبيخ التى وجهها بيبرس إلى المستنصر. وقد نوه أيضا وفى مناسبات عديدة عن إحساسه بخيانة المستنصر والتواء سياسته . والجدير بالذكر أن ابن الفرات على الرغم من أنه لم يوفق فى ذكر زمن قدوم الحملة إلى تونس فوضعه خطأ تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م وعلى الرغم من أنه لم يأت لنا بتفاصيل كافية عن أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين هناك. إلا أن مؤلفه كان له أعظم الأثر فى الكشف عن الجوانب الغامضة فى سياسة المستنصر الملتوية ، ومكانة مصر بين باقى الدول الإسلامية وتزعم بيبرس لقيادة كلمة المسلمين. هذا بالإضافة إلى أنه المؤرخ الوحيد الذى انفرد بذكر المراسلات بين بيبرس والمستنصر ، وألمح فى مرات عديدة إلى محتواها دون الاتيان بنصوصها كاملة .

ومن بين الكتب التى رجعنا إليها من مؤلفات القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى وأفدنا منها بصورة عرضية غير متخصصة فى أحداث الحملة كتاب «مفرج الكروب» لابن

١- هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضى حماة ، ولد عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧ م وقدم إلى القاهرة أكثر من مرة ، وبعث فى مهمة دراسية إلى صقلية فى عهد الملك مانفرد Manfred ابن الأمبراطور فردريك الثانى ، وكان موجودا بالقاهرة وقت قدوم حملة لويس ضد مصر ١٢٤٨م / ٦٤٨هـ، ومات بحماة عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م. ومن أهم مؤلفاته« مفرج الكروب » و«التاريخ الصالحى» انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر وتحقيق د. جمال الدين الشيال، ج١، ص٤-٨ ، جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٢٨-٢٩ .

واصل (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) حيث يعد من أهم المصادر المعاصرة لأحداث حملة لويس على مصر، وشاهد عيان لكل وقائعها عام (٦٤٦-٦٤٨هـ / ١٢٤٨-١٢٥٠م) ، فكان مصدرا ممتازا لأخبار تلك الحلقة الهامة من سلسلة حملات لويس على ديار الإسلام. أما صليبية لويس على تونس فلم يتعرض لها ابن واصل ، بل ألقى الضوء على أحوال مصر ابان هذه الفترة ، ودور بيبرس فى تصفية وجود الفرنج ببلاد الشام.

وأفدنا أيضا من «تاريخ مختصر الدول» لابن العبرى[1] (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) حيث أمدنا بمادة قيمة عن التتار وعلاقتهم بالأرمن ابان الفترة موضوع البحث مما يعكس الاتجاهات السياسية على المسرح الدولى وقت الحملة .

ومن بين المصادر الإسلامية التى ترجع إلى القرن الثامن الهجرى / القرن الرابع عشر الميلادى، والتى لها أهميتها أيضا مخطوط «ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان «لليونينى» (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) حيث ألقى الضوء على الأحوال الاقتصادية لتونس وقت الحملة والنظم العسكرية التى أقرها المستنصر ببلاده ، ونظام التسليح لجيشه وقت السلم والحرب. كما أفدنا أيضا من مخطوط «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن أيبك (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و«زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة» لبيبرس الداودار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وهو من أجل الكتب عن عصر الظاهر بيبرس ودوره فى الحملة على تونس وأيضا مخطوط «مختصر التواريخ» للسلامى (تاريخ الوفاة غير معروف»، و«عيون التواريخ» للكتبى (ت ٧٤٦هـ / ١٣٦٣م) ونزهة العيون لابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) وجميع هذه الكتب بين مخطوطه ومصورة لم تنشر بعد أما الكتب التى نشرت والتى أفدنا منها بشكل أو بآخر كتاب «المختصر فى أخبار البشر» لأبى الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و«تتمة المختصر» لابن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) و«دول الإسلام» للذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

لقد أفدنا منها جميعا فى القاء نظرة موضوعية على أحوال المغرب وقت قدوم الحملة.

١- ولد ابن العبرى عام ٦٢٣هـ : ١٢٢٦م فى ملطية حاضرة أرمينية ، وتوفى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م، وكان راهبا منذ صغره، وتنقل فى وظائف عديدة ، وعين أسقفا على حلب. وشغل بالكتابة والتأليف فى العديد من الفنون . أنظر لويس شيخو ترجمة العلامة غريغوريوس أبى الفرج، ص٤-٢٠، ٢٨ ، وأيضا دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن العبرى .

ومن أهم مؤلفات القرن التاسع الهجرى / القرن الخامس عشر الميلادى، والتى أفدنا منها أيضا «كتاب السلوك» و«الخطط» للمقريزى» (ت٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) . ويلاحظ أن المقريزى لم يتوخ الدقة فيما أورده من أنباء عن الحملة على تونس ، فتارة يوردها فى أعقاب حملة لويس على مصر ، أى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وأخرى يذكرها تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م ومرة ثالثة يوردها ضمن أحداث عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م مجاريا فى ذلك أبا الفضائل فى كتابه «النهج السديد»[1] ولم يفطن الناشر إلى ذلك . وعلى أى الأحوال، يعد كتاب السلوك من أهم مصادر العصر الأيوبى والمملوكى أما الخطأ الذى ورد فى روايته عن الحملة فيعود إلى عادة النقل عن الغير من السابقين دون وقفه فاحصة مع ما ينقله من أنباء.

ومن الكتب التى رجعنا إليها أيضا والتى ترجع إلى العصور التالية «تاريخ مصر والمعروف» ببدائع الزهور فى وقائع الدهور » (ت ٩٣٠هـ / ١٢٥٣م). وقلادة النحر، لبامخرمة (عاش فى القرن العاشر الهجرى/ القرن السادس عشر الميلادى) وهو مخطوط لم ينشر بعد، «والنزهة الزهية» و«عيون الأخبار» لابن أبى السرور (١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) وهما مخطوطتان لم ينشرا بعد .

وإذا كنا قد استعرضنا أهم المصادر والأصول التاريخية ، من عربية وغير عربية خطية ومطبوعة ، والمتعلقة بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس- أقول أننا إذا كنا قد تناولنا هذه المنابع بالبحث والتحليل، فقد لجأنا فى ذات الوقت إلى الموازنات والمطابقات والمقارنات التاريخية بين هذه المنابع وبعضها البعض وتمكنا فى كثير من الأحيان من حسم العديد من القضايا والمسائل التى كانت حتى تدوين هذه الرسالة مثار جدل وخلاف بين المؤرخين .

يضاف إلى كل ما تقدم أننا رجعنا إلى مجموعة كبيرة من كتب الجغرافيين والرحالة حيث أمدنا بمادة قيمة عن جغرافية تونس وطبوغرافيتها، كما ألقت الضوء على الكثير من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ويأتى على رأسها كتاب «صفة المغرب وأرض الأندلس» للادريسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٦م) حيث أمدنا من خلال رحلته إلى تونس بمادة ممتازة عن جغرافيتها وألقى الضوء على قرطاجنة ومساحتها وأهميتها بالنسبة لتونس، وأيضا «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت فى حدود ٣٠٠هـ / ٩٧٠م) و «مروج الذهب» للمسعودى (ت٣٤٦هـ / ١٠١٦م)

١- انظر المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٥٨٧-٥٨٨ ، حاشية ٥ .

و«صورة الأرض» لابن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) و«معجم البلدان» لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) وغيرهم. فهذه المؤلفات لها قيمتها التى لاتنكر فى عرض المسرح الجغرافى لتونس بصفة عامة وقرطاجنة حيث دارت على سواحلها وفوق أرضها معارك الحملة على وجه الخصوص .

أما عن المراجع الثانوية فيمكن تقسيمها بالنسبة لموضوع البحث إلى أربعة أنواع :

أولا: كتب عن تاريخ الحروب الصليبية ومن أهمها مؤلفات ستيفن رانسيمان S. Runciman ورنيه جروسيه R. Grousset ، وهما من أهم وأعظم المؤلفات الأجنبية عن الحروب الصليبية المبكرة . كما أفدنا أيضا من مؤلفات آرثر وكينجزفورد Archer & Kingsford ، وفرديناند شالندون F. Chalndon وج. ف. ميشو J. F. Michaud وكامبل Campbell .

ثانيا : كتب متخصصة فى تاريخ سيرة القديس لويس أمثال مؤلفات Guizot وهنرى بوردو H. Bordeaux وجاك بولانجيه J. Boulenger وسيجور Sejor ، وميللر Miller ، وبيرى Perry ، وريشارد Réshard ووالسون Wallson .

ثالثا : كتب متخصصة فى تاريخ الشرق اللاتينى ومن أهمها تآليف Raynaud ، وقد أفدنا منهما فى تتبع أخبار الحملة ضد تونس منذ الاعداد لها فى أوروبا وحتى قدومها تونس. كما جاء رينو بتفاصيل المعاهدة التى عقدت بين والمستنصر وشارل الانجوى وجاء تآليفه مزيجا بين وجهتى النظر العربية والغربية ، حيث كان رينو جامعا لآراء المؤرخين العرب فى هذا الصدد . كما أفدنا أيضا من مؤلف Rohricht الذى أفرد فيه فصولا كاملة عن حملة الأمير ادوارد. وأيضا تآليف رى Ray ، وشلومبرجيه Schlumberger وماس لاترى Mas Latrie وغيرهم.

رابعا: هذا بالإضافة إلى عدد ضخم من المراجع العربية الحديثة عن تاريخ الصراع بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ومنها «حملتا لويس على مصر والشام» للدكتور جوزيف نسيم يوسف ، و«خلاصة تاريخ تونس» لحسن عبد الوهاب و «لب التاريخ» لمحمد الحبيب و«تاريخ الحركة الصليبية» للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور و«المغرب الكبير» للدكتور السيد عبد العزيز سالم و«حضارة العرب» للوبون و«تاريخ الأندلس» ليوسف اشباخ و«الجبهة الإسلامية» لمحمد سعيد غنيم وغيرها .

الفصل الأول

الغرب اللاتينى والمغرب الإسلامى
قبيل حملة لويس التاسع على تونس

أحوال العالم الإسلامى بصفة عامة وتونس بصفة خاصة- أحوال الغرب الأوروبى قبيل مجئ الحملة بعامة وفرنسا على وجه الخصوص- أسباب حملة لويس التاسع الصليبية على تونس- الدعوة للحملة والتبشير بها .

اقتطع الصراع بين العالم الأوروبى المسيحى والعالم العربى الإسلامى، فى جبهتيهما الشرقية والغربية ، من العصور الوسطى عشرة قرون من الزمان أو يزيد ، وذلك اعتبارا من ظهور الإسلام فى بدايات القرن السابع الميلادى (القرن الأولى الهجرى) وحتى بدايات القرن السادس الميلادى (القرن العاشر الهجرى) . وتمثل الحروب الصليبية مرحلة رئيسية من مراحل هذا الصراع الدامى، وقد شغلت الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، ومن أهمها حملة لويس التاسع على تونس عام ١٢٧٠م (٦٦٨-٦٦٩هـ) وهى الحملة التاسعة والأخيرة فى عداد الحروب الصليبية المبكرة .

ففى ذلك الوقت الذى استعدت فيه أوروبا لتوجيه ضربتها إلى المغرب الإسلامى، كان توازى القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين يميل لصالح الإسلام، وكانت مصر هى قلب هذا العالم النابض بالحركة والحياة، ومصدر امداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح وكان يحكمها آنذاك السلطان الظاهر بيبرس هذا، بينما كان الكيان الصليبى فى بلاد الشام يتداعى وينهار فى الوقت الذى أخذت فيه القوى الأوروبية تنفض يدها عن افرنج الشرق، وتتنكر لتلك الفكرة العقيمة فى دعم الوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة. أما المغرب الإسلامى وتونس بصفة خاصة التى كانت تتمتع بحالة من الاستقرار السياسى والانتعاش الاقتصادى ، وخاصة فى مجال التجارة فقد أصبح مطمعا للصليبيين إذ فجروا مطامعهم فى تلك الحملة على تونس .

وقبل الخوض فى تفاصيل هذه الحملة، يحسن استعراض أحوال كل من المغرب الإسلامى والغرب الأوروبى بصفة عامة وتونس وفرنسا على وجه الخصوص فى الفترة السابقة لقيامها، لفهم الظروف التى هيأت لاخراجها إلى حيز التنفيذ . لقد كانت تونس هى الأرض التى شهدت تداعى الفكرة الصليبية وموت أشد المتعصبين لها وهو لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد ثلاث حملات كبيرة كانت أولاها ضد مصر ، وثانيتها ضد بلاد الشام، وثالثتها تلك التى نحن بصددها.

كان يحكم مراكش آنذاك بنو عبد المؤمن مؤسسو دولة الموحدين بالمغرب ، وكانت المغرب منذ أوائل القرن السابع الهجرى/ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، تعانى من الفتن والمؤامرات والاضطرابات السياسية خاصة بعد هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. فقد أجمع المؤرخون العرب أن هذه الموقعة كانت السبب الرئيسى فى انهيار الكيان الإسلامى فى بلاد الأندلس بصفة عامة[١]. فقد تمكن النصارى من الاستيلاء على أكثر مدن الأندلس، ولم تقم لدولة الموحدين قائمة بعد ذلك ، حيث تعددت الأسباب التى أعانت على انهيارها. وكان من أهمها الضعف الحربى والسياسى الذى منيت به البلاد بعد هزيمة الموحدين فى تلك الموقعة. هذا بالإضافة إلى انتشار الفوضى والاضطراب ، وكثرة الحركات الداخلية المناوئة ، وازدياد التوسع المسيحى فى بلاد الأندلس أضف إلى هذا ضعف الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد الخليفة محمد الناصر. ويعتبر الخليفة المستنصر بالله يعقوب بن محمد الناصر أول الخلفاء الضعاف (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) الذى كثرت فى عهده الفتن والثورات والاضطرابات ، كما كثر الخارجون عليه. ولما توفى ازداد الأمر اضطرابا ، واجتمع الناس على خلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن. وفى عهده تفرق الموحدون وازدادت مطامعهم فى الخلافة ، ولم يهنأ الخليفة الواحد منهم على حكم مستقر دون دسائس أو مؤامرات وقد استقل أبومحمد عبدالله بن يعقوب المنصور بالأندلس وتلقب بالعادل. ورغم أن عددا كبيرا من أعيان الموحدين قد أيدوه، إلا أن العهد لم يطل به فقتل غيلة فى ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م[٢]. وخلفه

١- الفيومى (أحمد بن محمد بن على) : نثر الجمان فى تاريخ الأعيان المجلد الثانى، مخطوط ، ورقة ٦٠ب.

٢- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : المغرب الكبير- العصر الإسلامى الاسكندرية، ١٩٦٦، ص٨٢٩ .

أخوه أبو العلاء ادريس بن المنصور. إذ انتهى الأمر بمبايعته بالخلافة فى أشبيلية مقر ولايته ، وتلقب بأبي العلاء المأمون وبايعه أهل الأندلس. وفى نفس الوقت بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة في مراكش وتلقب بالمعتصم. واشتد الصراع بين خليفة الموحدين بالأندلس وخليفتهم بالمغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبى العلاء ادريس فى ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م[١]. وبذا أصبح المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين وانتشرت الثورات فى كل مكان، ومن أشهرها ثورة محمد بن يوسف بن هود الجذامي بمدينة مرسية. فقد تمكن من التغلب على شرق الأندلس كله وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء. وأيقن أهل الأندلس أن امارته ستكون مخرجا لهم من حالة الفوضى والاضطراب ، ولكنه اصطدم بحركات مضادة من قبل القشتالين والأراغونين وبعض خصومه من زعماء الأندلس، وكانت كل هذه الصراعات فرصة كبيرة لضياع معظم بلدان الأندلس فسقطت قرطبة وأشبيلية وغيرها فى يد المسيحيين ، كما تمكن ادريس بدهائه وحنكته السياسية من التخلص من أتباع ابن هود واستئصال شأفتهم نهائيا حتى كان يطلق عليه «حجاج المغرب» . وبعد فترة تقارب العشرين عاما دخل مراكش أبو العلاء ادريس الثانى المعروف بأبي دبوس ولقب بأمير المؤمنين وبالواثق[٢] . ويعرف عنه أنه كان داهية فى السياسة وأنه دخل مراكش غدرا ، وذلك فى عهد الخليفة المرتضى أبى حفص بن إسحاق الذى تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون .

وقد ترك المرتضى الحكم [٣]، وبويع أبو دبوس بالخلافة بجامع المنصور يوم الأحد ٢٣ محرم ٦٦٥هـ / ١يناير ١٢٠٨م أى فى اليوم الثانى من دخوله مراكش[٤]. أما سبب تحرش

١- كان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصارى المرتزقة أدخلهم فى جيشه وأقاموا فى مراكش بعد أن بنى لهم فيها كنيسة ، وبينما كان المأمون منشغلا بمحاربة المعتصم انقض عليه أخوه أبو موسى فى سبته وتخلص منه ولقب نفسه بالمؤيد. أنظر عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٨٢٩ .

٢- اختلفت المصادر المعاصرة فى نسبة ، فمنهم من يقول أنه أبودبوس ابن ادريس المأمون ، ومنهم من يقول أن اسمه ادريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد الواحد . أنظر الفيومي: نثر الجمان ، ج٢، ورقة (٨أ) .

٣- ابن أبى زرع (على بن محمد الفاسى) : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، نشره تورنبرج ، اسبال ١٨٤٣، ص١٧٣-١٧٥ .

٤- اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم دخول أبى دبوس مراكش، وهل هو ٢١محرم أم ٢٢. ويرجح =

أبي دبوس بالمرتضى فذلك لأن الأخير كان يريد أن يفتك به أثناء اقامته بمراكش ولما أحس أبو دبوس ذلك فر هاريا إلى أمير المؤمنين أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق من بني مرين، وطلب منه المساعدة ضد المرتضى . وتشير المصادر المعاصرة أنه على الرغم من الحفاوة الزائدة التي قوبل بها أبو دبوس من قبل أبي يوسف إلا أنه أنكر ذلك الجميل وتمرد عليه في نهاية الأمر، رغم أن أبايوسف قد وافق في هذه المقابلة على امداد أبي دبوس بكل ما يحتاج إليه من أموال وعتاد حتى ينصره على المرتضى ويمكنه من حكم البلاد. وفعلا أمده بجيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من قبائل بني مرين،[1] وأعطاه خيولا وعشرين ألف دينار، ولكنه اشترط عليه أن يعطيه نصف ما يحصل عليه من البلاد ، ووافق أبو دبوس على ذلك ، وانصرف من عنده بعد أن تمكن من ضم عدد كبير من عربان أفريقيا ممن كانوا في طاعة الخليفة المرتضى إليه، وطلب منهم أن يبايعوه ووافقوا على ذلك وساروا معه حتى بلدة هكسوره.

وقد مكث أبودبوس بهذه البلدة بضعة أيام ، وتمكن من اجراء مراسلات سرية مع بعض اتباع المرتضى الذين أجابوه قائلين «أقبل ولاتخف فنحن نؤيدك والجند فرقناها في البلاد»[1]. وفعلا ساعدوه على دخول مراكش ليلا في غفلة من أهلها الذين لم يستسلموا له. ودارت معركة حاسمة صباح يوم ٢٢ محرم بين قوات كل من المرتضى وأبي دبوس الذي رجحت كفته وأدرك المرتضى هذا فهرب من باب سري بقصره. ودخل أبو دبوس القصر وأقر الأمور ووصل إلى مدينة أزمور التي كانت تزخر بأتباع ابن عطوش ، وهو صديق حميم للمرتضى ، حيث كان قد أسر ذات مرة فدفع له المرتضى مبلغا كبيرا من المال وفك أسره وزوجه ابنته وولاه تلك المدينة.

= أن دخوله كان يوم ٢١ محرم لأن اليوم التالي لدخوله حفل بالأحداث السياسية السريعة والناجمة من قبل أبي دبوس ضد المرتضى . فمن المنطقي أن أبا دبوس أمضى يوما على الأقل داخل البلاد لاقرار الأمور فيها ثم انتزع الخلافة من المرتضى ، لأن لايعقل أن تكون تلك الخطوة قد حدثت دون إعداد لها على الأقل قبلها بيوم واحد، وحتى هذا اليوم يعتبر غير كاف لكل هذه الأحداث ، وربما قد تم الإعداد لتلك الخطوة قبل ذلك بفترة أنظر: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص١٢٦ ، الفيومي نثر الجمان ، ج٢ ، ورقة (٥٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٧٣ .

١- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص١٧٣، مجهول: الحلل الموشية، ص١٢٦ .

فكان ابن عطوش مصدر ثقة المرتضى ومأمنه، فهرب إليه طالبا منه الحماية . فما كان من ابن عطوش إلا أن أوثقه بالحديد وكتب إلى أبي دبوس قائلا : «اعلم يا أمير المؤمنين أني قد قبضت على الشقي واني سأرسله إليه». وفعلا أرسله ولكنه قتل في الطريق. وبعد أن تخلص أبودبوس من المرتضى وأتباعه، بدأ يعمل جاهدا على استتباب الأمور داخل البلاد والاهتمام بأحوال مراكش السياسية والاقتصادية ... وصلت هذه الأخبار إلى أبي يوسف الذى سبق وقدم له كل العون في بداية صراعه مع المرتضى. وكتب إلى أبي دبوس يطلب منه الوفاء بوعده، وأن يمكنه بما اشترط عليه من قبل . ولكن رد أبي يوسف «قل له أن يغتنم السلامة ويقنع بما في يده من البلاد وإلا أتيته بجنود وعتاد لاقبل له بها»[١]. فلما علم أبو يوسف بذلك، صمم على قتال أبي دبوس، وأصدر أوامره بالقبض عليه حيث حمل إلى مدينة فاس فظلوا يطوفون به في أسواق المدينة إلى أن علق على أحد أبوابها ، وقتل في شهر ذى الحجة ٦٦٧هـ / أغسطس ١٢٦٩م، وقيل في محرم ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٩م [٢]. وفي رواية أخرى أنه لم يقبض عليه، ولكن دارت بينه وبين قوات بني مرين بقيادة أبي يوسف معركة ضارية عضد فيها أبا دبوس عدد من العربان والفرنج، وأن الدائرة دارت عليه وهزم في المعركة وعلقت رأسه على سور المدينة.

وبناء على ما تقدم ، فإنه بموت أبي دبوس انقرضت دولة الموحدين وانتشرت الفتن والفوضى التي دبت في بلاد المغرب والأندلس وانقسم ملك الموحدين إلى ثلاث دول مستقلة ، فقد استغل بنو حفص المصامدة وولاة أفريقيا في عصر الموحدين فرصة، احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها، ودامت لهم السيطرة على طنجة وسبته وبعض مدن الأندلس بينما

١- ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن علي) : تاريخ الدول والملوك، ١٨ مجلدا ، مخطوط دار الكتب المصرية، ج١٢ ، لوحة ٦٠ .

٢- اختلفت المصادر حول السنة التي قتل فيها أبو دبوس وهي هل ٦٦٧هـ أم ٦٦٨هـ ؟ وقد أجمع عدد من المصادر على أن أبا دبوس ظل في الحكم ثلاث سنوات (٦٦٥هـ / ٦٦٨هـ) في حين يؤكد البعض الآخر أنه قتل سنة ٦٦٧هـ . وعلى أى الأحوال فالخلاف بين هذين التاريخين . هو اختلاف بسيط لايتعدى أن يكون يوما واحدا ما بين نهاية عام ٦٦٧هـ وبداية أول يوم من ٦٦٨هـ . وبناء على هذا ، فإن مدة حكم أبي دبوس التي تقرب من ثلاث سنوات تعد أمرا بالغ الأهمية حيث أن مقتله كان النهاية الحتمية للدولة الموحدية. أنظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٧٣-١٧٥، مجهول : الحلل الموشية، ص١٢٨ ، الفيومي: نشر الجمان ، ج٢ ، ورقة ٧ ب ، ابن الفرات : تاريخ الدولة ، ج١٢ ، لوحة ٦٠ .

اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم. فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى ، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط ، في حين تمكن بنو حفص من توطيد نفوذهم في المغرب الأدنى . وقد تأثروا كثيرا بكل هذه الاضطرابات والفوضى التي أصابت المغرب، وتمكنوا بدهاء من اعلاء كلمتهم على معظم أنحاء شمال أفريقيا إلى أن استقر بهم الحال في تونس . والحفصيون هم أمراء ينتسبون لأبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني[١] الذي تمكن في عهد الموحدين من أن يبلغ مكانه سامية نظرا لسبقه في الجهاد إلى جانبهم . وكان أبو حفص من أكبر أصحاب ابن تومرت بن عبد المؤمن. ففي عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م تداول أبناء أبي حفص المناصب المرموقة في المغرب والأندلس إلى أن تمكن أبو زكريا يحيى بن أبي حفص في عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م من الهيمنة على شئون تونس الداخلية مستغلا في ذلك ضعف وتفتت كلمة الموحدين وبالتحديد في ٢٦ رجب ٦٢٥هـ / ٢ يوليو ١٢٢٧م تمكن من السيطرة على البلاد بصورة رسمية ودامت له السيطرة على الحكم اثنين وعشرين عاما ٢٦ (٢٦رجب ٦٢٥هـ- ٢٣ جماد آخر ٦٤٧ / ٢٨ يوليو ١٢٢٧-٤ أكتوبر ١٢٤٩م) وقد واجه بنو حفص صعابا عديدة في بسط سيطرتهم على البلاد. فقد اصطدموا ببني عبد الواد ودارت بينهم معارك عديدة إلى أن تمكن الحفصيون من فرض سيطرتهم على الجزائر . كما اصطدموا ببني مرين، ودارت حروب كثيرة بينهم، هذا في الوقت الذي دبت فيه الفتنة بين أفراد البيت الحفصي نفسه. فحين قام أبو عبدالله بن محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص في عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، بتولي الأمور في أفريقيا، ولى أخاه أبا زكريا قابس[٢]، وولى أخاه أبا

١- هنتانه : قبيلة من برابرة المصامدة الساكنين بالمغرب الأقصى . ويذكر أبو الفدا أن الهنتانة المقصود بها بناءين منثانين من فوقهما ، ويزعم الهتانيون أنهم قرشيون من بني كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء، اسماعيل أبو علي): المختصر في أخبار البشر، ٤ ج، ج٣، ص١٩٦ ، أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣ ج ، مخطوط دار الكتب المصرية، ج٢، ورقة ٣١٢، الفيومي: نشر الجمان، ج٢، ورقة ١٩ (أ) .

٢- قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين ، غربي طرابلس الغرب ، ذات مياه جارية وبها حصن حصين وفنادق وجامع وبها مرفأ للسفن ولها ثلاثة أبواب يسكنها العرب والافارقة. وساحل مدينة قابس يشتهر بالتجارة. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ، ص٢٨٩ ، وأيضا ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهذلي): كتاب البلدان، بريل ١٣٠٢هـ، ص٧٩ .

ابراهيم اسحاق بلاد الجديد، خرج أبو إبراهيم اسحاق على أخيه أبى عبد الله وطرده وولى مكانه أخاه أبا زكريا فنقم بنو عبد المؤمن على أبى زكريا. فقام الأخير باسقاط اسم عبد المؤمن من الخطبة وخلع طاعتهم وتملك افريقيا وخطب لنفسه بالأمير. وقد واجهته فى بداية الأمر صعابا كثيرة وخاصة من قبيلة هوارة [١]. وتمكن من اخماد ثورتها عام ٦٣١هـ / ١٢٣٤م، كما تمكن من الاستيلاء على تلمسان وجزء كبير من أملاك بني عبد الواد . وقد ساعده على ذلك عدم وجود القوة المنسقة الموحدة التى يمكن أن تقف أمامه . وخطب له فى الصلاة، ووفد عليه ابن مردنيش صاحب بلنسية يستنجد به ضد النصارى الأسبان بقيادة خايمي الأول ملك أراجون الذى ازدادت أطماعه فى بلنسية وغيرها من مدن الأندلس[٢] وقد أجابهم أبو زكريا بأسطول ضخم شحنه بالأقوات والأسلحة.

وشهدت تونس فى عهد أبى زكريا نهضة علمية ، ولازالت هناك العديد من مظاهر الحضارة والعمران ممتدة آثارها حتى اليوم وترجع إلى هذا العهد، وتأثرت حضارة بنى حفص كثيرا بالحضارة الأندلسية ، وكان بلاط أبى زكريا يزخر بأهل الأندلس من العلماء والأدباء ، وكان هو مولعا بمجلس الشعراء [٣]. وهذا يعنى أن البلاد فى عهده كانت تنعم بحالة من الهدوء والرخاء والاستقرار ، الأمر الذى لم تتمتع به القوى الإسلامية الأخرى فى المغرب[٤] حسبما يتضح من العرض الذى أسلفناه .

١- هوارة : قرية بالقرب من تونس اشتهرت بانتشار المذهب الشيعى بها، وساكنوها يعرفون بالهوارين، أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، ص٩٩٥، طبعة ليبزج ١٨٦٩ .

٢- بلنسية : السين مهملة مكسورة وياء خفيفة وهى كورة ومدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة وهى بلد برية بحرية بها أشجار وأنهار وتتصل بها مدن تعد فى جملتها ، ولايخلو، منها سهل ولاجبل وأهلها خير أهل الأندلس، أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١ ، ص٤٩٠ .

٣- ابن القنفذ: الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية ، ص١١٢ . (وقد ذكر ابن مردينش مرة بحضرة أبى زكريا بعض الأبيات الشعرية التي كتبها الأديب أبوعبدالله بن الآبار لجذب حماسه لمساعدته ، ومنها :

أدرك بخليك خيـــل اللــه أندلســا   ان السبيل إلى منجاتها درسـا

أنظر الغبريني : عنوان الدراية، فمن عرف من العلماء فى المائة السابعة السابقة ببجاية، الجزائر ١٩٧٠، ص٢٥٧ ، ص٢٥٧ . وأنظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٨٧٦ .

٤- أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩١ .

وتوفى أبو زكريا فى ٢٣ جمادى الآخر عام ٦٤٧هـ / ٤ أكتوبر ١٢٤٩م[١]. وذلك حين خرج معه ولده المستنصر وكان ولى عهده فى رحلة إلى مدينة بونا. ومرض فجأة وسقط ميتا بين يدى ولده. فما كان من المستنصر إلا أن تركه على حاله بين يدى الناس الذين اشتغلوا بجنازته وامتطى جوادا كان يسمى «الجيش» وهرع نحو مدينة تونس، وذلك خوفا من أن يسبقه عماه اللحيانى والمجدور ويضعا أيديهما عليها[٢]. وعند دخوله تونس وجد الخبر بموت أبيه قد سبق، والنواح فى القصر. فأبطل المستنصر كل هذا وقال لهم «أبشروا بى ففى خلف عن الماضى»[٣]. واحتفل المستنصر على الفور بمبايعة البلاد الإسلامية له، خاصة حين أرسل له أمير الحجاز وأهلها مبايعتهم له بالخلافة عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م فاحتفل المستنصر بهذا ولقب نفسه يومئذ بأمير المؤمنين. وقد بايعته قبائل بنى مرين وقدم إليه ملك برنو[٤] بالسودان هدايا نفيسة. كما كان يتلقى السفارات من المدن الإيطالية وبعض دول البحر المتوسط وعدد من دول أوروبا النائية التى كان ملوكها يقدمون إليه الهدايا، ويعرف عن المستنصر أنه كان ملكا عظيما على بلوغ مقصده شهدت تونس فى عصره حضارة عمرانية مزدهرة. فقد اهتم بانشاء المبانى، ورمم الحنايا الرومانية القديمة لجلب ماء زغوان وأجرى بعضا من مائه

١- ابن القنفد: الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية، ص١١٤، أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٣، ورقة ١١٣، بامخرمة (أبو محمد بن عبدالله بن أحمد ابن على): قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر، ج٦، مخطوط ج٥، ورقة ٣٣٨، اليونينى (موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين): ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان: ج١٥ و١٧، مخطوط، ج١٧، ورقة ٨٤أ، ب، الفيومى: نثر الجمان، ج٢، ورقة ١٩٠ أ، ابن رسول (عباس بن على بن داود بن يوسف بن عمر): نزهة العيون فى تاريخ طرائف القرون، مجلدان، مخطوط، المجلد الأول، ورقة ٤٦٤-٤٦٥، أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص١٩٦، ابن أبى دينار القيروانى: المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس، محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية فى تاريخ أمراء أفريقية، ص٦٢، الزركشى: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١٥٠.

٢- سمى أحدهما باللحيانى لكثرة لحيته وكان يدعى محمد اللحيانى، والآخر سمى المجدور لكثرة الجدرى بوجهه وهو ابراهيم أبو عبدالله المجدور، أنظر اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ج١٧، ورقة ٨٤ أ-ب وأيضا الفيومى: نثر الجمان، ج١٢، ورقة ١٩٠- أ.

٣- ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٢٧، المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢، الزركشى: تاريخ الدولتين، ص١٥٠، وأيضا حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص١١٣.

٤- برنو: مملكة بأواسط السودان قاعدتها مدينة كوكه، ويسكنها زنوج مسلمين أنظر: محمد الحبيب: لب التاريخ، ص٢١٥، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٣.

للبستان الذى اتخذه برأس الطابية والبعض الآخر للبستان المعروف بأبى فهر قرب اريانه (١). كما أجرى البعض الآخر إلى داخل المدينة وجامع الزيتونة. وأضاف العديد من الانشاءات الأخرى. وكثرت ثروات الناس ، وتأنق أهل اتونس فى ملبسهم ومسكنهم ومبانيهم، حتى الآنية التى كانوا يستعملونها كانت تتميز بقيمتها. كما اهتم ببناية السقاية شرقى جامع الزيتونة. وبالغ المستنصر فى اكمال الحناية التى يجرى ماؤها إلى مدينة قرطاجنة (٢)، كما انشأ مسجد باب الدرب بالمنستير وكل أبنيته تأثرت بالأسلوب الأندلسي. وفى عهده توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونه ومرسيليا وجنوه وبيزا، وصقلية والبندقية، وانشأ فى تونس الفنادق الأجنبية الفخمة (٣). كما تميز عهده بمشاهير العلماء الذين انقطعوا لنشر العلم مع من نزح من الأندلس وصقلية ومنهم أبو على بن موسى النحوى المعروف بأبى عصفور الأشبيلى وغيره. هذا ، وقد أفرد بعض المؤرخين العرب العديد من صفحاتهم عن حياة المستنصر ، وأن لقبه المنتصر وليس المستنصر ، وإن اتفقت الأغلبية على أنه المستنصر(٤). وكان يعرف عنه أنه محبا للشعر والأدب(٥).

كما أشارت العديد من المصادر إلى اهتمامه بشهواته الخاصة، وأنه كانت تزف إليه كل يوم جارية(٦) وأنه كان محبا للمظاهر والعظمة. واستمر يلقب نفسه بأمير المؤمنين «ولكن لم يتمتع طويلا بهذا اللقب إذ عمد السلطان الظاهر بيبرس إلى احياء الخلافة العباسية فى

١- اريانه : يقال لها أيضا اريونة وهى على ساحل قرطبة تقع آخر بلاد الأندلس مما يلى بلاد الفرنج ، أنظر : ابن الفقيه : كتاب البلدان، ص٨٣ ، أنظر أيضا : ابن القنفذ: الفارسية ، ص١١٧ ، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية ، ص١٠٢ .

٢- محمد الحبيب : لب التاريخ، ص٢١٤ .

٣- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٨٧٨ .

٤- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ج١، القاهرة ١٩٥١، ص١١٥ .

٥- هذه بعض الأبيات الشعرية على لسانه :

مالى عليك سوى الدمع معين ... إن كنت تنذر فى الهون وغون
من منجدى غير الدموع فانها ... لمعينة مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حملتنى ... صعب ولكن فى رضاك يهون

أنظر أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج٣ ، ورقة ٣١٢ .

٦- أبو المحاسن : المنهل ، ج٣ ، ورقة ٣١٢ بامخرمة: قلادة البحر، ج٥ ، ورقة ٣٣٨ .

القاهرة حين أحضر أحد الأمراء من بقايا العباسيين وكان يسمى «الحاكم بأمر الله» ولقبه بالخليفة العباسي وقام يدعو له على منابر مصر، الأمر الذى ترتب عليه أن سحب لقب الخليفة أو أمير المؤمنين من المستنصر وأصبح لقبه السلطان وذلك منذ عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ [١].

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر الحضارية التي شهدتها تونس على عهد المستنصر قبيل الحملة الصليبية التاسعة عليها، إلا أنه توجد اشارات مبعثرة هنا وهناك في بطون مصادر هذا العصر تبين أن المجاعة والوباء كانا منتشرين فى تونس إلى الحد الذى شجع شارل الأنجوى حاكم صقلية على اقناع أخيه لويس التاسع ملك فرنسا على التوجه إليها، مستغلا هذه الظروف السيئة التي كانت البلاد تمر بها. وثمة تساؤلات عديدة تطرح نفسها ملحة فى طلب الاجابة فمنها ، هى : كيف تتمتع تونس بمثل هذا الرخاء والاستقرار ، وبعد ذلك ينتشر بها الوباء والمجاعة ؟ وهل من المعقول أن تنظم حملة عسكرية من أوروبا لتكون وجهتها بلدا انتشر به الوباء، وما هو الدافع لذلك ؟ وهل الوباء يعتبر دافعا للقدوم إلى مكان ينتشر فيه أم الفرار بعيدا عنه؟ وعلى هذا فلابد لنا من وقفه مع رأى كل من ابن خلدون والمقريزى بهذا الشأن[٢]. فلايمكن لبلد مثل تونس تمتعت بكل هذا الازدهار الحضارى فى شتى المجالات أن تكون عرضة لهذا المرض. حقيقة أن تونس قد عانت من قلة الأقوات، ولكن ذلك كان أثناء حصار حملة لويس لها ، وليس قبل مجيئه إلى تونس ، بدليل اقتناعه بالتوجه إليها حيث وجد فيها كل ما يشتهيه والمرض بالطبع لايدفع إلى الشهية [٣].

ومع ذلك ، لم يكن عهد المستنصر كله رخاء فى رخاء، فلم يخل من العديد من الاضطرابات السياسية الداخلية ، وخاصة من قبل عميه اللحيانى والمجبور. فقد ذكرنا آنفا أنه من شدة خوفه على حكم تونس ترك أباه على حاله فى بونا ورحل إلى بلاده خشية من عميه ، لأن كلا منهما كان يطمع فى الحكم، وكان عليه سرعة الخلاص منهما بما لديه من دهاء وحنكة سياسية . فأمر فى أعقاب توليه الحكم بأن تعد الجيوش وأن يكون عمه اللحيانى فى مقدمتها وعمه المجبور فى مؤخرتها . وكان قصده من هذا أن يتعرف على أمور جنده، ويكتشف من يتبعه ، ومن فى نيته التمرد عليه. وفعلا اجتمعت بين يديه الجيوش ما عدا عميه ومعهما سبعين

١- الغبرينى : عنوان الدراية ، ص١٠٢ ، ابن القنفذ ، الفارسية، ، ص١٢٣- ١٢٤ محمد مزالي والبشير بن سلامة: تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي حتى عام ٨٣٠، معرب ، تونس ، ١٩٧٨، ص١٧٩ .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٠ ، المقريزى (تقى الدين أبو العباسى أحمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١،٢، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٢ . رجعت ج١، ق١، ص٣٦ .

٣- سوف أتعرض لهذه القضية بالتفصيل في الفصل الرابع .

آخرين ممن تمردوا من الجند . وقام المستنصر بالاختفاء بجيشه، وأقام لرجاله الولائم. كما قدم الهدايا والمساعدات لكل الرعية، كل هذا وهو فى قلق من أمرهما. واستمر على هذه الحال ما يقرب من عام ونصف دون أن يبت فى أمرهما. ومما ضاعف من قلق المستنصر انضمام ثلاثة من كبار القوم والأعيان فى تونس إلى جانب اللحيانى والمجدور، وهم ابن الريحان وابن اسحاق بن رحان وابراهيم بن اسحاق [١]. وقد استعمل المستنصر معهم كل حيلة، حيث تظاهر بالتودد والرغبة فى الصلح ، واستدركهم فى بستان له وقطع رؤوسهم وطاف رجاله بها فى طشت من الفضة ثم أمر بدفنهم .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المستنصر إنما تخلص من عميه وأتباعهما حين وضعهم مع جماعة من الخوارج داخل قبة عمرها بدون أساس ثم أرسل عليها الماء فانهدمت عليهم[٢]، المهم أنه بعد خلاصه منها، تفرغ لترتيب أحوال بلاده وجيشه . وتمكن بشدته من التخلص من آية محاولة تمرد جديدة. ففي وقت السلم كان يجمع الأسلحة من الجند ويضعها فى خزانته ، فاذا وقع أمر أخرجها ووزعها عليهم . ونظرا لأن تونس في عهده قد شهدت المزيد من مظاهر الرخاء الاقتصادى ، فقد اعتمد المستنصر على ربع حصيلة موارد السكان القادرين فى تصريف الكثير من شئون البلاد [٣].

والمهم ما أن فرغ المستنصر من صراعه مع عميه حتى واجه عدوا أخطر يهدد سلامة وأمن البلاد ، وهم عربان أفريقيا الذين أظهروا عداءا سافرا له منذ توليه الحكم بقيادة قائدهم السبع بن يحيى . وقد أظهر المستنصر فى عدائه معهم الدهاء والحيلة عند الضرورة فلم يثر في وجههم ، ولم يقم بأى خطوة عسكرية ضدهم بل عمل على مداهنتهم ، وأخذ فى ارسال البعوث والسفارات المحملة بالهدايا إليهم حتى يستميلهم إليه وبالفعل أمن العربان له وحضر مقدمهم بنفسه ومعهم كبار الزعماء لكى يتشاوروا مع المستنصر فى اقرار العلاقات السلمية بينه وبينهم. إلا أنه غدر بهم وضرب أعناقهم جميعا[٤]، فكتب أحد الشعراء ، بعض الأبيات الشعرية بشأن تلك الحادثة[٥].

١– الفيومي: نثر الجمان، ج٢، ورقة ١٩١ .

٢– ابو المحاسن : المنهل الصافى، ج٣ ، ورقة ٣١٢ .

٣– الفيومي: نثر الجمان، ج٢ ، ورقة ١٩٠ أ .

٤– الفيومي: المصدر السابق ، ورقة ١٩٢ أ.

٥– ومن هذه الأبيات : أضحى سباع للسباع وديعة ... يسطو به أسد من الآساد

وسطت بحداد وسائر قومه ... وهم أنت من مربط الحداد

أنظر الفيومي: المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وقد بلغ ذلك الخبر جماعة تدعى الخلوط (١)، الأمر الذى أثار ضغينتهم ضد المستنصر . فتجمع هؤلاء يؤيدهم بعض الموحدين الذين توارثوا نار الحقد ضد الحفصيين الذين سلبوهم السلطة والحكم رغم الصداقة الوطيدة التى كانت تجمع بينهما. ولذا وجدوا فرصتهم فى الانتقام بانضمامهم مع الخلوط، وتشاوروا فى أفضل السبل التى يجب اتباعها للتخلص من المستنصر الذى اتهموه بأنه قد ضيق عليهم سبل العيش وسلبهم أمجاد آبائهم . وقرر الجميع الخروج للقائه بحرا وبرا . أما خطة المستنصر لمجابهة ذلك الخطر المزدوج فكانت أيضا ملاطفتهم ومداهنتهم . فبدأ بأن منحهم ملكية خمس مدن صغيرة ، هذا فى الوقت الذى أخذ يعد العدة لمواجهتهم . وأمر باستعمال السيوف والرماح التى أخرجها من خزائنه ، وأحضر الخياطين وحاك الدراريع الملونة والملابس المتنوعة وحملها هدايا إلى عربان الخلوط ، وذلك بصحبة رجل يدعى يحيى بن صالح وكان صديقا للعربان ، وموضع ثقة المستنصر وثقتهم. وأقسم يحيى للمستنصر بأن تكليفه بهذه المهمة لن يخرجه عن طاعته . وفعلا حمل رسالة منه إليهم، ولما رآه العربان فرحوا بلقائه وقدموا له هدايا قيمة للمستنصر . وقد أقام يحيى لديهم ما يقرب من ثلاثة أشهر أحسنوا فيها ضيافته . وفى تلك الأثناء تجلت من جديد مهارة وذكاء المستنصر فى احتواء أعدائه . فكتب إلى أبى يحيى برغبته فى أن يخطبوا إليه إحدى بنات العربان وفعلا زوجوه ثلاثة منهن. وكانت نية المستنصر فى هذا هو بذل كل الجهد للتقرب منهم وأن يجعل من نفسه أحد أفراد عشيرتهم ، ولكن فى باطن الأمر كان يكن لهم كل الشر. وبالفعل أقيمت الأفراح وتناسى المستنصر والخلوط ما كان بينهم من عداء بعد أن أصبح المستنصر صهرهم». واستولى على عقولهم ، وأرسلوا إليه قائلين «احضر إلينا لنزف إليك البنات ونعاهدك بأنك أن قدمت إلينا ومت وتولى ابنك الحكم مكانك فسوف نبايعه ونكون له مؤيدين»(٢). ورد عليهم المستنصر بارسال الهدايا والخيول والجوارى ، والأموال الكثيرة . وتقدمْ الحراس رافعين أعلامهم البيضاء لأمير المؤمنين صاحب تونس . وفعلا لما رآه العربان فرحوا به وسكنوا إليه وأمن هو شرهم إلى حين. واستمر الوضع على هذا مدة طويلة إلى أن

١- الخلوط : هم جماعة من العرب المتفرقين فى أفريقيا ويبلغ عددهم آنذاك ما يقرب من ٦٠ ألف نسمة ، أنظر : الفيومى : نثر الجمان ، ج٢، ورقة ١٦٢ .

٢- الفيومى ، نثر الجمان ، ج٢، ورقة ١٩٢ .

انتهز فرصة استتباب الأمور داخل دولته ، وقرر التخلص من هذا العبء الثقيل الذى كلفه الكثير. فدعا إلى قصره بتونس سبعين رجلا من أكابر القوم لدى الخلوط واستضافهم أربعين يوما. هذا، فى الوقت الذى أحضر فيه أحد البنائين وأمره بأن يبنى له قبة عظيمة يكون أساسها من الملح لاستضافة المستنصر الرجال فيها وجعلهم يشربون حتى ثملوا تماما. ثم أمر باطلاق الماء على أساس القبة ، فذاب الملح وتهدمت على من فيها ومات زعماء العربان. ثم سير إليهم جيوشه بعد أن استأصل شأفتهم وفرق كلمتهم . وأخذ يسترد منهم كل ما أخذوه فى شكل هدايا ومجاملات. فكانت تلك الخطوة الجريئة منه لطمة على وجوه كل خصومه ، الذين اتهموه بعدم الشرف فى الخصومة والغدر بالأصدقاء[1] الذين أحسنوا إليه ووطدوا علاقتهم به وجددوا البيعة له ولوريثه من بعده [2]. ولم يغمض المستنصر عينيه عن أى عدو مستتر يتصدى له فقد تمكن فى أعقاب هذا من استئصال شأفة أولاد عميه اللحيانى والمجدور حين تجددت خطورتهم فى محاولة يائسة للانتقام منه ونكل بهم جميعا [3].

ولعلنا نخلص مما تقدم أن تونس كانت تتمتع بصفة عامة بالاستقرار والرخاء فى عهد المستنصر فيما عدا تلك الفتن والاضطرابات التى استهدفته والتى كانت تثور بين وقت وآخر ، والتى تمكن من القضاء عليها بالحيلة تارة وبالفتنة والحرب تارة أخرى . وعلى هذا فقد أصبحت تونس فى عصره عاصمة متألقة للمغرب كله بلا منازع ، ونشطت بها حركة التجارة، وازدهرت الأسواق ، وكان التجار يتوافدون عليها من كل جهة . وأبرم المستنصر العديد من المعاهدات التجارية مع بيزا وجنوه وغيرهما من دول الغرب، وعلى أى الأحوال ، فقد تأثرت الحضارة الحفصية - إن جاز هذا التعبير - بالحضارة الموحدية التى تركت بصماتها على شتى الميادين . فالحفصيون هم ورثة الموحدين ، ولذا فقد سعوا جاهدين للحفاظ على طابع مدينة تونس الذى كان للموحدين ضلع كبير فى تشييده [4].

١- أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج٣ ، ورقة ٣١٢ .

٢- الفيومى: المصدر السابق، ج٢ ، ورقة ١٩٥ .

٣- حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

٤- محمد مزالى : تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٩٦ .

هذا، وهناك اشارات صريحة عن العديد من الصداقات التي كان يعقدها المستنصر مع ملوك الفرنج ، ومنهم امبراطور ألمانيا. فيروى أنه بعد أن تخلص من عميه «صعد على منبر من العاج مصفح بالذهب كان أحد هدايا الامبراطور الألمانى إليه[١]، وقد شكك بعض المؤرخين العرب فى نوايا المستنصر نتيجة هذه الصداقات لدرجة أن بعضهم وجه إليه عبارة بأنه «لايحق أن يلى أمور المسلمين نتيجة صداقاته الوطيدة مع لويس التاسع ملك فرنسا أيضًا ويتهمونه بأن هذه الصداقة كانت سعيا فى قدوم حملته على تونس. وفى حقيقة الأمر، فإن المستنصر إنما عقد هذه الصداقات دون تقديم أى تنازلات تضر بمصلحته فى الامساك بزمام الموقف داخل تونس قبل أى شئ .

لقد ساعد المستنصر على نجاح سياسته هذه حاشيته المقربة منه، وعلى رأسها ابن عمه أبو يحيى زكريا بن أحمد وولده وولى عهده[٢] المؤيد بالله أبو زكريا يحيى بن المستنصر . فكان هذا الاستقرار الذى نعمت به تونس من أهم العوامل التى اطمعت فيها الفرنج فى الوقت الذى كان فيه بقية المغرب الإسلامى مسرحا للفوضى والفتن والاضطرابات التى لا أول لها ولا آخر.

أما عن أحوال مصر قلب العروبة والإسلام آنذاك ففى الواقع أن تونس استمدت سطوتها من الاستقرار الذى تمتعت به مصر على عهد الظاهر بيبرس الذى أرهب غرب أوروبا بتلك الهزيمة التى أنزلها بالمغول فى موقعة عين جالوت الشهيرة عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م. فقد أزعج المغول العالم بشقيه المسيحى والإسلامى، وأعتبر بيبرس عداءه معهم أمرا يجب أن يقدم فيه كل ما يستطيع . فقد نالوا من الإسلام وحضارة المسلمين. ولذا قام بدوره فى مجابهتهم والتصدى لهم وهيأ لمصر من جديد دور الزعامة الدينى والسياسى فى المشرق الإسلامى.[٣] هذا ، فى الوقت الذى كان يوجه فيه أشد الضربات الى باقى المعاقل الصليبية فى بلاد الشام. ولم يتورع بيبرس عن عقد صداقات عديدة جعلها جميعا لصالح الجبهة

١- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٢٧ .

٢- ابن رسول : نزهة العيون ، ج١ ، ورقة ٤٦٤ .

٣- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ورقة ١٢٥٢-١٢٦٠ القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد بن عبدالله) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا- ١٤ ج، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠م، ج١٤ ، ص١٣٩ .

الإسلامية[١]، واستعرض من خلالها قوته السياسية والعسكرية على أصدقائه من الفرنج . فيذكر ابن الفرات أنه قدم إليه ذات مرة شارل[٢] أخو لويس التاسع يطلب منه الشفاعة فى افرنج عكا الساحلية . وكان بيبرس موجودا بجزيرة الروضة ، جالسا فوق الأخشاب . فذهل رسول شارل لما رأى من صناعة للسفن والشوانى وأدرك خطورة مصر العسكرية آنذاك . وكان شارل هذا قد راسل بيبرس من قبل يبشره بفرحته بالانتصار على مانفرد Manferd ابن الامبراطور الألمانى فردريك الثانى صاحب صقلية وأنه تمكن فعلا من الاستيلاء على صقلية[٣]. وترجع قصة الصراع بين مانفرد وشارل حين قام مانفرد الابن الغير شرعى للامبراطور فردريك بعزل الطفل كنرادين الملك الاسمى لصقلية وبيت المقدس من الحكم وحل هو مكانه . وقد حاز مانفرد آنذاك قدرا كبيرا بما اشتهر به أبوه من الغطرسة ، ولقى من البابوية كراهية كبيرة مثلما لقى أبوه . وأخذ البابوات يسعون للبحث عن أمير جديد لعرش صقلية التى خضعت عرفا وتقليدا لسيادتهم . وعثر البابوات على ضالتهم فى شارل كونت انجو وقد اقتنع أخيه لويس التاسع ملك فرنسا بهذه الخطوة ، ورحب باستئصال شأفة آل الهوهنشتاوفن الألمان من صقلية كخطوة تمهيدية لضمان نجاح أى خطوة عسكرية يقوم بها مستقبلا . وفعلا فى عام ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ تقدم شارل بمساعدة لويس الى ايطالية وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله، وأضحت صقلية وجنوب ايطالية فى حوزة شارل. الذى سعد كثيرا بهذا الخطوة، فبادر بالاسراع لابلاغ بيبرس بها مما يدل على التقارب بينهما.

وعلى أى الأحوال، فقد تمكن بيبرس من جراء هذه الصداقات أن يكون على بينه دائما بأخبار أهل الغرب اللاتينى، مما هيأ له فرصة الاستعداد والتيقظ ، بالإضافة إلى أن هذه الصداقات كانت فرصة لاستعراض قوته العسكرية، الأمر الذى جعلهم يفكرون مرارا قبل أن يقصدوا مصر . ولم تمنعه هذه الصداقات أبدا من توجيه الضربات القاسية ضدهم فى بلاد

١- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج١٢ ، ص٣٦ .

٢- كان يقال له رى جار وجارلا وأحيانا شارل، والمقصود بذلك شارل صاحب انجو أنظر:

Reinaud , M. , extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Gueres des Croisades, Paris, 1829, p. 516 .

٣- Matthew of Westminster , the flowers of History, 2 vols , London , 1853, vol . II, p. 445 .

الشام، وتمكن من استرجاع انطاكية وقيسارية ويافا وأرسوف [١]. ولم يغفل في خضم هذه الأحداث دور الأرمن في مساندة الفرنج ، وموقفهم الخطير من المسلمين لصالح المغول . فبدأ بارسال سفارة إلى ملكهم هيثوم Hethoum يطلب منه دفع الجزية للمسلمين ، فلما رفض هيثوم ذلك دارت معركة ضارية بينهم وبين بيبرس ، تمكن فيها من الانتصار عليهم وأسر أماليو Amaleo ابن هيثوم. وأعمل المسلمون فى بلادهم الخراب والتدمير ما يقرب من عشرين يوما . وغدت مملكة أرمينيا نهبا مباحا أمام المسلمين الذين هاجموا المصيصة وأذنة وأباس وطرسوس كما أصاب مدينة سيس العاصمة الكثير من الهدم والتخريب. كذلك هدمت بعض القلاع التابعة للداوية إلى أن اضطر هيثوم فى النهاية بعد فشله فى الحصول على حليف له، إلى طلب الصفح من بيبرس عن ولده أماليو مقابل الفدية، وتسليم عدد من المدن والقلاع إليه. فرد عليه بيبرس قائلا: «إن نحن مالنا رغبة فى الأموال والمدن وغيرها وإنما لنا شخص صديق أسير عند المغول يسمى سنقر الأشقر تخلصه وتسيره وتأخذ ولدك ». وفعلا فعل هثيوم ذلك وتسلم ابنه عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م [٢]. وبهذا تفرغ بيبرس للمسؤليات التى ألقيت على كاهل المسلمين بحملة لويس على تونس . وحتى يكون قادرا على اظهار دور مصر ، باعتبارها قلب العروبة والإسلام، تجاه تونس فإنه لم يبخل بأى جهد أو مساعدات مادية أو عسكرية لتونس لما فى ذلك من تقوية للجبهة الإسلامية كلها سواء فى المشرق أو المغرب [٣].

ويجدر بنا بعد أن تعرضنا لأحوال العالم الإسلامى وبلاد المغرب بصفة عامة وتونس خاصة، أن نلقى الضوء على أحوال غرب أوروبا بعامة وفرنسا على وجه الخصوص لأهمية ذلك بالنسبة لموضوع البحث.

إن فكرة غزو اللاتين لتونس ليست فى حقيقة الأمر بالفكرة الجديدة على أوروبا . فقد مرت هذه الفكرة بمراحل عديدة إلى أن تبلورت أهدافها وترجمت فى شكل العديد من الحملات كان لفرنسا منها نصيب الأسد. فقد كان الاعتقاد السائد لدى غرب أوروبا آنذاك أن امتلاك بيت المقدس من جديد لن يتأتى إلا بعد استئصال شأفة مصر رأس الأفعى ، تلك العبارة التى

١- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص١١٢٣، المقريزى: السوك ، ج١، ق٢، ص٥٦٧ .

٢- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٩٨-٤٩٩ .

٣- سأتناول بالتفصيل موقف بيبرس من حملة لويس على تونس فى الفصل الثالث.

قالها رويرت كونت ارتوا أثناء حملة لويس التاسع الصليبية فى مصر . ولكن المسيرة نحو مصر أصبحت أشبه بذكرى أليمة كان الغرب يتمنى أن ينساها .

لذا كان لابد من البحث عن طريق غير مباشر يؤدى إلى نفس النتيجة، فكانت تونس فى الشمال الأفريقى. ولم يكن تزعم فرنسا لفكرة الحملة الجديدة نحو تونس أمرا جديدا بالنسبة للأوروبيين ، بل كان عاديا أن تكون فرنسا هى أكثر الدول تحمسا لهذا الغرض. فمن فرنسا خرجت أول صرخة ضد المسلمين عام ١٠٩٥م من كليرمونت أيام البابا اربان الثانى ، وكليرمونت مدينة فرنسية والبابا فرنسي الأصل، وكان أول راهب انخرط فى سلك الحملة الصليبية الأولى هو بطرس الناسك الفرنسى . أضف إلى هذا دور جد لويس التاسع فيليب أغسطس أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة. وإن نسينا فلا ينبغى أن ننسى حملات لويس التاسع الثلاث ضد العالم العربى الإسلامى. ومع ذلك يجب ألايغيب عن البال أن الحركة الصليبية من صميمها عبارة عن حملات جامعة قام بها الغرب الأوروبى من أقصاه إلى أقصاه ضد العالم العربى الإسلامى بأجمعه ، وإن مساهمة أى دولة من دول الغرب فى أى حملة من الحملات كان يتوقف على ظروفها من سياسية واقتصادية واجتماعية السائدة وقت قيام حملة ما. ولما كانت فرنسا تتمتع بظروف أكثر استقرار، وبخاصة اعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادى/ القرن السابع الهجرى ، ولذا كان اسهامها فى الحركة الصليبية واضحا ومميزا ، بل أن بعض الحملات مثل حملة لويس التاسع كانت فرنسية الصبغة والطابع . لقد أعطى هذا لفرنسا دور الزعامة على ما عداها من دول الغرب لتبنى الفكرة الصليبية. واستمر هذا الوضع قائما حتى نهاية الحروب الصليبية المتأخرة فى أخريات القرن الرابع عشر الميلادى (أواخر القرن الثامن الهجرى) .

ويروى ابن خلدون حقائق هامة عن فرنسا تؤكد زعامتها فى الحركة الصليبية ، منها «أن افرنسة أمة عظيمة من أعظم دولهم يعنى دول الغرب وقد استفحل أمرهم بعد الروم وصدرا من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد الشرق من ناحيتها وتغلبوا على جزر البحر الرومى... ثم سموا إلى ملك ما وراء البحر من أفريقيا وبلاد الشام والاستيلاء على بيت

١- جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص٤٥، ٣٦٣ .

المقدس، وطال ترددهم فى ذلك ... وكان ملكها يقصد لويس التاسع من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه رى الافرنسى[١] ومعنى رى في لغتهم ملك افرنس[٢].

أما ابن واصل فيتعرض للويس قائلا «وكان هذا ريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأسا، وافرنس هى أمة من الفرنج»[٣]. وجاء فى أبى المحاسن «أن لويس كان من أجل ملوك الفرنج وأعظمهم قدرا وأكثرهم عساكرا، وأوسعهم بلادا وأكثرهم أموالا»[٤]. وكتب العمرى يقول «إنه من أجل ملوك الفرنج قدرا ... وهو عريق النسب فى الملك القديم والمملكة المأخوذة عن السلف ... وله مدن كثيرة عامرة وعساكر كثيرة وافرة »، كما جاء فى موضع آخر من كتابه أن لويس «ملك جليل.. ليس فى ملوك الفرنجة أعرق منه نسبا ولا أرسخ فى العليا أصلا»[٥].

ورغم كل هذه الأدلة القوية التى تظهر أهمية فرنسا السياسية والعسكرية بين بقية بلدان الغرب، وزعامتها للحركة الصليبية على ما عداها من الدول، وسعيها الدائب لانجاح أى دعوة صليبية ضد الإسلام، إلا أن هذا لايمنع أن لكل جواد كبوة ، والكبوة التى مرت بها فرنسا ابان الحملة كانت ممثلة فى العديد من المشاكل السياسية والاقتصادية والمذهبية داخل فرنسا نفسها . ففى أثناء غياب لويس التاسع عن بلاده فى حملته ضد مصر كانت القائمة بشئون الحكم هى أمه الملكة بلانش القشتالية [٦]. وقد وصلت الأنباء إلى لويس بعد فك أسره من مصر ورحيله إلى بلاد الشام بوفاة والدته وكان ذلك فى أوائل عام ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ . ويقول

١- رى الافرنس هى إحدى التسميات التى أطلقت على لويس، ومنها أيضا بواش ، وريد افرنس ، وللمزيد عن هذه التسميات أنظر جوزيف نسيم العدوان الصليبى على مصر، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص٧٧ ، ٣٠٠ .

٢- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥ ، ص١٨٣ ، ٢٥٩ .

٣- ابن واصل (جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم) : مفرج الكروب فى بنى أيوب، ٢ج ، تصوير شمسى (مخطوط)، لوحة ٣٥٠ (ب) .

٤- أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج١، ورقة ٣٥٨ أ.

٥- العمرى (شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل) : مشاهير ممالك الفرنج، ص٢٠٢ .

٦- Joinville, Jean de , Histoire de Saint lois , texte original du XI ve . Siécle accompgné dune tranduction en Francais moderne par M. Natalis de Wailly, Paris , 1874 , p. 331 .

جوانفيل أن لويس قد تأثر كثيرا بهذا الخبر، وأن ذلك أثر على معنوياته وعلى جميع خططه بالأراضي المقدسة (١). فقد كان أمن فرنسا وسلامتها أمام جميع المخاطر لايعني شيئا بالنسبة للويس، طالما زمام الموقف بيد أمه. ولكن بعد وفاتها شعر بالأخطار التي أصبحت تهدد البلاد، وخاصة من قبل جارته انجلترا والنبلاء الاقطاعيين. وأدرك أن بقاءه بعيدا عن بلاده سيكون له أسوأ العواقب على سلامة فرنسا وأمنها. فقد وصلته الأنباء بتفجر الحروب الأهلية داخل البلاد، وازدياد مطامع الشخصيات الكبرى في الحكم، وأضحت فرنسا نهبا للصراع والتنافس بين شقيقي لويس شارل كونت انجو والفونس كونت بواتييه. هذا، بالإضافة إلى تفجر الأزمات السياسية الخارجية القديمة بين انجلترا وفرنسا. فقد انتهز ملك انجلترا هنري الثالث هذه الفرصة، وقدم إلى فرنسا محاولا اثارة المؤامرات والدسائس ضد ملكها الغائب عنها، وذلك بتفجير الصراع من جديد داخل مقاطعات نورمانديا وجاسكونيا وبواتييه، مستغلا في ذلك المرض الشديد الذي ألم بالفونس كونت بواتييه وفشل سيمون دي مونتفرات حاكم جاسكونيا في قمع الاضطرابات داخل بلاده.. ولم تكن نوايا هنري خافية على كبار القادة الفرنسيين آنذاك. فالكل يعلم أن اتفاقية السلم المعقودة بين البلدين قد أوشكت على الانتهاء، مما زعزع من ثقة فرنسا بنفسها في كبح جماح انجلترا والتصدي لنزعتها العدائية المتأصلة ضد فرنسا منذ أيام أجداد لويس التاسع(٢). أضف إلى ذلك السياسة العدائية المتأصلة بين كل من البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤١م- ١٢٥٢م) والامبراطورية البيزنطية، والتي أثرت بصورة أو بأخرى على ازدياد الأحوال سوءا داخل فرنسا (٣). ولذا لم يكن أمام لويس خيار في أمر البقاء ببلاد الشام أو الرحيل. فقد رجحت كفة رحيله عنها ومثلت أمام عينيه الذكريات الأليمة التي مر بها في مصر(٤)، والآمال العريضة التي ذهبت هباء دون

١- جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص٢٤١ .

٢- Nangis , Guillaume de, Vita Sancti Ludoivice regis Franciae , Ed. R. H. G.F., t. xx, p. 389 ; cf . also : kitchen, A History of France , vol , I, oxford, 1968 , p. 347 .

٣- Bray . A. The Good St. Louis and his times, London , 1870, p. 292 .

٤- المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٨٧، أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج٢ ، ص٣٥٩ ، ابن رسول: نزهة العيون ، ج٢ ، ص١٩٨-١٩٩ .

أن يتمكن من تحقيق أى منها[1] لا فى مصر ولا فى بلاد الشام، خاصة بعد أن أصبحت بلاد الشام هى الأخرى مرتعا خصبا للمشاحنات والفتن بين الصليبيين وبعضهم البعض. وضاعت الكلمة الموحدة وضاع الأمل فى جمع الشمل من جديد، وتكوين جبهة قوية بين افرنج الشرق. هذا، فى الوقت الذى بدأت فيه أوروبا تتصرف تدريجيا عن مساعدة الكيان اللاتينى المتداعى فى الشرق بسبب انغماسها فى مشاغلها الخاصة، يضاف إلى ما تقدم أن من بين الأسباب التى عجلت برحيل لويس إلى فرنسا ذلك الخطر الجاثم أمامه والمقصود به التتار، خاصة بعد أن فشلت كل محاولاته السلمية لعمل على استمالتهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى، والقيام بعمل مشترك ضد المسلمين . وكانت تلك هى سياسة البابوية بصفة عامة منذ أيام البابا انوسنت الرابع اعتبارا من أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) . لقد أضحى التتار شبحا يهدد العالم بشقيه المسيحى والإسلامى ، وتعامل خان التتار مع لويس والبابوية بمنتهى الحكمة والذكاء، وترك لهم العنان فى مصر. حتى تنشغل مصر عن الخلافة العباسية فى بغداد التى كانت فى طور الانهيار إلى أن أتى عليها التتار. وقد ظل التتار مصدر رعب بالنسبة للويس التاسع فترة من الزمن . وعلى الرغم من الضربة القاضية التى وجهها بيبرس إليهم فى عين جالوت، إلا أن النتائج التى ترتبت على ذلك تركت آثارها على أوروبا بصفة عامة وفرنسا بوجه خاص. فيذكر المؤرخ رينو «أنه على الرغم من زعزعة وانهيار قوة التتار على يدى بيبرس ، إلا أنه قامت صداقة بينهما بعد ذلك. وقام بيبرس بالاشتراك مع بوركيه خان كابتشاك ، بعمل موحد ضد مغول بلاد فارس، وأرسل لهم فعلا أسطولا ضخما وشاركهم فى هذه المهمة العديد من أمراء أوروبا إما طوعا أو كرها. وقد واجهت هذا الأسطول عاصفة قوية أتت على معظم سفنه ، وما تبقى منه رسا فى ميناء عكا[4].

١- Archer , T. A. & Kingsford, the Crusades, London , 1919, p. 401 .

٢- كابتشاك : مدينة تقع على البحر الأسود أنظر : Reinaud , p. 516 .

٣- لم يتسن لنا معرفة تاريخ هذا التحالف الذى تم بين بيبرس ومغول كابتشاك ضد مغول فارس.

٤- كانت امبراطورية التتار مفككة ومقسمة وظلت هكذا حتى عام ١٢٧٠م/ ٦٦٨هـ . فكان خانات التتار فى كابتشاك يدينون بالولاء لسيد آخر غير ذلك الفارس فى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ، وكان البعض الآخر من التتار لاتربطهم علاقات محددة مع حاكم آسيا الصغرى الفارسى خاصة بعد موقعة عين جالوت الشهيرة . انظر عن ذلك ، وللمزيد من التفاصيل عن التتار فى هذه الفترة : =

وعلى الرغم مما فى هذه الرواية من مبالغة ، إلا أننا لانستبعد أى محاولة يقوم بها التتار التقرب من بيبرس بعد تلك الضربة القاصمة التى وجهها إليهم فى وقت كانت مصر فى أوج قوتها ومركز الثقل فى الصراعات القائمة يميل بوضوح إلى جانبها . وليس من الغريب أن يلبى بيبرس نداء التتار. فكما سبق القول لم يكن بيبرس مستاءا من عقد صداقات مع أعدائه طالما أن ذلك لن يكون على حساب الجبهة الإسلامية بل لمصلحتها وقد ضربنا أمثلة على ذلك . ولذا فربما لجأ إلى نفس الأسلوب مع خان التتار حتى يقربه من الاسلام ويحببه فيه ، خاصة وأن المناظرات كانت قائمة على قدم وساق فى بلاط خان التتار بين المسلمين والنساطرة ، والكاثوليك واليهود وقد أتت جهود بيبرس ثمارها واعتنق التتار الإسلام فى نهاية الأمر[1]، وبذلك أمن شرهم وركز اهتمامه على استئصال شأفة الفرنج من بلاد الشام أما انخراط العديد من أمراء وحكام أوروبا مع بوركيه خان كابتشاك، فهذا مرجعه إلى حالة الرعب التى عاشوا فى ظلها فترة غير قصيرة من الزمن عندما كان التتار يهددون دول الغرب ، والذكريا الأليمة التى تركها التتار فى نفوس الجميع فلم يمتنع أحد عن تلبية نداءهم.

أما العلاقات بين روما والقسطنطينية ، وبكلمة أدق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فقد كانت خلال الفترة التى وجهت فيها الحملة إلى تونس سيئة للغاية. إذ ازداد العداء بين اللاتين الكاثوليك والاغريق الأرثوذكس ، واتخذ مظاهر عديدة من العنف ما جعله وصمة عار لكلا الكنيستين ، وقصة غير مشرفة للعالم المسيحي أجمع [2]. وكما أكد أحد المؤرخين الغربين الحديثين وهو ستيفن رانسيمان فى مؤلفه عن «الحضارة البيزنطية»[3]، أن هذه الخلافات المذهبية المتفاقمة بين شقى العالم المسيحى قد حالت بين كل من روما والقسطنطينية وبين

Reinaud , p. 516 ; Deguignes, Histoire generale des Huns, des Turcs , des Mongols et = des autres tartares Paris, 1756-8 , vol . III, pp. 527; Howorth, H., History of Mongols, London, 1876-1927 , vol . IV., pp. 93-4 .

١- Atiya, A.S. Crusade in the Later Middel Ages, London 1934, p. 256 ; Arnold, T.W, Preaching of Islam, London, 1935, p. 219 ; Conder , C.R, Latin kingdom of Jerusalem , London, 1897 , p. 366 .

٢- جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٣٠٥ .

٣- Runciman, S., Byzantine Civlization , London 1948, pp. 124-8 .

تقديم أي عون إيجابى للملك لويس التاسع حين كان يستعد للقيام بحملته ضد تونس. فلم تكن بيزنطة إذن مستعدة للمساهدة فى حملة صليبية جديدة لأن العلاقات بينها وبين مسيحيى غرب أوروبا كان يسودها الفتور والكراهية بوجه عام. ولم ينس البيزنطيون ما فعله الصليبيون بهم فى الحملة الصليبية الرابعة عام (١٢٠٤م / ٦٠١هـ) تلك الحملة التى فشلت فى تحقيق أهدافها سوى سلب القسطنطينية ونهبها بعد أن تأسست امبراطورية لاتينية بها. وقد أدى ذلك إلى اتساع شقة الصراع والبغضاء بين شقى العالم المسيحى. وعانى اللاتين فى القسطنطينية الأمرين، خاصة بعد أن قامت حكومات بيزنطيه فى المنفى سواء فى نيقية فى آسيا الصغرى أو فى طرابيزون على البحر الأسود أو فى شبه جزيرة البليبونيز فى ظل هذه الظروف التي كان يمر بها العالم الأوروبى لم يكن من السهل على لويس التاسع توجيه الاهتمام إلى مملكة اللاتين فى القسطنطينية قبل استرداد البيزنطيين ملكهم الضائع ولكنه اعتبرها جزءا لايتجزأ من كيانهم فى بلاد الشام. وقد واتته الفرصة حين اشتدت الخلافات بين حاكمى طرابيزون ونيقيه المتنافسين إلى مناصرة كومنين العظيم Comnène على يوحنا فاتاس John Fatas الذى كثيرا ما أزعج اللاتين بالقسطنطينية. وعلى الرغم من أن تلك الخطوة قد شدت أزر طرابيزون ضد نيقيه ، إلا أن الصراع استمر طويلا بينهما إلى أن تمكن الامبراطور ميخائيل بليولوجس Michael Piliologos من وضع حد نهاية لهذا الصراع فى عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ[١]. وهكذا فقد لويس الأمل نهائيا فى مساعدة بيزنطة له وهو يستعد لتوجيه حملته ضد تونس.

أما أحوال الكيان الصليبى المتداعى ببلاد الشام أثناء اقامة لويس فى الشرق فلم تكن أحسن مما كانت عليه في غرب أوروبا. فقد استشرى الفساد والشرور والتمزق بين كافة الطوائف المسيحية هناك لدرجة أنه فقد حماسه فى البقاء فى الأرض المقدسة وفكر فى العودة إلى بلاده وقد شجعه على ذلك وفاة أمه بلانش حسبما أسلفنا [٢]. فاجتمع بمجلسه

١- Joinville, pp. 272-274 ; Cf . also : Guizot, M. , St. Louis, London 1809, p. 135 .

وأيضا : جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية، ١٩٨٣، ص١١١، ٢٥٨ ، مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٥ .

٢- Nangis, Vie de Saint Louis, p. 839 ; Cf. also ; Archer and Kingsford, p. 410 .

الاستشارى وعرض عليه الأمر، وذكر أن الواجب يحتم عليه العودة إلى بلاده بعد أن قدم للقضية الصليبية كل ما أملاه عليه ضميره واخلاصه لها. ومن الغريب أنه وسط هذا الضياع والتمزق ، وفى معمعة هذه الحالة المتردية التى وصلت إليها الفكرة الصليبية ، يذكر رينو «أنه أثناء اجتماع لويس بمستشاريه فى ميناء عكا قبل الرحيل أعلن عن نيته فى القيام بحملة صليبية جديدة ضد ديار الإسلام، وأنه أبلغ فعلا مندوب البابا بمدينة يافا عن رغبته تلك، وطلب منه أن يبلغ كل امراء الغرب بانتظار صدور اعلان رسمى لاخراج هذه الفكرة إلى حيز الواقع، وأن تبلغ كل الكنائس بذلك»[1].

وهنا لابد لنا من توخى الحذر فى قبول هذه الرواية. فالواقع أن حالة أوروبا بشقيها وافرنج الشرق كانت تدعو إلى اليأس والقنوط. وأصبحت الفكرة الصليبية أشبه بمغامرة فاشلة وقضية خاسرة با لنسبة لهم. وكان صوت العقل أنذاك لايمكن أن يملى عليهم بفكرة أفضل من محاولة رأب الصدع أولا لا الدعوى لحرب جديدة [2]. فقد شاب الفتور التام الفكرة الصليبية آنذاك إلى أن تقلصت وانكمشت ، وبدأ الناس فى الغرب ينفضون من حولها ويتشككون فى جدواها وقائدتها بعد أن فقدت أوروبا زهرة شبابها فوق أرض المعركة بين قتيل وأسير وجريح . وازداد الشعور بالمرارة والحقد ضد المنادين باحياء الفكرة الصليبية فى الغرب، وأصبح الرأى العام المعاد للحرب ضد العرب أشبه بسريان تيار قوى بين الغرب، فكان هذا سندا قويا لموقف العرب فى الدفاع عن قضيتهم[3]. ومما يؤيد ذلك أن فكرة الاعداد للحملة التاسعة والأخيرة ظهرت بعد الاجتماع الذى عقده لويس بحوالى اثنين وعشرين عاما، أى بعد أن رأب لويس الصدع الذى أحاط ببلاده ، وبعد أن استردت أوروبا أنفاسها اللاهثة بعض الشئ والحقيقة التى لايمكن أن نغفلها أن رينو ربما قصد من روايته هذه أن لويس كانت تحدوه فقط الآمال العراض بحملة جديدة ضد المسلمين لمحو عار الهزيمة التى منى بها فى الشرق الأدنى الإسلامى. ولكن رينو بالغ فى التوقيت للدعوة لهذه الحملة. ومما يؤكد هذا الرأى أن لويس كما

١- Reinaud, p. 517 .

٢- مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤١ .

٣- العدوان الصليبى والرأى العام الغربى، مقال للدكتور جوزيف نسيم من سلسلة المحاضرات العامة، الاسكندرية ١٩٦٨، ص٥٢ .

يقول مونروند لم تزده المحن إلا كراهية ورغبة في الانتقام من المسلمين ولم تقض أبدا على روح الجهاد ضدهم. فقد كان لويس أشبه في عدائه لهم بقطعة الذهب التي مهما مرت عليها الأيام فلن تتغير ولن تضعف »[1]. ولعل ذلك يرجع إلى تلك التنشئة الدينية المتمزمتة التي انشأته عليها أمه بلانش منذ نعومة أظافره ، حينما كانت تقول له أنه أهون عليها أن يموت من أن يقترف اثما يغضب الله[2]. ولقد انعكست عليه هذه التربية وسيطرت على حواسه ومشاعره، وتركت آثارها بشكل أو بآخر على مشاريعه وتصرفاته وما يهمنا في هذا الأمر أنه بعودة لويس إلى فرنسا في أوائل عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ تمكن من فرض سيطرته على البلاد ورفع الآلام عن شعبه ، وأزال المحن وقضى على الاضطرابات والصراعات المذهبية التي تفاقم خطرها عن فترة غيابه. يقول جوانفيل «لقد عاد لويس إلى بلاده ، وحفظ العدل لشعبه، وكنت أشاهده مرات عديدة في فصل الصيف حين كان يسمع القداس وحين كان يتجول ليروح عن نفسه. لم يمنع أحدا من شعبه مطلقا من أن يأتي إليه، ويلبي حاجته التي يعرضها عليه ، سواء كانت مساعدة أو حلا لمشكلة فكان يستمع لكل الشاكين ، وكان ينفق بسخاء على شعبه من المحتاجين ، سواء كانوا أرامل أو يتامى أو ممن تحتاج لنقود لزواجها »[3]. ولم يفعل لويس ذلك إلا عن نقاوة نفسه ورغبته الصادقة في أن يمحو عن فرنسا كل ما ألم بها من مرارة أثناء غيابه عنها . وهكذا بفضل حكمته وقدرته استقرت الأوضاع سريعا داخل بلاده[4]. ولكن لم يغب عن ذهنه ولا عن ملوك وأمراء أوروبا تلك القوة الإسلامية الآخذة في النمو والتي باتت تهدد بقايا الوجود الصليبي المتداعي في بلاد الشام ، خاصة ما فعله الظاهر بيبرس في يافا وقيسارية وانطاكية وأرسوف وغيرها من المدن التي سقطت تباعا وبسرعة في قبضته .

١- مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤١ .

٢- Joinville, pp.10-38, 49 ; Geoffroy de Beaulieu , Vita et Sancta conversatio Piae memoriae Ludovici noni regis Francorum, Cf. Michaud, Crois, VI , paris, 1822, p. 202; Guill. de Saint . Pathus . les Miracles de S. Louis , pp. 195-197 .

٣- Chronique Anonyme des rois de France, R.H.G.F., t xxi, p. 83.

وأيضا مونروند : الحروب المقدسة ، ج٢، ص٣٤٢ .

٤- أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ (أ) .

وأصبحت أحلام لويس وأوروبا ألعوبة سهلة فى أيدى بيبرس والمسلمين، لدرجة أن بيبرس أرسل إلى لويس رسالة بالغة الاستفزاز قال له فيها «أننا ملكنا انطاكية بالسيوف والجنود التى تركت قبل رحيلك . ولو حضرت وشاهدت قبور موتاك قد بقرت وقصورك وحصونك قد حرقت وحولت إلى دمار ، لصدمت من هول ما رأيت» (١). كان هذا الوصف لحال الصليبيين ببلاد الشام من العوامل الرئيسية التى جعلت من فرنسا المستقرة وقتها شيئًا أشبه بفوهة البركان التى تفجرت من أجل النداء لحملة جديدة ضد ديار الإسلام ، وكانت وجهتها تونس هذه المرة وقبل الاستطراد فى موضوع الحملة والدعاية والتبشير بها فى أوروبا لابد من استخلاص الأسباب التى أدت إليها، وهى أسباب عديدة متشابكة متداخلة فى بعضها متفاوتة التأثير ما بين رئيسية وثانوية مباشرة وغير مباشرة.

لم تكن حملة لويس على تونس ولادة قيصرية لمغامرة جديدة، بل هى فكرة قديمة نضجت ونمت على مر قرنين من الزمان ، وجسدت أهدافها فى العديد من الحملات كانت آخرها تلك الحملة ضد تونس. ولم تكن تونس هى بيت القصيد، بل كانت مصر هى مكمن الخطر والقوة الإسلامية التى أصبح الغرب يعمل لها ألف حساب. ولقد أدرك لويس وكبار ساسة أوروبا أن قصد مصر مرة أخرى وبصورة مباشرة مثلما حدث فى حملته الأولى عليها، من المؤكد أن نتائجها لن تكون أفضل من تجربته الأولى عام ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ . فقد تمكن المصريون وقتها من انزال هزيمة فادحة به وبرجاله على ضفاف النيل، (٢)، حين تم القبض عليه وأسر بدار ابن لقمان فى المنصورة ومعه جمع كبير من كبار قادته وشقيقاه شارل كونت انجو والفونس كونت بواتييه إلى أن تمكن من افتداء نفسه بأموال كثيرة ورحل عن مصر بعد أن سلم المصريين مدينة دمياط. وقد أهدرت بالفعل كرامة لويس، وتحطم كبرياؤه فسعى جاهدا للرحيل إلى بلاد الشام آملا فى جمع الشمل من جديد. فكان ذهابه إليها حملة متكاملة رغم عدم اتسامها بالطابع العسكرى، إلا أنها أخذت طابعا سياسيا اصلاحيا بعد أن فشلت جهوده فى قيام

١- موبروند : المرجع السابق ، ص٣٤٥ .

٢- أشار ابن القنفد إلى أن سلطان تونس آنذاك الأمير أبو زكريا الحفصى ، كان قد أرسل إلى صديقه صاحب مصر ، الصالح نجم الدين أيوب يعلمه بقدوم هذه الحملة ويعلن له عن أمنيته فى تقديم المعونة العسكرية ولكنه لم يتمكن من ذلك خوفا من عدوه صاحب صقلية المجاورة له وخوفا من أعراب أفريقيا . وللمزيد أنظر ابن القنفد ، الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية، ص١١٢ .

حملة عسكرية جديدة. ولولا موت والدته فجأة لربما أطال اقامته في بلاد الشام، محاولا اصلاح الفساد الذى استشرى بين الصليبيين هناك. ولكنه عاد مسرعا إلى فرنسا خاسرا كل شيء[١] نادما على ما فعل ، حزينا لما حل به وبكرامته ، وذلك وفقا لرواية مؤرخ سيرته جان دى جوانفيل[٢]. وهذا الفشل يعد من الأسباب النفسية التى هيأت الجو لقيامه بحملته الثالثة والأخيرة التى اختتمت بها الحروب الصليبية المبكرة. أضف إلى ذلك العامل عوامل سياسية أخرى من أهمها ما أشار إليه المؤرخ رينو من «أن لويس جمع بالفعل مجلسه الاستشارى وعرض عليه ضرورة قمع مصر كقوة سياسية خطيرة أصبحت تهدد أمن وسلامة الصليبيين فى بلاد الشام. وذكر أنه من المستحيل التوجه إليها مباشرة بعد تلك الضربة التى تلقاها على ضفاف النيل، واقترح ضرورة التوجه إلى تونس فى الشمال الأفريقى حتى يمكنه تطويق مصر برا وبحرا[٣]، حيث أن تونس له بها صديق حميم وهو المستنصر الحفصى الذى يبدى استعدادا دائما لصداقة قوية مع لويس . بل أنه وعد فى مرات عديدة بدخول المسيحية . ورغم أن هذا السبب يعد من جملة الأسباب الدينية للحملة ويعتبر فى نفس الوقت أحد أهداف الحركة الصليبية. وهو نشر المسيحية الغربية فى العالم العربى الإسلامى، إلا أننا نعتبره من أكبر الدوافع السياسية التى شجعت لويس على المضى قدما نحو تونس ، وقد أكد المقريزى ذلك، بل اتهم المستنصر بممالأة الفرنج قائلا «أنه لايحق لأن يلى أمور المسلمين»[٤]. يضاف

١- Rothelin , t. II, p. 609 ; Joinville , pp. 150-160; Reinaud, p. 517 ; Cf . also Guizot, St. Louis , pp. 135-136 .

أنظر أيضا : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٤ ، أبو المحاسن : المنهل الصافى ، ج٢ ، ورقة ٥٢٠، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج١١ ، لوحة ٣٧، ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار أفريقيا، ص١٢٨، الكتبى: فوات الوفيات، ج١، ص٨٥ . والملوك، ج١١ ، لوحة ٣٧ ، الكتبى : فوات الوفيات، ج١، ص١١٠ .

٢- لقد أفرد استاذى أ.د. جوزيف نسيم بحثين كاملين عن حملتى لويس التاسع على مصر وبلاد الشام، أنظر حملته على بلاد الشام، ص٥٥-٥٨ ، مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٤ .

٣- Nangis, p. 447 ; Reinaud, 517 .

وأيضا أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج٢ ، ورقة ٥٢٠ أ، الكتبى: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٤-٨٥، المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ ، ابن الفرات : تاريخ الدول، ج١ ، لوحة ٣٧ .

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ الحركة الصليبية ، جزءان القاهرة، ١٩٦٣، ج٢ ، ص١٢٣٨ .

إلى هذا سبب سياسى آخر لايمكن تجاهله ألا وهو الدور الذى لعبه شارل كونت انجو أخو لويس التاسع فى اقناعه بالتوجه إلى تونس . فقد أصبح شارل بعد أن ألحق الهزيمة بمانفرد ابن الامبراطور الألمانى فردريك الثانى[١]. ملكا على جنوب ايطاليا وصقلية ، وكان بنو حفص يدفعون جزية سنوية لمانفرد مقابل حماية تجارتهم بالجزيرة من قرصنة الصقليين. فلما اعتلى شارل عرش صقلية رفض المستنصر الاعتراف بحقوق شارل السياسيين وأعلنوا جميعا تمردهم على شارل[٢]، فكان ذلك سببا سياسيا حاسما فى قيام الحملة وتوجهها ضد تونس ، يضاف إلى ما تقدم أن شارل نجح فى اقناع أخيه بالتوجه إلى تونس تحقيقا لآماله العريضة بتوسيع أملاكه على حساب شمال أفريقيا، وتوسيع مجال تجارته فى حوض غربى البحر المتوسط. وفوق هذا وذاك ، فإن لويس بعد أن استشار مجلسه عن أفضل الاتجاهات التى تفتح الطريق إلى مصر، ذكروا أن تونس أفضلها ، لأن الطريق من سردينيا إلى تونس يستغرق ثلاثة أيام فقط، فى حين أن الطريق من سردينيا إلى مصر يستغرق ثلاثين يوما. ولذا رحب الملك الفرنسى لقرب بالمسافة بينها وبين مصر سواء بالبر أو بالبحر. وكان اختيار الفرنج لسردينيا بالذات لأنها تقع ضمن أملاك أخيه شارل وكان لويس قد عقد آمالا كبيرة عليه فى توطيد دعائم هذه الحملة.

وبناء على هذا، فإن فكرة اختيار تونس قد صاحبها العديد من المناقشات إلى أن استقر الأمر أخيرا عليها لموقعها الاستراتيجى الممتاز الذى يعد من أهم الأسباب الاقتصادية لهذه الحملة. فحينما بذل شارل كونت أنجو جهوده لاقناع أخيه بالتوجه إلى تونس، كان هذا نابعا من مصالحه الخاصة وأطماعه التجارية على ساحل شمال أفريقيا حسبما أسلفنا ، ورغبته فى توجيه الضربات ضد المغاربة الذين برعوا فى التجارة، وركوب البحر لدرجة أنهم نافسوا وبشدة التجار الفرنج فى صقلية، واستفحل خطرهم على أملاك الصليبين فى ايطاليا ، منذ أن استقلوا عن جسد الدولة الأموية ببلاد الشام، وسعوا جاهدين لتكوين أسطول بحرى عظيم بلغ ذروته فى القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر الميلاديين) [٣]. ويضيف نانجى قائلا

١- Nangis, p. 439 ; Cf. also : Guizot, St. Louis, p. 135 .

وأيضا حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

٢- مونروند: المرجع السابق، ج٢، ص٣٤٩ .

٣- السيد عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٨ وأيضا : Segor , Saint, Louis, pp. 155-157 .

«أن تجارة تونس أصبح باستطاعتها الوقوف على قدم المساواة مع تجارة الصليبيين عامة[١].
ولذا وجدنا شارل مليئا باللهفة نحو توسيع سلطته باخضاع سواحلهم وقمع تجارتهم[٢] وقد شجع العديد من القادة المسيحيين المنخرطين في سلك الحملة الملك لويس قائلين له «أن أخذ تونس سيعم الخير علينا جميعا ، فهي مليئة بالذهب والفضة والثروات الكثيرة»[٣]. وهذه اشارة واضحة تدل على الاستقرار الاقتصادى الذى كانت تتمتع به تونس آنذاك ، حتى أن أحد المؤرخين ذكر «أن تلك الحملة إنما جاءت لتكون سببا فى اتلاف الأموال الكثيرة التى تركها أبو زكريا لابنه المستنصر الذى اضطر أمام هذه الضغوط الصليبية إلى اخراج الأموال وانفاقها على الأجناد والحصون والأعراب استعدادا للقاء العدو»[٤]، مما كان له أسوأ الأثر على ظروف تونس الاقتصادية فيما بعد. وفيما يتعلق بالأسباب الاقتصادية لهذه الحملة، تلك الدوافع التى لايمكن تجاهلها ونحن فى صدد تحليل عوامل قيامها. يقول ابن خلدون «إن لويس لم يلتزم بالمعاهدة التى عقدها مع المصريين بعد فك أسره فى المنصورة [٥]، فعزم على التوجه إلى تونس متجنيا عليها ، وتعلل بأن بعض تجار الفرنج اشتكوا إليه بأنهم ذهبوا إلى المستنصر يشكون له أحد رجاله ويسمى «الليالى» وكان المستنصر قد قتل هذا الرجل[٦]، شكوا إليه بأن لهم لديه مبلغ ثلاثمائة دينار. ولم يكن معهم ما يستندون إليه، وطلبوا من المستنصر بأن يدفع لهم هذا المبلغ فرفض ، فشكوه إلى ملكهم الذى امتعض من المستنصر وعزم على غزو بلاده»[٧].

١– لقد نشطت تونس فى تصدير الحبوب والبخور وزيت الزيتون والشمع والحوت والملح والأقمشة والمرجان وبعض الأسلحة والجلود والصوف، وكانت تستورد بعض أنواع الطيور والبلور والخشب المصنوع والأسلحة والتوابل والعطور والكتان وغيرها، أنظر محمد مزالى : تاريخ افريقيا الشمالية، ص٩٩٦ .

٢– مونروند : الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص٣٤٩ .

٣– Nangis, pp. 478-479 .

٤– ابن أبى دينار: المؤنس فى تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ .

٥– حول التزام لويس بالمعاهدة من عدمه انظر جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر، ص٢١٥-٢١٨ ، العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٩٣ .

٦– ذكر أن هذا الرجل كان يعمل فى رتبة وزير زمن المستنصر الحفصى وقد أصدر حكما باعدامه ولم يتسن لنا معرفة سبب هذا، أنظر محمد مزالى والبشير بن سلامة: تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٨٠ .

٧– ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ .

وعلى الرغم من سطحية هذا الدافع وعدم امكان التسليم به ، لأنه من غير المعقول أن حادثا فرديا مثل هذا تعد له حملة كبيرة تشمل غرب أوروبا من أقصاه إلى أقصاه ، إلا أنه يلقى الضوء على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين تونس والغرب، والتي اتسمت بالطابع العدائى وشابها الفتور في بعض الأحيان. وكان هذا عاملا مساعدا للانتقام من التونسيين.

وإلى جانب ما تقدم ، يوجد العديد من الدوافع الدينية للحملة. فقد أجمع عدد غير قليل من المصادر الأجنبية على موضوع العرض الذى قدمه المستنصر للويس باعلان رغبته في ترك الاسلام ودخول المسيحية. فيذكر نانجي «أن ثمة مراسلات وسفارات متبادلة بين ملك تونس ولويس، كان المستنصر يعرض فيها ميوله الصادقة تجاه المسيحية ، ورغبته فى ترك الديانة المحمدية ، لدرجة أنه عندما توجه لويس إلى تونس لم يكن لديه أدنى شك فى أن سيوفق فى ادخاله في المسيحية»[١].

وفعلا بدأ حلم لويس يكبر ، وأخذ يتصور نفسه وهو ينشر الدين المسيحى فى شمال أفريقيا. ومما زاد من تصوره هذا تلك المعاملة الطيبة التى كان يبديها المستنصر تجاه المسيحيين لدرجة أن لويس كان يحدث نفسه قائلا «حتى لو لم أتمكن من نشر المسيحية في تونس، فسيكون لى الحظ في جمع محاصيل هذا البلد مع بداية شهر أغسطس القادم»[٢] ولم يكف لويس عن التمنى والدعاء فى كل صلواته لتحقيق هذه الأمنية التى كانت تجيش فى صدره . وكان دائما يبتهل إلى الرب قائلا «أيها الرب أننى أعتقد فى هذه المرة حين ذهابى إلى تونس سأكون الصديق والأخ والحليف وإنى سأقوم بهذا العمل بتلك الارادة العليا»[٣].

١- Nangis , p. 478 ; Michaud ., Crois VI . p. 202 ; Cf . also Hassall , France , p. p. 38 ; Archer and kingsford, p . 40 ; Guizot , St . Louis , pp. 135-136 ; Miller , Hist . , t. II pp. 43-44 .

٢- أغسطس ١٢٧٠م / محرم ٦٦٩هـ، هو نفس الشهر الذى شهدت فيه الحملة أسوأ مراحلها على أرض تونس بعد تفشى الوباء فى الجيش، وهذا ما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد.

٣- Nangis, p. 477 ; Michaud, p. 202 .

وهكذا تمكن لويس من اقناع الجميع بأن الذهاب إلى تونس فيه ارضاء للسيد المسيح بادخال شعبها فى المسيحية على المذهب الرومانى الغربى. ولكن إن كان هذا صحيحا فلماذا طلب المستنصر من الظاهر بيبرس سرعة ارسال المساعدات لدفع قوات لويس(١)؟ ولماذا أخرج المستنصر كل ما لديه من أموال وعتاد استعدادا لملاقاة هذا العدو(٢)؟ ولماذا تحرش المستنصر بالتجار المسيحيين فى بلاده ورفض أن يرجع لهم أموالهم(٣)؟ ولماذا تحدى شارل كوت انجو ورفض دفع الجزية له كما كان يدفعها لآل هونشتاوفن(٤) من قبل ؟ ولماذا يظهر الضعف والخزى وتونس تعيش عصرها الذهبى على عهده وفى ظل هذا الاستقرار يمكنها مواجهة العدو(٥)؟ وفى الواقع لو تمكنا من الاجابة بحيدة كاملة على هذه التساؤلات ، سنجد أن كل هذه الأقاويل التى نسبت إلى المستنصر ما هى إلا أقاويل جانبها الصواب ، وأن هذه التساؤلات التى طرحناها تحمل بين طياتها الاجابة عليها .

حقيقة لقد أيدهم فى هذا الرأى أحد المؤرخين المسلمين القدامى وهو المقريزى، حين اتهم المستنصر بأنه لايحق له أن يلى أمور المسلمين. ولكن هذا لايعتبر سندا أو دليلا يؤكد ما ورد فى المصادر اللاتينية بهذا الخصوص.

ولاشك أن هذه الادعاءات لاتتعدى مجرد صداقات عقدها المستنصر مع لويس تحقيقا للمصالح المشتركة، شأنه فى ذلك شأن الملك الكامل محمد ومن بعده الظاهر بيبرس. فهل اتهم أحد منهم بيبرس أو الكامل محمد بمثل هذا الأمر. أن مثل هذا الأمر لم يحدث لأن بيبرس والمستنصر لم يعملا إلا لصالح الجبهة الإسلامية.

ولكن يجب ألا نغفل عن ذهننا ما تميز به المستنصر من دهاء وخبث مع أعدائه ، فصداقته ووعوده مع لويس كانت تحمل فى طياتها معان أخرى وهى أنه كان يتمنى فى قرارة نفسه أن

١- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ .

٢- ابن أبى دينار : المؤنس فى تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ .

٣- محمد الحبيب : لب التاريخ، ص٢١٤ .

٤- Nangis, p. 439 .

وأيضا محمد مزالى: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨٠ .

٥- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ .

ينجح فى ممالأة عدوه بالخارج حتى لايفتح على نفسه جبهة معادية جديدة بالإضافة إلى خصومه بالداخل وهم ورثة الموحدين من بنى مرين وبنى عبد الواد، وعربان افريقيا بالإضافة إلى عدو آخر وهو شارل صاحب صقلية، فمن خلال هذه الصداقة نجح المستنصر فى أن يمسك العصا من منتصفها وأظهر نفسه صديق للجميع فى حين أنه لم يكن يعمل إلا لمصلحته الذاتية فى أن يحافظ على حكمه وسلطانه على تونس .

وفى هذا الصدد يجب ألا ننسى المحادثة التى تمت بين لويس التاسع وبين مؤرخ سيرته جوانفيل أثناء حملته على مصر فيشير جوانفيل أنه بعد اغتيال سلطانهم تورانشاه ؟ اقترحوا فى اجتماع لهم أن يهبوا عرش السلطنة المصرية للملك لويس التاسع، وأن هذا الاقتراح لم يحل دون الموافقة عليه إلا وثوق هؤلاء الأمراء من أن الملك الفرنسى لن يقبل ذلك العرض لأنه لن يرضى أن يرتد عن دينه، وأنهم إذا جعلوه سلطانا عليهم فاما أن يرغمهم على اعتناق المسيحية وإما أن يقضى عليهم. يقول جوانفيل فى هذا الصدد : «سألنى الملك ذات يوم عما إذا كان من رأيى ، إذا عرضت عليه مملكة مصر أن يقبلها ، فأجبت أنه لو قبلها لأرتكب خطأ كبيرا بعدما رآهم يقتلون ولى نعمتهم يقصد المعظم تورانشاه. وقال لى الملك أنهم لو عرضوها على لقبلتها دون تردد»[١]. ويتضح من العبارة السابقة، على الرغم مما فيها من مبالغة، إذ لايعقل أن يقبل المصريون لحكمهم إلا رجلا مسلما مصريا. يتضح منها أن الهدف الرئيسى الذى كان يحرك لويس فى كل حملاته وفى أحلام يقظته هو نشر المسيحية الغربية بين المسلمين، إلى جانب التوسع والاستعمار وجميعها أقاويل غير معقولة ولامقبولة ترددت كثيراً فى مجلس لويس .

وعلى هذا ، يمكن القول أن المستنصر كان داهية حريصا على دينه، نجح فى خداع لويس إلى أبعد الحدود فهو لايمكن أن يكون قد فكر فى التحول إلى المسيحية، ولايمكن أن تكون قد خطرت على باله هذه الفكرة، وسوف تكشف لنا أحداث الحملة فى تتابعها الزمنى صدق هذا القول. وقد ألمح المؤرخ الفرنسى ميشو بأن لويس كانت لديه مجرد آمال فى ادخال ملك تونس إلى المسيحية، ولم تكن هناك نوايا مبيتة وكبيرة على هذا الموضوع [٢]. ويدعم هذا القول كل

١- Joinville, p. 200 . cf. also ; Davis, E. J. The invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France, London 1897, p. 66 .

٢- Michaud , Crois VI , p. 202 .

من ميلر وجيزو وآرثر هاسال الذين أشاروا اشارات صريحة فى مؤلفاتهم مفادها أن موضوع المسيحية كان مجرد أمنية داخل لويس وليس اتفاقا صريحا ومبرما[١]، وبكلمة أدق كانت مجرد أحلام أو أضغاث أحلام .

وبالإضافة إلى كل هذه العوامل مجتمعة ، فهناك سبب شخصى آخر ذكره ابن أبى دينار . إذ علل قيام الحملة «بوجود عداء شخصى بين لويس والمستنصر حين ذكر لويس ذات يوم بحضرة المستنصر فهضم من جانبه وقال هذا ... الذى أسره الترك وافتدى نفسه فبلغ هذا القول لويس فحقد عليه وعزم على غزو تونس»، خاصة وقد وصلت إلى مسامع لويس بعض الأبيات الشعرية التى ذكرها الشاعر جمال الدين بن مطروح ، وبعثها الظاهر بيبرس إلى لويس مع رسول من عنده عندما علم بنواياه فى مهاجمة ديار الإسلام من جديد ومنها :

قل للفرنسيس إذا جئتنه	مقال صدق من قول فصيح
قد جئت مصر أتبتغى أخذها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح[٢]

كما قال فيه أحد الشعراء المغاربة أيضا يوم نزوله تونس:

يا فرنسيس هذه أخت مصر	فتيقن لما إليه تصير[٣]

وعلى أى الأحوال ، ورغم تعدد الأسباب، فالسبب الأكثر ترجيحا هو رغبة مسيحيى غرب أوروبا فى تطويق مصر بأى وسيلة باعتبارها معقل العالم العربى والإسلامى ومصدر امداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح، ومنها كانت تخرج صيحة الجهاد للقتال ضد المعتدين. فكان لايمكن الذهاب إلى بلاد الشام للحالة المتردية للصليبيين هناك. ولايمكن التوجه أيضا إلى مصر ، فذكريات الهزيمة والخزى والعار كانت لاتزال تملأ القلوب. لذا اختاروا تونس، وتعللوا بمختلف الحجج والمعاذير، وأهمها جميعا قوة تونس وتسلطها وقدرة التونسيين آنذاك على

١- Hassal, Op. cit., p. 38 ; Archer and Kingsford, p. 40 ; Guizot, p. 131 ; Miller , p. 44 .

٢- ابن أبى دينار : المؤنس : ص١٢٨ ، ابن القنفد: الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية، ص١١٠، ١١١ .

٣- لم يتسن لنا معرفة اسم الشاعر المغربى الذى ذكر هذه الأبيات ، أنظر الكتبى: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٣-٨٤ ، ابن اياس: تاريخ مصر، ج١، ص٨٧-٨٨، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٩٦ .

أحداث القلق لدى أهل الغرب وسيطرتهم على زمام الموقف فى سواحل شمال أفريقيا، وقطع طرق المواصلات والامدادات والاسعافات القادمة من غرب أوروبا إلى افرنج الشام. كل هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة إلى الحماسة الدينية لدى لويس وحبه وإخلاصه للقضية الصليبية ، وتصوره الدائم« وقد صار اشبينا لسلطان مسلم»، كانت الدافع لتلك الحملة. وكثيرا ما كان يردد أنه تمنى لو أمضى بقية أيام حياته مكبلا بالسلاسل فى سجن مظلم لاتنفذ إليه أشعة الشمس فى سبيل أن ينال ثواب الآخرة(١).

وهكذا تكاتفت الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والنفسية والشخصية من أجل انجاز الحملة. ولكن كان أخطرها جميعا الأطماع السياسية والرغبة فى التوسع وأن الدافع الدينى لم يكن المحرك لهذه الحملة وهو ما تجلى بوضوح منذ بدايات الحركة الصليبية، وما أشار إليه العديد من المؤرخين الغربيين الحديثين أمثال رينيه جروسيه ، ولويس هالفن، وبرنارد لويس وجورج تريفيليان وغيرهم(٢).

فلو كان الدافع الدينى قويا لديهم لكان الأجدر بهم التوجه مباشرة نحو بيت المقدس بدلا من التوجه إلى الشمال الافريقى.

وبعد أن استعرضنا أحوال كل من العالم المسيحى والعالم الإسلامى قبيل الحملة، وناقشنا مختلف الأسباب والدوافع التى أدت إلى قيامها يجدر بنا أن نتناول موقف سادة الغرب من رجال الدنيا والدين من تلك الحملة المزمع القيام بها، ودورهم فى سبيل اخراجها إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة .

فى الواقع بذل لويس جهدا كبيرا فى سبيا اقناع ملوك وأمراء الغرب بهذه الفكرة ، بالرغم من مشاكلها الخاصة والمحلية. وأصبحت فرنسا هى القوة العلمانية الوحيدة فى أوروبا التى خرجت منها النداءات المتكررة لحمل الصليب ضد ديار الإسلام. وعلى الفور أرسل لويس مبعوثه السير سيمون Sir Simon لمقابلة كاردينال الكنيسة المقدسة ليعرض عليه الأمر. وأبلغه

١- مونروند: الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص٣٥١-٣٥٢ .

٢- Grousset, R. The Sun of History ., Oxford, 1951, p. 191 ; Halphen , L. , L, Essor de L, Europe , Paris, 1941 , p. 63 ff., Leuirs, B., The Arabes in History . London, 1958 , p. 150 ; Trevelyan , G.M., Ashortened history of England, Aglesbury , 1960 , p. 141 .

أنه إذا وافق على تلك الخطوة ، فعليه أن يأخذ زمام المبادرة ويبلغ البابا برغبته فى أن يجتمع ملوك الغرب وكبار الأمراء ورجال الدين بباريس، لإلقاء الخطب الحماسية وشرح الموقف كاملا، مثلما يحدث عادة عند الدعوة إلى حملة صليبية كبيرة، وعليه أن يصور لهم مدى الخراب والدمار الذى حل بمملكة اللاتين فى بلاد الشام، ومدى غضب الرب عليهم فى هذا الجانب الآخر من البحر. وأبلغه بضرورة حلف اليمين لتكريس كل الجهود لانقاذ هذا الوضع المتردى بالنسبة للقضية الصليبية وبشكل سريع ومكثف [١].

وفعلا قام البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) بتوجيه النداءات إلى ملوك أوروبا وحكامها . كما أخذ فى القاء الخطب الحماسية ضد المسلمين ، وشرح حالة الفرنج فى الشرق الذين فقدوا أملاكهم وأولها بيت المقدس . وذكر كيف ذهبت أعداد هائلة من صفوة شبابهم وفرسانهم فى سبيل الصليب ، كما أخذ يصور لهم أعمال التدمير والعنف التى يعانى منها افرنج الشام، وتسلط المسلمين عليهم. كما بدأ فى حث الناس على الاشتراك فى الحملة، بأن وعدهم بغفران خطاياهم والتكفير عن آثامهم، وغيرها من الاعفاءات التى كان البابوات يمنحونها عادة للمحاربين الصليبيين[٢]. كما قام البابا بتقديم كل التسهيلات اللازمة للويس ، وأطلق يده فى أموال الكنائس ليأخذ منها ما يشاء من أجل الاستعداد للحملة. وقد لبى دعوته عدد كبير من الملوك والأمراء فى الغرب[٣]. وفى حقيقة الأمر لم تكن البابوية آنذاك تهتم بتوفر الدافع الدينى لدى لويس من عدمه ، طالما أن انخراطه فى سلك الحملة سيكون فرصة طيبة للبابوية للتخلص من مضايقة أمراء الغرب لها ، فى وقت كانت تسعى فيه لفرض نفوذها الروحى والدنيوى على دول الغرب المسيحى [٤]. لذا لانستبعد أن يكون تحمس البابا كليمنت الرابع وتأييده للويس فى حملته الجديدة خوفا من أن يطغى على نفوذه وسطوته رجل دنيوى

١- Nangis, p. 439 ; Matt. of West. , vol , II, p. 450 ; Reinaud p. 516 .

٢- Campbell , G., The Crusades, London , 1935 , p. 421 ; Ludlow, J. M, The age of the Crusades, Edinburgh, 1897 , p. 328 .

٣- المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥ أنظر أيضاً :

Richard, J. St. Louis, p. 183 ; Bailly , St. Louis, p. 307 ; Boulegr, la vie de St. Louis, p. 239 .

٤- جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، ص٥٥ .

مثل لويس عرف بتدينه وتقواه وكان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسيحيين الغربيين مما ترى فيه الكنيسة اللاتينية تهديدا لسلطانها . وهكذا يخلو للبابوية الجو لتحقيق مطامعها بتغيب ملك مثل لويس عن أوربا عرف أيضا بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين وهو نفس الموقف الذى سبق وسلكه البابا انوسنت الرابع مع لويس من قبل ، أثناء الدعوة للحملة الصليبية على مصر. فقد كانت مطامع أنوسنت تتخلص فى الخلاص من نفوذ لويس، بل الأخطر من ذلك أنه كان يتمنى أن يحول جهود هذه الحملة واستعداداتها لصالحه هو أثناء صراعه مع خصمه الامبراطور فردريك الثانى ، وهو ما عبر عنه صراحة الكاتب الفرنسى جيل ميشليه Jules Michelet من أن البابا لم يترك سلاحا دينيا كان أم دنيويا إلا واستعمله لاحباط مشروع الحملة أملاً فى الاستفادة بقواتها واهتمامها بمصالحها الخاصة.

وبناء على ما تقدم، لبى نداء البابوية عدد كبير من أمراء وقادة أوروبا ، ووفد الجميع على باريس حيث عقد اجتماع كبير يوم الاحتفال بعيد القديس دنيس St. Denis (٢). وفى ذلك الاجتماع شرح لويس للحاضرين الأمر بكل وضوح ، وذكر أنه ينوى قمع قوات المسلمين بنفسه، لأنه سيتولى قيادة هذه الحملة. «ويقال أنه دخل عليه فى أثناء انعقاد المجلس وفد من قبل السلطان المستنصر الحفصى، وكان الملك جالسا ويجواره البابا كليمنت الرابع وكل الأمراء والنبلاء . فقطع لويس حديثه عن الحملة وخاطبهم بصورة مليئة بالتأثر والحماسة «قولوا لسيدكم ملك تونس نقلا عنى أننى أرغب فى تنظيم أمر هذا البلد، وأننى قادم إليكم لاقتفاء أثر المسلمين ، وأنه فى هذا الدير حيث هذا الجمع الكبير أذكر هذا والجميع شاهد على ما أقول، أننى قد قررت فى هذه المرة أن اتملك زمام الموقف وأجنى ثمار أفريقيا فى شهر آغسطس القادم، ذلك ارضاء لسيدنا يسوع المسيح. وقد آزره كل الحاضرين وأيدوا قوله لسفارة تونس»(٣).

ويشوب هذه الرواية الكثير من المبالغة . إذ لايعقل أن يدخل سفراء من تونس على مجلس لويس وهو يخطط لغزو بلادهم دون حجابة بينه وبينهم والمقصود منها اظهار التونسيين بمظهر الحليف المتواطئ مع لويس ضد باقى القوى الإسلامية، وهى محاولة جديدة من مؤلف غربى

١- جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ، ص٧٢ .

٢- تاريخ العيد ٩ أكتوبر ١٢٦٨م وهى الفترة التى صاحبت أستعداد لويس للرحيل بالحملة وتجهيزها .

٣- Nangis, p. 438 .

مسيحى ليضفى صبغة حقيقية على موضوع دخول صاحب تونس فى المسيحية، وأن الأمر كان معدا له بموافقة التونسيين أنفسهم، ويرفض أن يصرح بأنهم كانوا مخدوعين من قبلهم. ويقول جوانفيل فى هذا الصدد «أنه حين سمع هذا الكلام من سيده لويس أى عزمه على القيام بحملة جديدة، أصابه شعور بالحزن والاكتئاب . وفى احدى الليالى كان جوانفيل مختليا إلى نفسه وتساءل عن الدافع القوى الذى يجعل سيده يتسلم زمام الأمر بنفسه. وتستمر الرواية أن جوانفيل ظل مستغرقا فى أفكاره إلى أن غلبه النوم ورأى حلما مزعجا مفاده أن الملك والعديد من الأمراء والبارونات سيقتربون من مكان يسمي ريمز Reims ، وأن ثمة أحداثا غير طيبة سوف تحدث لهم. فزاده هذا قلقا على سيده وحزنا عليه، إلى أن تذكر رجلا يشتهر بحكمته ورجاحة عقله ، وكان يسمى ويليام ، فقص عليه هذه الرؤيا ، فأيد جوانفيل فى أحاسيسه قائلاً له «فعلاً سيتوجه الملك إلى قلعة ريمر وأن الرب سوف يهبه المنح والعطايا وأنه سيكون معه فى كل خطواته وقد توجه جوانڤيل على فوره حيث كان الملك والأمراء مجتمعين وقص عليه الرؤيا وذكر أن الملك كان مستمرا فى الاعداد للحملة واتخاذ التدابير اللازمة لقيامها . ثم يستكمل حديثه قائلا «أن القديس لويس أعلن فجأة النبوة على المجتمعين وكان يجلس إلى جواره أبناؤه الثلاثة وملك نافار ، والعديد من البارونات الآخرين. ويبدو أنهم تشاءموا حين سمعوا ذلك». يقول «جوانفيل» أنهم لم يقتنعوا بحديثى وطلبوا منى تدعيم ما جاء فى رؤيتى من أن دمارا شديدا سوف يحدث للقوم، وأن الرب سيكون بمثابة القلب والروح لمساعدة شعبه وانقاذه . وقد حزن لويس لهذا ». وأقسم جوانفيل أنه لم يضف حرفا واحدا على الرؤيا التى تراءت له، وأنه لايستحق غضب الرب أو القوم. ويستطرد قائلا أنه حدث ما توقع إذ ذهب الملك ورجاله إلى قلعة قرطاجنة وحل بهم مرض شديد ومات لويس نفسه متأثرا بهذا المرض[١].

وليس مستغربا فى مثل هذه الظروف والاستعدادات قائمة على قدم وساق للدعاية للحملة المقترحة والتبشير بها ، ظهور مثل هذه الرؤى والمنامات التى هى أقرب إلى الأساطير والخزعبلات منها للحقائق التاريخية. إذ كان الهدف منها اثارة الحماسة الدينية لدى الناس للانخراط فى سلك الحملة[٢]. ورغم كل هذا ، فقد كان تحمس لويس لهذه الفكرة شديدا بحيث أنه لم يقف كثيرا أمام نبوءة جوانفيل ، بل أسرع بالعمل الجاد من أجل اعداد القوات والأموال

١- Joinville, Op. cit., p. 299 .

٢- جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ، ص٥٥ ، والعدوان الصليبى على مصر، ص٥٣ .

اللازمة للحملة. ويبدو أن تلك الحماسة التى غمرته لم يكن يشعر بها غيره من الأمراء والملوك فى أوربا . فقد أحس لويس بصعوبة التأثير على عدد غير قليل منهم. ويؤكد نانجى قول جوانفيل من أن الملك الفرنسى لما شعر بعدم صدق النية من بعض النبلاء ورجال الدين ، غضب واتهمهم بالتخاذل والانصراف عن القضية الصليبية ، وأضاف أنه لافرق بينهم وبين اللاتين الشرقيين الذين خرجوا عن واجبهم الدينى فى تحرير الأرض المقدسة وتركوا أنفسهم للأهواء الشخصية[١]. والواقع أن الفكرة الصليبية قد بدأت فى الاحتضار، فى وقت أصبح فيه زمام المبادرة فى قبضة العرب بعد أن توحدت كلمتهم واتحدت جبهتهم واتخذوا سياسة الهجوم دفعا للعدوان. وتعرض دعاة الحرب الصليبية فى الغرب للسب والاهانة من الناس علنا وجهرا، فى الوقت الذى بدأ فيه الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ويخرجون على أوامرها وأصبح الجهاز الكنسى فى طريقه هو الآخر نحو التداعى والانهيار ، وكان المسيحيون الغربيون يسخرون من زملاءهم الذين ينخرطون فى حملة صليبية ضد العرب ، وكانوا يرددون «ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التى تكلف الكثير، بينما يترك المرء مصالحه الخاصة فى بلاده التى تدر عليه الربح الوفير، ليشترك فى حرب لاتنتهى وقد يخسر فيها كل شئ». وهم أيضا يقولون فى أسلوب لاذع على لسان أحد الرهبان الغربيين فى حوار باللغة اللاتينية بينه وبين الله» أنه لأحمق غبى هذا الذى يتبعك فى معركة جديدة ضد العرب »[٢]. وكانت مثل هذه الأقوال والعبارات اللاذعة تتردد على ألسنة الناس فى الغرب أثناء الحملات الصليبية، ومهما يكن من أمر، فقد أيد البابا هذه الحملة علانية فقط، وإنما فى حقيقة الأمر كانت ضد رغبته ، ورغبة البابوية[٣]. فقد عاد جوانفيل يؤكد هذا الاحساس من جديد حين قال «إن القديس لويس سوف ينفذ هذه الحملة سواء كانوا مقتنعين بها أم لا، فالأمر أصبح يشكل خطورة بالغة لفرنسا ، وبات من الضرورى بذل كل شئ فى سبيل الدفاع عن الوطن»[٤].

١- Nangis, p. 439 .

٢- جوزيف نسيم: العدوان الصليبى والرأى العام الغربى، مقال من سلسلة المحاضرات العامة، ص٣٧-٣٩ ، ٤١ .

٣- Michaud, Crois, VI , p. 202 .

٤- واضح هنا أن جوانفيل كان ضد فكرة الحملة على تونس بعدما شاهده فى حملتى لويس التاسع على مصر والشام، كما أنه نصحه بعدم القيام بها مبينا أن فرنسا أولى بجهوده ورعايته . أنظر: Joinville , p.300.

لقد كان اصرار لويس على انفاذ هذه الحملة نابعا من الماضى البعيد والهزيمة المريرة التى منى بها على ضفاف النيل فتمنى وهو شيخ فى السبعين من عمره أن يمحو هذا العار عن نفسه، خاصة بعد فشل محاولاته أثناء اقامته فى بلاد الشام عقب اندحاره فى مصر. ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن. فقد مات على أرض تونس دون أن يحقق أيًا من أهدافه.

وهناك قضية أخرى لابد أن نتوقف عندها. فمن الواضح من رواية جوانفيل أن تونس لم تكن فى الحسبان على الاطلاق وقتذاك. فيقول أنه رأى أنهم يتجهون إلى مكان يسمى «ريمز» وليس قرطاجنة أو تنيس أو تونس أو تانسى أو ترشيس أو غيرها من المسميات التى كانت تطلق على تونس فى كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين. ومن المعروف أن ريمز هذه هى بلدة فى فرنسا [١]، فربما قصد جوانفيل أنها ستكون مكان التقاء لويس بجيوش حملته ، لأنه لم يشر إلى أن وجهة لويس ستكون تونس، ومن المحتمل أن لويس احتفظ بسرية اتجاه الحملة إلي تونس لنفسه ولم يطلع عليها كل المقربين منه .

وبناء على ما تقدم ، لم يكن أمام لويس سوى الاعداد العسكرى للحملة وتجهيز الأسطول، وتوفير الموارد المالية اللازمة لها[٢]، ثم بعد ذلك التفرغ لترتيب أمور مملكته من جديد أثناء غيابه عنها. وذهب إلى مدينة سان دينيس حيث تقابل مع رجال الدين فى كنيسة السيدة العذراء هناك ، وتناقش معهم فى الكثير من الأمور الخاصة بالحكم فى فترة غيابه. فهذه المدينة تشتهر باخلاصها المطلق للبابوية وعلاقتها المتينة بلويس . لذلك عين الكونت فكيوسين Vicosein كونت مدينة سان دينس ليكون مسئولا عن المؤن والعتاد الخاص بالحملة ، وأن يكون له حق الاشراف على أمور فرنسا أثناء غيابه [٣]، بالاشتراك مع خمسة من كبار رجالات فرنسا هم ماهيان Mahian ، ونيل Nile ، والسير سيمون Sir Simon ، ومتى دى فاندوم Matthew de Vandom ، وسيمون دى ناظلا Simon de Nazila [٤]. ثم بدأ لويس فى

١- جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ، ص١٤ .

٢- مونروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٠ .

٣- لقد بلغت تلك المدينة مكانة مرموقة فى فرنسا لدرجة أن شعار فرنسا آنذاك كان العلم الخاص بدير القديس دنيس، بحيث كان يرفرف كألسنة النار بلونه الأحمر المشقوق من جانبه الطليق ، وكان هو شعار رجال دير دنيس الخاص بهم ، ولم يصبح شعار ملوك فرنسا إلا منذ عهد فيليب أغسطس وابنه لويس الثامن . أنظر: Joinville (Johnes, tr), p. 390 .

٤- كانت هذه الشخصيات من كبار النبلاء المقربين من لويس وموضع ثقته . أنظر: Nangis, p. 439 .

ترتيب الأمور الخاصة بأسرته. فوزع ميراثه على أبنائه الأربعة، وأعطى لكل من بناته الباقيات بلا زواج ما يخصهن من ارث ومال لجهازهن. ثم توجه إلى زوجته الملكة مارجريت دى بروفانس [١]، وأعطاها صداقها وارثها ، ثم وزع أموالا طائلة على الفقراء والمرضى والأديرة والمستشفيات، وكذلك على خدمه وحاشيته وكافة الذين وقفوا إلى جانبه باخلاص. وقد تألم شعبه كثيرا حين رأى أن اللحظات تقترب ليفارق زعيمه من جديد، فقد كان وجوده بين شعبه يبعث على الاطمئنان رغم كل المتاعب والاضطرابات ، وكان الشعب ينظر لملكه وقد اعتصره الألم واشتدت به الحسرة ، فقد أصبح كهلا ضعيف البنية[٢]. وكما يقول جوانفيل كان غير قادر على ضبط سيره ، ولايطيق ركوب الخيل[٣].

وعلى أى الأحوال فإن الملك لويس حين عقد النية على القيام بحملته الجديدة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس وقمع مصر، فإنه بدأ يسير وفق خطة دقيقة منظمة محكمة مرت بعدة مراحل منذ أن كانت فكرة تداعب خياله حتى قيام الحملة. ولم يبخل بأى شئ فى سبيل انجازها ، وبذل قصارى جهده فى سبيل اقناع السلطات الدينية والعلمانية بها متخذا فى ذلك كافة الأساليب والوسائل التى كانت تتأرجح بين اللين والعنف وبين الترهيب والترغيب . حقيقة أن الحماسة كانت تغمره ، ولكن سوء الأحوال السياسية والاقتصادية فى غرب أوروبا، واحتضار الفكرة الصليبية جعلت من هذه الحملة قوة هزيلة ضعيفة غير كافية. فلم يضع الملك فى حسبانه عامل الزمان والمكان والمستجدات التى طرأت على المسرح الدولى وقتها ولم يكن هذا هو ذنب لويس، بل ذنب العصر الذى عاش فيه . فقد باتت الحروب الدينية ضد المسلمين أشبه بكابوس ثقيل تمنى المسيحيون الشرقيون والغربيون الخلاص منه ونفض آلامه وذكرياته عنهم. لقد بدأ الغرب وقتها يمر بفترة تغير وانتقال من مفاهيم العصور الوسطى المبكرة إلى أوضاع جديدة مغايرة، مما أثر على الفكرة الصليبية. ولم يكن لدى لويس بعد نظر كاف ، فقام بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة ضد تونس ليضيف فشلا جديدا إلى هزيمته السابقتين فى مصر والشام، وسوف تكشف الفصول القادمة عن ذلك .

٢- مارجريت هذه هى ابنة ريمون برنجيه Raymond Berenger كونت بروفانس ، وقد تزوج لويس التاسع منها عام ١٢٣٤م، ورافقته فى حملتيه على مصر والشام، أنظر: Kitchen , Op. cit., p. 334 .

٣- مونروند: الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٥٠-٣٥١ .

٤- Joinville, p. 300 .



الفصل الثانى
الاستعداد للحملة وقيامها

فئات الجيش الصليبى وعناصره- الاستعدادات للحملة: الموارد المالية- التموين والامدادات- الأسطول وتجهيزاته- الأحداث التى صاحبت وجود القوات الصليبية بميناء اجموورت- ابحار الحملة من اجموورت إلى سردينيا، والمصاعب التى واجهتها والنتائج المترتبة على ذلك- تخبط لويس فى قراراته وتصرفاته: أسبابها وانعكاساتها على كل من الصليبيين والمسلمين.- رد فعل القوى الإسلامية داخل تونس بصفة خاصة والعالم الإسلامى بصفة عامة، والآثار المترتبة عليه .

بعد أن استعرضنا أحوال العالمين المسيحى والإسلامى بوجه عام، وظروف تونس وفرنسا على وجه الخصوص. يجدر بنا أن نتعرض بالتفصيل لاستراتيجية الحملة المزمع القيام بها، والفئات التى اشتركت فيها، والاستعدادات لها من حيث التمويل اللازم والمؤن ووسائل النقل ، هذا ، بالإضافة إلى القاء الضوء على مختلف الظروف التى صاحبت قيامها من ميناء اجمورت[1] جنوب فرنسا، إلى أن يممت وجهها شطر تونس، وأثر ذلك على المعسكر الإسلامى.

لقد سبق القول أن الملك الفرنسى لم يأل جهدا فى الدعوة لحملة جديدة ضد العالم الإسلامى . وقد لقى تجاوبا من قبل البابوية التى أطلقت يده فى أموال الكنائس ليدعم بها حملته. وبالفعل انخرط فى صفوفه العديد من الأمراء والبارونات . وأجمعت المصادر الأوربية المعاصرة أنه لم تتوافر فى كل من اشترك فى الحملة النية الصادقة للمساهمة الفعلية ، بل

١- تعرف باللاتينية باسم Aqqae Mortuae أى المياه الراكدة واجمورت الحالية هى اجمورت الصليبية أنظر:

Kitchen , Op. cit., p. 341 ; Bordeaux, H., Un Precuroeur: Vie , mort et Survie de St. Louis, Paris 1949, p. 217 .

هناك من أعلن حضوره ثم تباطأ ولم ينخرط في صفوفها في الموعد الذى حدده لويس التاسع للقاء الجميع فى اجمورت[١] ويلاحظ أن التأييد القوى للويس وحملته لم يصدر عن كبار ملوك أوروبا، بل تركز فى عدد من الأمراء والبارونات فقط. فقد كره هؤلاء الحكام أن يتسيد عليهم لويس لما فى ذلك من اضافة دور جديد إلى دور فرنسا الفعال فى تاريخ الحركة الصليبية، خاصة وأن الصراع بين فرنسا وانجلترا لم يخمد بعد، وكانت هذه المسألة من الأمور التى شغلت بال لويس التاسع أثناء تغيبه عن وطنه في حملتيه ضد مصر والشام (١٢٤٨-١٢٥٤م/ ٦٤٦-٦٥٢هـ) وقد أكد ابن خلدون ذلك حيث ذكر «أن كل من حضر مع لويس من قادة أوروبا قد تباينوا فى اظهار قوتهم على حساب الآخرين. ولكن لويس بفضل قوة شخصيته وعظمته تمكن من التسيد عليهم جميعا وملك زمام الأمور»[٢].

وقد أخذ القديس لويس على عاتقه مهمة انجاح الدعاية للحملة، الأمر الذى ترتب عليه انضمام عدد كبير من الأمراء والبارونات إليها وازداد عدد المتطوعين فيها يوما بعد يوم ، خاصة وأنه لجأ إلى خدعة دينية طريفة لاكتساب أكبر عدد ممكن من رعاياه فيها، وذلك عن طريق تقديم المعونات المالية العاجلة لكل محتاج من رعاياه حتى لو لم يكن فقيرا. فقد ذكرنا من قبل أنه كان يعطى الأموال للأرامل واليتامى ومن يرغب فى الزواج وليس لديه الامكانيات تماما مثلما كان يعمل أثناء استعداده لغزو مصر . فيذكر د. جوزيف نسيم «أنه كان يقدم الهدايا القيمة بمناسبة عيد الميلاد من كل عام إلى كبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات ، وكانت عبارة عن وشاح طبع عليه علامة الصليب ففهم الجميع حيلته وأنهم لابد من الانصياع لرغبته بالانخراط فى سلك الحملة.

وقد كان أبناء واخوة لويس من أوائل من شاركوا فى الحملة. فقد انضم إليه أبناؤه الثلاثة يوحنا الجزين John Tristan وكان قد ولد فى دمياط أثناء أسر لويس بدار ابن لقمان فى المنصورة [٣] ، وتوفى فى تونس بسبب الوباء الذى انتشر بين صفوف

١- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥ . أنظر أيضا: Nangis, Op. cit., p. 439 .

٢- ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩١ .

٣- جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، ص٥٣ .

الحملة[١]، واشترك فيها أيضا ابنه فيليب الثالث Philippe III ، وهو الذى تولى بعد وفاة لويس قيادة الحملة إلى أن حضر عمه شارل كونت انجو . أما الابن الثالث فهو الكونت الينسون Elenson [٢]. وشارك فى الحملة أيضا أخوه شارل كونت أنجو. وقد اختلفت المصادر المعاصرة من عربية وغير عربية ، حول مسألة مصاحبة شارل لأخيه لويس. فمنهم من قال أنه ظل بجوار أخيه حتى وصولهم تونس، ومنهم من قال أنه تركهم بسردينيا ورحل إلى صقلية بسبب مصالحه الخاصة هناك. وهذا هو الرأى الأرجح الذى أجمع عليه عدد كبير من المؤرخين المعاصرين والحديثين، وخلاصته أن شارل عندما وصل إلى تونس كان أخوه لويس يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجلس على الأرض باكيا حزينا على تأخره عن انجاد جيوش الحملة ومساعدة لويس[٣]، يضاف إلى ما تقدم ما جاء فى بعض المصادر من أن شارل كان ملكا على نابلس بالاضافة إلى صقلية وجنوب إيطاليا. وقد انفرد بهذا الرأى المؤرخ الفرنسى رينو دون غيره من المؤرخين الذين أجمعوا على أن أملاك شارل كانت تنحصر فى صقلية وجنوب ايطاليا فقط. هذا بالإضافة إلى أحلامه الواسعة فى الاستيلاء على شمال أفريقيا[٤]، لما يحققه ذلك له من مصالح اقتصادية كبيرة.

أما ملك إنجلترا فقد تضاربت الآراء حول موضوع اشتراكه فى الحملة. إذ ذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن قادة الحملة وأن اسمه ادوارد[٥]. وهذا غير صحيح لعدة أسباب أولها أن ملك انجلترا آنذاك كان هنرى الثالث Henry III (١٢١٦- ١٢٧٢) أما ادوارد فقد كان وليا للعهد. والسبب الثانى أن العداء المزمن بين ملكى انجلترا وفرنسا لم يكن يسمح بالمرة باشتراكه فيها ، خاصة وأن موقفه المتردد فى الانخراط فى الحملات الصليبية كان واضحا

١- Eracles, R.H.C.- H. Occ., t. II, p. 458 .

٢- Reinaud, Op. cit., p. 517 .

٣- Eracles, p. 458 ; Cf. also; Wiegler , Infidel Emperor, p. 317 .

٤- Reinaud , p. 517 .

٥- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٠، العينى: عقد الجمان ، ج٢، ق٣، ورقة ٥٥٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص٢٩٠-٢٩١ .

منذ حملة لويس على مصر . فعلى الرغم من أنه قيد اسمه فى سجل الحرب المقدسة متعهدا بحمل الصليب لنجدة اخوانه فى أرض الميعاد، وحذا حذوه كثير من النبلاء والفرسان ورجال الدين الإنجليز[١]، إلا أنه سرعان ما تكشفت نواياه عندما دفع للبابوية مبلغا ضخما من المال لتعفيه من العهد الذى ارتبط به . وفى الحقيقة أن هنرى الثالث كان يأخذ من تأييده الظاهرى للحملة وسيلة لابتزاز الأموال من رعاياه ارضاء لجشعه [٢]. والجميل الوحيد الذى قدمه للويس هو أنه وافق على مد أجل الهدنة المبرمة بينهما إلى حين انتهاء الحملة وعودة لويس إلى مملكته. ويتضح من هذا أنه من المستبعد تماما أن يكون هنرى قد انخرط فى سلك حملة لويس ضد تونس فى الوقت الذى بدأت فيه الفكرة الصليبية تلفظ أنفاسها .

وعلى هذا، فإنه قد سمح لابنه ادوارد بالمشاركة فيها، وأكثر من ذلك أنه جعل من ادوارد قائدا مستقلا عن لويس وليس تابعا له، بأن جعل وجهته بلاد الشام وليس تونس على وعد أن يلتقى بلويس فى تونس بعد ذلك. وعلى أي الأحوال، فقد كان ادوارد مشهورا بالكفاية والنشاط، وقد ظهرت مواهبه السياسية فعلا فى معالجة موقف المتمردين على والده. لذا استعد للقيام بحملته بعد أن سمع بسقوط انطاكية والحالة المتردية التى وصل إليها المجتمع الصليبى ببلاد الشام. على أنه من سوء حظه بعد أن أبدى نبلاء انجلترا موافقتهم على أن يرافقوا ادوارد، أخذوا يعتذرون الواحد بعد الآخر عن التوجه معه فى الحملة، الأمر الذى أخر من رحيل ادوارد بحملته حتى عام ١٢٧١م / ٦٦٨-٦٦٩هـ عكس ما كان متفقا مع لويس . ولم يتحرك بقواته من انجلترا إلا بعد فشل حملة لويس فى تونس ووفاته هناك [٣].

يضاف إلى ما تقدم، أنه قد حدث خلط فى بعض المصادر حول اسم الأمير ادوارد إذ ورد اسم ولى عهد انجلترا الذى اشترك فى عداد الحملة هو دونارو Donaro [٤]. ويرجع هذا الاختلاف إلى أن ادوارد رغم الاتفاق على أنه يلتقى بباقى قوات الحملة فى اجمورت إلا أنه تأخر عن ذلك وقدم إلى هناك ابنه المسمى يوحنا لانيز John Linz ومعه زوجته الانجليزية ، مما

١- Eracles, p. 44 ; Michaud, Crois., VI , p. 545 .

٢- جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ص١٢٦، وأيضا العدوان على مصر ، ص٢٦٨ .

٣- سوف أتعرف بالتفصيل لرحيل حملة الأمير ادوارد فى الفصل الخامس من الكتاب .

٤- Reinaud, p. 517 .

أوجد هذا اللبس بين المؤرخين. وقد أكد هذا أحد مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادى وهو متى أوف وستمنستر قائلا: «أن الأمير ادوارد لم يتجه صوب تونس إلا عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس فذهب إلى هناك على أمل اقتطاف ثمرة النصر التى زرعها لويس، وقد فوجئ بتلك الأحداث الأليمة التى كانت المنطقة مسرحا لها والتى خيبت آماله»[١]. وفى حقيقة الأمر رغم احساس لويس بتنصل ادوارد عن المشاركة فى الحملة ضد تونس مباشرة ، إلا أنه لم يمانع فى توجهه صوب بلاد الشام لترميم الصدع الذى أصاب الكيان اللاتينى هناك ، واحراز أى تقدم على القوى الإسلامية الآخذة فى الازدياد . ومما يدعو إلى الدهشة أن نفس المؤرخ عاد ونقض روايته الأولى بخصوص موقف الأمير ادوارد من الحملة على تونس عندما قال «إن الملك لويس عندما قرر الذهاب إلى تونس للاستيلاء على ممتلكات وأموال هؤلاء البرابرة كان قد سبقه إلى هناك الأمير ادوارد الذى وصل تونس بعد أن تعرض لرياح عاتية»[٢]. وهذه الرواية بعيده عن الحقيقة تماما. لأن كافة المصادر الأخرى أجمعت على ادوارد لم يتقابل قط مع لويس فوق أرض تونس، بل وصل إليها بعد موته مباشرة .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد شارك فى الحملة عدد آخر من أمراء أوروبا من بينهم الفونس كونت بواتييه وتولوز وهو شقيق آخر للويس [٣]، وايسوفي Issovy كونت الفلاندرز [٤]، وهيذى Hize كونت لوكسمبورج، والسيد يوحنا بركينى John Birkiny وهو من كبار سادة أوروبا[٥]،

١- Matt. of West. , Op. cit., vol . II, p. 450 ; Eracles, Op . cit., p. 458 .

٢- Matt, of West ., Op. cit., p. 540 .

٣- من المعروف أن للملك لويس ثلاثة أخوة أولهم شارل كونت انجو وكان من أوائل من شاركوا فى هذه الحملة. وذكر بأسماء متعددة فى المصادر العربية المعاصرة ، فأحيانا كان يطلق عليه جارلا وكارلوس ورى جار وغيره . والأخ الثانى هو روبرت كونت أرتوا وهو الذى مات فى حملة لويس التاسع على مصر، والأخ الثالث هو الفونس كونت بواتييه وتولوز . أنظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٤٩ ، حاشية ١، وأيضا جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص١٠ ، مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٨ .

٤- الفلاندرز : هى بلاد الفلمنك وتعرف أيضا باسم الأراضى الواطئة، أنظر جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين، ص٢١ .

٥- Nangis, Op. cit., p. 445 .

وملك أرغونه بشمال أسبانيا[١] ، وملك اسكوسنا Askosna وثوروك Thorok [٢]. وشارك فيها أيضا ملك برشلونة ويدعى ريداركون Raidarcon ويذكر العينى أن من بين من ساهم فى الحملة ملك الفوركب وهى بلاد الناقر [٣]، كما انخرط في سلك الحملة يوحنا كونت بريتاني[٤] ، وثيبوت Thepot ملك نافار، والفونس دى بريانا[٥] ، ودى مارشا De Marshard ودى سواسون De Soison . هذا فضلا عن عدد كبير من نساء أوروبا الشهيرات، ومنهن الأميرة أوسفور Os-for أميرة بواتييه وتولوزو زوجة الأمير الفونس، وملكة شامبانيا [٦]، بالإضافة إلى زوجة ابن ولى عهد انجلترا وهى انجليزية الأصل وجيهان Gihan ملكة الفلاندرز والكونتيسة دى بريتانى وازابيلا دى فرانس Isabella de France واميليا دى كورتناى Imilia de Cortanay [٧] وغيرها.

١- اسم هذا الملك جيمس صاحب أراجون James of Aragon

أنظر : Camb . Med Hist ., vol . VI , p. 415 .

٢- لم نستدل من المصادر والمراجع المتداولة ما يساعد على تعيين المقصود باسمى اسكوسنا وثوروك وللمزيد بهذا الشأن أنظر: المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٤ ، حاشية ٥ .

٣- ألفوركب «بلاد الناقر» : هى اسم مقاطعة تقع على أحد الانهار بألمانيا ويسمى نهر ناقر أو نيقار Ni-car وللمزيد أنظر: Camb. Mad . Hist ., vol . II, p. 989 .

وانظر العينى : عقد الجمان، ج٢٠ ، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ المقريزى : السلوك جـ١، ق٢ ، ص٣٦٥ ، ابن خلدون: العبر ، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ ، أبو المحاسن المنهل الصافى ، ج٢، ورقة ٥٢٠ أ، ابن القنفد: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، ص١٣١ .

٤- هو أحد كبار رجال الاقطاع فى فرنسا، وقد شهدت هذه الكونتية انخراط عدد كبير من كبار سادتها فى حملة لويس على مصر، مما أعطى للويس الفرصة للتخلص من ثورات نبلائها التى كادت أن تطيح بعرشه وقتها، وللمزيد أنظر : جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر، صد٣ .

٥- Nangis, p. 439 .

وأيضا مونروند: الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٤٧ .

٦- هى جين دى نافار Jeane de Navarie ملكة شامبانيا وزوجة فيليب الرابع الذى يعرف بفيليب الجميل. توفيت فى ٢ أبريل ١٣٠٥م، وهى أم لويس العاشر ملك فرنسا بعد وفاة والده فيليب الجميل . أنظر: Joinville, pp. 2-4, n2.

وأيضا : جوزيف نسيم: العدوان على مصر، ص٥٤ .

٧- Bordeaux, p. 440 ; Richard, Orient et Occident au moyenage a la contacts et re-lations, pp. 185-188; Billy, Op. cit., p. 22 .

ويضيف المؤرخ هرقل مجموعة أخرى من افرنج الشرق الذين شاركوا فى الحملة. فيذكر أنه عندما وصل لويس إلى تونس قدمت إليه من عكا أعداد كبيرة منهم ومعها امدادات ضخمة، وكذلك عدد كبير من السفن وقرابة اثنين وثلاثين فارسا». وقد قدموا جميعا ارضاءا للويس وما يبذله رغم شيخوخته فى سبيل قضية الصليب المقدس »[١]. وجدير بالذكر أن لويس حاول اصطحاب جوانفيل معه دون جدوى، إذ اعتذر جوانفل وتعلل بضرورة بقائه فى فرنسا نظرا لما حل بالبلاد من متاعب فى فترة تغيب لويس عنها[٢]. ويبدو أن اعتذار جوانفيل يرجع إلى تشاؤمه من أمر هذه الحملة كما سبق القول. أما المؤرخ وليم دى نانجى فقد انضم إلى صفوفها وتتميز روايته بصدقها ودقتها إلى حد بعيد حيث كان شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان[٣].

ومهما يكن ، لقد كان أمر تجميع هذه القوات صعبا للغاية. وقد عانى لويس الأمرين بسبب تردد البعض فى الانضمام إلى الحملة وتأخر إعداد المؤن. وعقد مجلسا عسكريا فى باريس[٤] شرح فيه خطته ووجه نداء أن يكون تجمع القوات فى ميناء اجمورت [٥]. وقد أثبتت الأحداث عدم صدق النية لدى العديدين . هذا، فى الوقت الذى كان فيه لويس يزداد حماسة ورغبة فى القتال مما جعل البعض يتظاهر فقط بمشاركته فى آماله من أجل القضية الصليبية ، ولكنهم فى أعماقهم لم يكونوا يفكرون فى الاشتراك فى الحملة وهذا دليل بين على فتور الروح الصليبية بشكل واضح لدى أهل الغرب.

أما عن الموارد المالية لها فقد اختلفت نسبة الأموال والعتاد التى ساهمت بها دول الغرب، وكذلك نسبة الحصص التى اتفق على أن يسهم بها الأفراد القادرون . وكان قد اتفق على أن تسهم كنائس فرنسا فى الحملة بمواردها المتعددة[٦]. كما دفع كبار رجالات فرنسا

١- Eracles, p. 458 .

٢- Archer and Kingsford, p. 40 .

٣- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٤- Nangis, p. 445 .

٥- Liste de Chevaliers Croises avec St. Louis, p. 305 .

٦- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٥ .

من رجال الدين والدنيا الذين لم يشتركوا في الحملة بشخصهم المبالغ اللازمة من الضرائب والعشور. فكان الكرادلة يدفعون العشور، أما الأمراء والنبلاء وكبار التجار فكان عليهم توفير الأموال الخاصة بمصاريف الحملة لمدة طويلة . وهناك اشارات واضحة تفيد أن السيد دى فاليرى De Vallery قد دفع مبلغا ضخما ، كما قدم عدداً كبيراً من الفرسان التابعين له. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لويس يتوقع منه المزيد، بل اتهمه بالتباطؤ في تقديم هذه المساعدات . وقد دفع السيد راؤل دى سيترى Raol de Stray ، وكان رجلا ثريا ويحمل رتبة مارشال ١٦٪ من نسبة ما أسهمت به فرنسا من نفقات للحملة. ودفع المارشال لانكيلوت دى سان مارك Lancelot ١٤٪ من النفقات، أما السيد بيير دى دوليه Pierie de Dolait فقد دفع ١٣٪ من مصاريف الحملة ، وقد تم هذا بشكل رسمي. هذا، بالإضافة إلى ٤٠٠ جنيه دفعها سرا على شكل تبرع للحملة [1]. أما السيد دى كولار De Collar فقد دفع ١٢٪ من النفقات ، ودفع كل من السيد دى روا De Roi ومانفرات Manfrat ٤ آلاف جنيه، ودفع السيد دى ميولانك De Me-olank والسيد أنوت دى فمانت Anout de Femant وغيرهم حصصهم كاملة من هذه المساعدات[2].

وقد وردت اشارات عديدة تفيد أن بعض الملكات والأميرات والسيدات الشريفات بغرب أوروبا قد ساهمن – أيضا– في نفقات هذه الحملة. وكانت نسبة حصصهن كبيرة أعانت على تغطية نفقات الحملة ومتطلباتها ذهابا وعودة[3]. أما الفرسان المسيحيون الذين قدموا من بلاد الشام للمساهمة فيها، فقد حملوا معهم ، هم أيضا، كميات ضخمة من الأموال والمؤن والأطعمة والأمتعة التي تلبي احتياجات الجند [4].

١– المقصود بالجنيه هنا هو التورنوا الفرنسي، فمن المعروف أنه كان العملة المتداولة في فرنسا في ذلك العصر. ويرجع اسم تورنوا إلى مدينة تورز Tours . وقد استحدث لويس ابان حكمه عملة ذهبية جديدة أسماها التورنوا الكبير Gros Tournois تمييزا لها عن التورنوا العادى المعروف ، وقيمتها توازى ١٢ وحدة منه . أنظر:

Grand Encyc; Art France, Numismatique , XVII, 1141 and Art Tournois, XXX I, p. 247 .

٢– أنظر الملحق رقم ١ بآخر الكتاب الخاص بهذه الامدادات .

٣– Liste des Chevaliers , p. 305 .

٤– Eracles, p. 458 .

هكذا تم إعداد القوات والمصاريف اللازمة للحملة. ويذكر نانجى رواية غريبة مفادها أنه من بين الموارد المالية للحملة تلك التى بعث بها المستنصر صاحب تونس إلى لويس. إذ يقول «أن أرض تونس قدمت مساعدات كبيرة إلى ملك فرنسا من فرسان وجنود وأسلحة، مما كان له أكبر الأثر على عتاد الحملة. ولكن من الغريب أن جميع الأمراء والبارونات قد أصابهم التشاؤم من هذه المساعدات ، وشعروا أن أمرا ليس فيه أى خير ولا مصلحة للفرنج سوف يحدث لهم نظير هذه الأمدادات»[١]. وقد أكد المقريزى نفس الرواية قائلا «إن المستنصر أرسل لهم مبلغ ثمانين ألف دينار، وذلك عندما علم بنوايا لويس فى غزو تونس ، وأن لويس أخذ هذه الأموال قائلا لسفارة المستنصر أنها لن تثنيه عن عزمه في أخذ تونس»[٢].

وهاتان الروايتان فيهما الكثير من المبالغة ، فرواية نانجى ترجع إلى تصوره بأن المراسلات المتبادلة بين المستنصر ولويس قبيل الحملة والخاصة بالديانة المسيحية إنما تحمل فى طياتها تقديم الرشوة إلى لويس بهدف ممالأته ، وقد أثبتنا من قبل أن مسألة دخول المستنصر فى المسيحية كانت من وحى خيال المؤرخ وليس لها أى نصيب من الصحة ، ولكن من غير المستبعد أن يستعمل المستنصر معهم كل الحيل والوسائل التى لاتثيرهم ضده ، وكان كل هدفه اتقاء شر لويس وأخيه شارل ، فى الوقت الذى تعدد فيه خصوم المستنصر بالداخل وكانوا أشبه بالبركان الذى يمكن أن ينفجر فجأة فى وجهه [٣].

وقد أكد مونروند هذا الرأى قائلا «إن القديس لويس لما وصل تونس لم يخرج المستنصر لمقابلة المعسكر الفرنسى كوعده، بل أظهر اشارات واضحة تدل على عدم نيته فى دخول المسيحية وأنه أوقعنا فى شراكه». والأكثر من ذلك أن السلطان الحفصى هدد لويس بأنه سيذبح كل المسيحيين الموجودين على أرضه إن لم يبتعد فورا بقواته عن تونس.

فاذا كان هذا هو موقف المستنصر ورد فعله حيال تطور الأحداث ، فكيف يمكن أن نتقبل هذه الرواية بارساله المعونات لأعدائه ، وأما عن رواية المقريزى، فقد سبق القول أنه كان متحاملا على المستنصر ، واتهمه فى مرات عديدة بالخيانة لأن الصداقة بين حاكم مسيحى

١- Nangis, p. 478 .

٢- المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٤-٣٦٥ .

٣- مونروند : الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص٢٥٢ .

وملك مسلم من وجهة نظره لايمكن أن يكون فيها خير المسلمين وذلك راجعا إلى التواء سياسة المستنصر وعدم وضوح خططه .

وخلاصة القول أن فكرة تقديم المستنصر المساعدة لعدوه بهدف الدخول فى ديانته والتنازل عن عرشه أمر مستبعد تماما لايقبله العقل ولاتؤيده الأحداث التي وقعت بعد ذلك، شأنه شأن ما أثير حول الاتصالات التى تمت قبل الحملة بين العاهلين المسلم والمسيحى بشأن دخول المستنصر فى المسيحية ، وكل ما هنا لك أن المستنصر نجح فى التلاعب بهم ، وظهر أمام الجميع بمظهر المتحالف معه بينما كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا .

وفيما يتعلق بعدد القوات التي شاركت في الحملة من مشاة وفرسان ورماه فهناك ثمة تباين بين المصادر بهذا الخصوص .. فقد اتفقت غالبية المصادر على أن الفرسان بلغوا قرابة ستة آلاف فارس ، بينما يذكر البعض الآخر أن عددهم بلغ خمسة آلاف . أما ابن آبى زرع فقد ذهب بعيدا عن هذه النسبة وذكر أنهم قرابة أربعين ألف فارس.

أما المشاة فكانوا قرابة ثلاثين ألفا، وبلغ عدد الرماة حوالى عشرة آلاف[١]. وأضاف ابن الفرات «أنه من بين عتاد الأسطول كان الفرسان التركيلية والجرخية»[٢]. وأورد ابن خلدون اشارات دقيقة حول عدد السفن التى تكون منها الأسطول المسيحى قائلا أنها كانت قرابة ثلاثين سفينة كبيرة وسبع سفن أخرى خاصة بالفرنسيس [٣]. وأما السفينة الملكية التى كان لويس على ظهرها فكانت تسمى منتجوا[٤] Montigoie وبالرغم من أن فرنسا ليست دولة بحرية، فإن مملكة صقلية وجنوب ايطاليا قد لعبت دورا كبيرا فى تزويد الحملة بالسفن اللازمة لكونها دولة بحرية من الطراز الأول، ولاهتمام شارل كونت انجو حاكمها بأمر هذه الحملة تحقيقا لمطامعه الخاصة بالإضافة إلى الدور الخطير الذى لعبته مدينة جنوه فى امداد هذه الحملة بالسفن والمؤن .

١- ابن أبى زرع : الانيس المطرب، ص٢٧٨ ، المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٥ .

٢- ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ .

٣- ابن خلدون : العبر ، ج٦، ص٢٩١ ، راجع أيضا محمد الباجى السعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ ، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

٤- Guizot, St. Louis , p. 135 .

يتضح مما سبق أن تلك الحملة قد أعد لها اعدادا كافيا فى أوروبا نتيجة الدعاية القومية التى قام بها لويس، وكللت مساعيه بالنجاح فى الوقت الذى كان يصعب فيه جمع كلمة المسيحيين من جديد للقيام بعمل عسكرى موحد ضد المسلمين. وبعد أن اطمأن لويس إلى اكتمال الاستعدادات لحملته ، كانت الخطوة التالية هى إعلان الجميع بمكان وميعاد التجمع استعدادا للإبحار، وكان المكان هو ميناء اجمورت، وموعد التجمع هناك خلال شهر مارس من عام ١٢٧٠م / شعبان ٦٦٨هـ أى مع بداية فصل الربيع . وقد واجه لويس الأمرين أثناء انتظاره لقادة الحملة فيما يتعلق بالموعد الذى حدده. فلم تكن النية فى الحرب من أجل الصليب متوافرة تماما لدى الجميع [1]. وكان احساس لويس بذلك سببا فى ازدياد تدهور ظروفه الصحية والنفسية[2] . وأيضا أدى ذلك إلى تخبط الجميع فى قراراتهم من حيث خط سير الحملة ووجهتها وموعد قيامها .

وعلى الرغم من اكتمال الاستعدادات داخل فرنسا ، لم يكن لويس قد قرر بعد هدف الحملة ووجهتها ، وعما إذا كان سيتجه صوب تونس ، أم صوب مصر، أم صوب بلاد الشام . حقيقة لقد كان الرأى الأرجح هو تونس لأن الطريق من اجمورت إلى سردينيا كان قصيرا، وأما المسافة من سردينيا إلى تونس فكانت ثلاثة أيام. وكان يعتقد أنه باستيلائه على تونس سوف يتمكن من فرض حصار برى وبحرى على مصر . وعلى الرغم من أن عددا غير قليل من المؤرخين العرب كان يتوقع أن وجهة الحملة ستكون مصر، إلا أن لويس ومن معه استبعدوا ذلك تماما لأن مصر كانت فى عنفوان قوتها، وأن محاولة التوجه إليها مرة أخرى سيكون مصيرها الفشل واسترجاع الذكريات الأليمة التى تمنى لويس والمسيحيين جميعًا نسيانها. ولم يكن لويس يتصور أن يعود إليها فى مثل هذه الظروف بالإضافة إلى سبب عسكرى آخر وهو أن المسافة من سردينيا إلى مصر تقارب الثلاثين يوما. كما استبعد أيضا التوجه إلى بلاد الشام للحالة المتردية التى وصل إليها افرنج الشرق آنذاك.

وبعد أن اطمأن لويس إلى أحوال مملكته بأن يتولى أمرها فى فترة غيابه فيسكوسين كونت مدينة سان دنيس التى كانت تتمتع بعطف البابوية ورعايتها كما سبق القول، قرر مغادرة

١- حامد محمود غنيم : الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ، ج٣، ص٧٢ .

٢- موتروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٥١ .

باريس برفقة قواته إلى اجمورت وكان مكان تجمع قادة ورجال الحملة. وقد اختلفت الآراء حول تاريخ ترك باريس إلى اجمورت . فمن قائل أن ذلك كان فى نهاية شهر مارس عام ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ، ومنهم من قال أنه في أوائل ابريل[١] ١٢٧٠م ٥ شعبان ٦٦٨هـ، فى حين ذكر البعض الآخر أن يوم الرحيل كان في ١٦ مارس من نفس العام [٢] / ٢٠ رجب ٦٦٨هـ، وعلى أى الأحوال اختار لويس بداية فصل الربيع حتى يكون ثمة متسع من الوقت أمامه في اجمورت ، يسمح بمقدم جميع القوات الصليبية. وكانت رغبته الأكيدة آنذاك أن يصل إلى تونس مع حلول فصل الصيف [٣]. حقيقة لم يفصح عن ذلك للجميع ، حيث أن قرار التوجه إلى تونس بالذات لم يصبح أمرا رسميا إلا بعد ترك اجمورت ، إلا أن هذا كان أشد ما يتمناه.

وبناء على ذلك بدأ لويس ورجاله رحلتهم من باريس إلى مدينة أغوزمورتاس مرورا بمدينة بورجو Borgo إلى مدينة بيو كيردفيان Beau Kirdavian . ثم عبروا نهر الرون إلى ميناء اجمورت، وانتظروا هناك لحين وصول بقية الامدادات .

وفى اجمورت وقعت بعض الاضطرابات بين الجنود وأهالى المدينة . يذكر نانجى » أنه حين وصلنا كانت أرض الميناء قد غطيت تماما، وأصبحت لاتجد شبرا واحدا خاليا من الجنود. وأما البحر فقد كست السفن جانبا كبيرا منه. ومن الغريب أن بعض قادة السفن شكوا للويس أنهم ضلوا الطريق لأن المكان كان مجهولا بالنسبة لهم، وهم بالطبع ليسوا فرنسيين[٤]، وليست لديهم خبرة بأعمال الملاحة . ويضيف قائلا «أنه فى بداية الأمر وصل إلينا أهل المدينة، وأبدوا استعدادا طيبا لمساعدتنا» ، ويقول أنه من بين الأهالى كانت توجد شخصيات لها مكانتها تقابلت مع لويس وخولت له السلطة فى طلب أى شئ من بلدة اجمورت .

١- Eracles, Op. cit., p. 458 ; Nangis, p. 439 ; Cf . also , Richard, p. 185 .

وأيضا : مونروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٠ .

٢- Guizot, St, Louis, p. 135 .

٣- Nangis, p. 477 .

٤- من المعروف أن عددا كبيرا من قادة هذه الحملة قد سبق لهم الاتجاه نحو اجمورت استعدادا للرحيل مع لويس صوب مصر فى حملته المعروفة عام ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ . لذا فمن المؤكد أن هذه الجماعة التى ضلت الطريق ليست من الفرنسيين ولاعلم بها بمسالك فرنسا . أنظر: Joinville, p. 118 .

والأكثر من ذلك أن أهالي المدن المجاورة حين علموا بوصول الأسطول الصليبي توافدوا على لويس مبدين استعدادهم الكامل للمشاركة في الحملة . ويذكر أن هذا كله كان في بداية الأمر حيث وفد أيضا عدد كبير من الحجاج الذين كانوا في طريقهم لزيارة الأراضي المقدسة، وقد باركوا خطوات الحملة ودعوا لها بالنجاح . ثم قدم إلى اجمورت عدد من التجار كانوا يتميزون بالدهاء والخبرة وقد مارسوا أنشطتهم التجارية من حيث عمليات البيع للجنود . وكانوا يتألفون من عناصر متنافرة الأمر الذى أدى إلى وقوع صدامات عنيفة بينهم وبين الجنود استخدموا فيها الأسلحة والسيوف . وقد قتل في هذه المشاحنات ما يزيد عن مائة شخص من الصليبيين ومن أهالي المدينة. وبدأ الحزن يخيم على الجميع بسبب ذلك الحادث ، لدرجة أن الملك والبارونات عقدوا مجلسا استثنائيا في ١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢٣ شعبان ٦٦٨ هـ ناقشوا فيه ضرورة وضع حد لهذه التصرفات غير المسئولة حتى لو اضطرتهم الظروف إلى الرحيل بعيدا عن اجمورت [١]. وهذه اشارة واضحة إلى أن الأهالي كان لهم دور في هذه المشاحنات ، حيث يحاول البعض أن يلقى التبعة على جنود الحملة. ولو أن ذلك كان صحيحا لماذا أصر لويس على الرحيل بعيدا عن اجمورت والبحث عن مكان آخر أكثر أمنا وسلاما.

وإن دلت هذه الأحداث على شئ ، فإنما تدل على أن المصالح الخاصة كانت تطغى على الصالح العام وأن الروح الصليبية لم تعد قوية كما كانت في بداية الحركة. كما أنها سببت الكثير من المتاعب للحملة وهي لاتزال في بدايتها .

المهم، لقد بقى لويس داخل المكان الذى خصص له على الشاطئ محاطا بالحراس وهو في قلق بسبب تردى الأحوال بين جنوده وأهالي المدينة .

ويضيف نانجي أن هذه الأحداث زادت من تدهور صحة الملك لدرجة أنه لم يكن يفارق مكانه إلا نادرا . وحتى في أحد الاحتفالات الذى أقيم بمناسبة عيد القديس انسلم St. Anselm ٢١ أبريل ١٢٧٠م / ٢٧ شعبان ٦٦٨هـ . كان لويس قابعا في مكانه حزينًا شاحبا . ولكنه في نهاية الأمر صمم على الخروج إلى مناطق الصراع الدائر بين جنوده وأهالي اجمورت ، وقد طلب من حراسه أن يصطحبوه إلى هناك حيث بذل جهودا كبيرة في سبيل تهدئة الأوضاع.

١- Nangis, Op. cit., p. 441 ; Cf. also : Billy , Op. cit., p. 307 ; Richard, Op. cit., p. 184 ; Henry, Op. cit., p. 446 ; Boulenger, Op. cit., p. 242 .

ونجح فى ذلك بعد أن استمع الطرفان المتصارعان إلى نصيحته وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى [١].

ومما لاشك فيه أن تلك الأحداث قد أثرت بصورة أو بأخرى على الامكانيات المادية والمعنوية للحملة. واعترى لويس القلق من جديد ، خاصة بعد التمرد الذى نشب بين بعض الفرق المشتركة فى الحملة . فكانت هذه هى الطامة الكبرى التى حلت بالحملة قبل أن تبدأ مسيرتها. ثم إن صحة لويس وظروفه وشيخوخته لم تكن تسمح له باحتواء الموقف وقد ظهرت بوادر التراجع والتردد بين كثير من المشتركين فى الحملة. ولم يوجد آنذاك من شارك فيها برغبة صادقة بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة. وحتى أخوه شارل كونت انجو بدا عليه التردد واللامبالاة ولم يكن يفكر فى أى شئ سوى فى مصالحه الخاصة التى كانت أسمى من أى اعتبار آخر، والاستفادة قدر المستطاع من امكانيات الحملة لتحقيق أغراضه الشخصية .

وقد استغرقت هذه الأحداث وفترة الاقامة فى ميناء اجمورت ما يقرب من ثلاثة شهور من مارس حتى أوائل يوليو ١٢٧٠م / من شعبان إلى ذى القعدة ٦٦٨هـ ، الأمر الذى أدى إلى نفاذ الكثير من امكانيات الحملة ومواردها المالية والتموينية. ويبدو أن لويس كان يدرك تماما الأضرار المترتبة على هذا التأخير ، مثلما حدث له من قبل فى حملته على مصر حين اضطر للبقاء فى ميناء قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨-١٢٤٩م) مما أدى إلى نفاد الأموال التى كان الصليبيون قد جمعوها ، واستهلاك المؤن والمهمات المكدسة[٢] على شاطئ الجزيرة . ولكنه فى هذه المرة كان بين أمرين أحلاهما مر : هل يبقى بميناء اجمورت على أمل وصل بقية القوات الصليبية ضمانا لتدعيم الحملة؟ أم يرحل بجيوشه والفتنة على أشدها بين جنوده ومظاهر الاحباط بادية ؟ لقد اختار الأمر الأول، ولذا طال انتظاره لرأب الصدع بين رجاله ، لأنه كان يدرك بحنكته السياسية خطورة الموقف إن رحل وقواته على هذه الحال من التمزق . ولذلك طال انتظاره إلى أن قرر الرحيل من ميناء اجمورت يوم الأربعاء ٢ يوليو ١٢٧٠م / ١٠ ذى القعدة ٦٦٨هـ فى ظروف صحية صعبة [٣]. وهناك اشارات واضحة تفيد أن لويس لم يكن

١- Nangis, pp. 442-443 .

٢- جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، ص٦٨ ، ٧٦ .

٣- Joinville, Op. cit., pp. 76-79 .

يملك القرار الصحيح لأنه حتى ذلك اليوم لم يكن الأمر قد استقر تماما فيما يتعلق بوجهة الحملة، وعما إذا كانت تونس هى بيت القصيد [١]. والمهم أن الأوامر قد صدرت بالرحيل من اجمورت إلى جزيرة سردينيا . وفيما يتعلق بهذه المسألة اختلفت الآراء حول التوجه إلى سردينيا بالذات ، وعما إذا كانت تونس هى المحطة التالية أم غيرها. فثمة رأى يقول أن لويس قبل رحيله بعيدا عن اجمورت عقد مجلسا استشاريا قرر فيه أن تكون وجهة الحملة هى تونس، فى حين يذكر البعض الآخر أن هذا القرار لم يتخذ فى اجمورت بل فى سردينيا. وهذه الأمور إن كانت تدل على شئ فإنما تدل على أن كهولة لويس جعلته يتخبط كثيرا فى قراراته ومواقفه ويرتجل فى اتخاذ خطواته ، مما جعل وجهة الحملة، وهو أمر فى غاية الخطورة ، يخضع لمثل هذا التضارب فى القرارات والمواقف [٢].

وبناء على ما تقدم ، أبحر الجميع نحو سردينيا . ويصف متى أوف وستمنستر الرحلة إلى سردينيا وصفا دقيقا حيث ذكر . آنه فى بداية الأمر كان البحر هادئا والأمواج ساحرة والرياح جميلة، ولكن فجأة انقلبت الأوضاع رأسا على عقب وكان ذلك فى ليلة الجمعة ٤ يوليو ١٢٧٠م / ١٣ ذى القعدة ٦٦٨هـ . إذ ساءت أحوال البحر ، وصارت الأمواج تتلاطم ذات اليمين وذات اليسار ، ولقسوة العاصفة وجدنا أن السفن بدأت تندفع بشدة فى اتجاه عكسى للرياح . واستمر الحال هكذا حتى صباح يوم السبت الموافق ٥ يوليو ١٢٧٠ (١٤ ذى القعدة ٦٦٨هـ) . إذ ازدادت الأحوال سوءا وأصاب الجميع حالة من الذعر واليأس ، بل فقدوا كل أمل فى النجاة . ومع حلول ليل يوم الأحد التالى ٦ يوليو ١٢٧٠م (١٥ ذى القعدة ٦٦٨هـ) ازدادت العاصفة ، ولم يكن بوسعنا اضاءة المشاعل والمصابيح ، ولم يكن لدينا القدرة على رؤية المدى الذى نقصده ونحن فى عرض البحر وفى ذلك الوقت بعث الملك برسالة عاجلة إلى قادة الحملة يطلب منهم جميعا التزام الهدوء والدعاء فى الصلوات أملا فى الخروج من هذه الأزمة. ولكن هذا لم يحد من زيادة الهرج والمرج داخل الأسطول. والأخطر من ذلك أن عددا غير قليل من كبار القادة والفرسان كانوا يتصارعون على استخدام قوارب النجاة هربا من الموت . ولكن مع صبيحة يوم الاثنين ٧ يوليو ١٢٧٠م (١٦ ذى القعدة ٦٦٨هـ) هدأت العاصفة قليلا، ومع حلول

١- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٢- Archer and Kingsford , Op. cit., p. 401 .

الليل عادت الأوضاع إلى طبيعتها الأولى هادئة . وقد بلغ من شدة اعياء الجنود وخوفهم مما حدث أنهم لم يصدقوا أعينهم ، بعد طول العذاب وانتظار الموت فى كل لحظة، بأنهم أصبحوا على مقربة من سردينيا [١].

والجدير بالذكر أنه لم يكن بين القوات من يعلم مقدار المسافة التى قطعوها من اجمورت إلى سردينيا والزمن الذى استغرقته ، بل لم يعودوا يعرفون فى أى يوم هم فيه. ولكن التعليمات صدرت إليهم صباح يوم الثلاثاء ٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذى القعدة ٦٦٨ هـ بأنهم أصبحوا على مسافة قصيرة من قلعة كاستيان بسردينيا Castian Caster [٢] وطلب منهم لويس التاسع أن يشكروا الله الذى أنقذهم من الموت، وحرص على عدم ضياع سفنهم أو جنوحها بعيداً عن مسارها الطبيعى .

وحينما بلغ الأسطول جزيرة سردينيا بدأت تتوافد سفن أخرى قدمت للمشاركة فى الحملة ، وكان المفروض أن تلتقى بالأسطول فى ميناء اجمورت [٣]. وحاول أولئك الذين التحقوا بالجيش الصليبى فى سردينيا تقديم الأعذار للويس بأن تأخرهم لايعنى ترددهم أو عدم اقتناعهم بالمشاركة في الحملة وأن ذلك كان نتيجة ظروف خارجة عن ارادتهم .

وعلى أى حال ، استمرت اقامة الحملة في سردينيا حوالي أربعة أيام. وخلال تلك الفترة دخل على الملك لويس ابنه فيليب الثالث ومعه أحد فرسانه متقلدا سيفه ، وأشار على والده بضرورة العمل على عقد مجلس عسكرى طارئ لبحث الموقف واتخاذ القرارات النهائية الحاسمة[٤]. ولكن الملك لم يفعل ذلك فورا، ويبدو أن ابنه فيليب قد أحس أنه إذا طال الانتظار مثلما حدث فى اجمورت ، فسوف يؤدى ذلك إلى بداية ظهور اضطراب جديد. لذا أشار على والده بهذه النصيحة تلافيا لمضاعفات قد تضر بالحملة.

١- Matt. of West., vol. II, p. 45.

٢- قلعة كاستيان : قلعة بجنوب ايطاليا تقع ضمن أملاك شارل الانجوى وقد وردت احيانا باسم Castro Jiovani أنظر:

Camb. Med. Hist., vol II, pp. 382-390.

٣- Nangis, Op. cit., p. 441.

٤- Nangis, pp. 442-443.

لقد كانت تلك الظروف المحيطة بالحملة وما تعرضت له من متاعب منذ وصولها إلى اجمورت مدعاة لحدوث أكثر من تمرد بين صفوف الجيش. ولكن يبدو أن لويس شعر بقدر من التفاؤل وهو بالقرب من أملاك أخيه شارل صاحب انجو، خصوصا بعد وصول باقى القوات فتفقد اسطوله واطمأن إلى أحوال الجند. ويبدو أنه أغمض عينيه عن الكثير من الحقائق الأليمة التي كشفت عنها تلك الصراعات التى احتدمت بين الجنود وبعضهم البعض. وترتب على ذلك أن انتشرت المجاعة وتفشى المرض بينهم، ولكن لويس لم يعمل حسابا لكل ذلك. ففى أثناء الانتظار فى سردينيا يروى نانجى «أن الحملة واجهت الأمرين حيث قلت الأقوات لدرجة أنه أوشكت أن تحدث بيننا مجاعة كبرى، وأصبح الدمار يهددنا من كل جانب، ولكن رغم هذه المعاناة صدرت إلينا الأوامر بالرحيل بعيدا عن سردينيا فى اتجاه تونس. واختير يوم الثلاثاء ١٥ يوليو ١٢٧٠م (ذى القعدة ٦٦٨هـ) موعدا للابحار»[١]. ومن الغريب أنه فى تلك اللحظة التى اتفق فيها الجميع على القرار الحاسم بالتوجه إلى تونس، فوجئ لويس بأن أخيه شارل يعتذر عن الرحيل معه بحجة أن مصالحه الخاصة بمملكته تتطلب وجوده فيها. وفى حقيقة الأمر أن هذا السبب لايتعارض مع مصالحه الخاصة على الاطلاق، بل فيه كل الفائدة لشارل إذ أنه فرصة طيبة لكى يستعيد قبضته على الحفصيين المتمردين عليه وعلى حقوقه . لذا فهو سبب لايعتد به ولا أساس له من الصحة ، لأن السبب الحقيقى هو أنه أراد أن يكرس كل جهده للانتقام من بيزنطة وحلفائها . وكان يطمع فى فرض سيطرته على كل أملاك الامبراطور البيزنطى بليولوجوس (١٢٥٩-١٢٨٢م) لذا أراد أن يحقق كسبا مزدوجا عن طريق زج أخيه لويس فى مهمة احتلال تونس والتفرغ هو لتوسيع ممتلكاته ضد بيزنطة ، مستعملا فى ذلك دهاءه السياسى عن طريق الاستفادة من هذا الحشد الهائل للقوات الصليبية لاحتلال تونس. وقد تزايدت خطورة شارل ضد بيزنطة لدرجة أن الامبراطور ميخائيل عرض على البابا الرومانى خضوع الكنيسة البيزنطية له مقابل صرف شارل عن أملاكه . والدليل على ذلك ما بعثه الامبراطور ميخائيل إلى الملك لويس التاسع وهو على حصار تونس يستغيث به ضد نشاط أخيه المتزايد وتهديداته لبيزنطة [٢].

١- Eracles, Op. cit., p. 458 ; Matt, of West ., vol II, p. 450; Nangis, p. 441 ; Cf . also Archer and Kingsford. p. 401 .

٢- أنظر Guizot, St. Louis, p. 138 .

وعلى العموم فقد كانت عدم مصاحبة شارل لأخيه لويس فى تلك الحملة لها أسوأ الأثر على الصليبيين حيث كان شارل يشكل ضلعا أساسيا فيها .

ويرى العديد من المؤرخين اللاتين أن لويس تعجل كثيرا فى قرار الابحار نحو تونس لقربها من سردينيا، وأنه كان الأولى به أن يعيد تنظيم صفوفه ويتفادى مشكلة قلة الأقوات التى نجمت عن طول الانتظار بميناء اجمورت وتأخر وصول باقي الامدادات ، بالإضافة إلى انتشار المرض بين رجاله نتيجة الشدائد التى واجهتهم أثناء ابحارهم من اجمورت إلى سردينيا . لقد عاد كل هذا بكثير من الضرر على الحملة ، وأدى إلى حدوث الفوضى بين رجال الجيش وهبوط الروح المعنوية لديهم وهى أهم سلاح للمحارب .

وكان على لويس اعادة تنظيم صفوفه من جديد قبل اتخاذ قرار سريع بتحديد وجهة الحملة وتاريخ الابحار. ولكنه لم يهتم كثيرا بكل هذه الأزمات .

ويتساءل نانجى قائلا : « ولماذا العجلة والمسافة بين سردينيا وتونس لاتتعدى ثلاثة أيام[١]؟» وعلى أى الأحوال فإنه من الواضح أن هذه الظروف شكلت عنصرا هاما فى اضمحلال الحملة وتعرضها للفشل الذريع الذى بدرت بوادره قبل أن تطأ أرض تونس.

وكيفما كان الأمر ، فقد استأنف الصليبيون رحلتهم فى عرض البحر من سردينيا نحو تونس . وعندما ابتعدوا عن سردينيا بمسافة ٥٠٠ ميل كان الاجهاد قد بدأ عليهم ، وفوجئوا بأن مرضًا قد بدأ يستشرى بينهم. واستمر الحال هكذا حتى أصبحوا على مسافة عشرة أميال من تونس ، وقد تمالك الجميع أنفسهم خاصة كلما اقتربوا من الشاطئ التونسى ، وفجأة هبت رياح عاصفة بالقرب من تونس مما ضاعف من تهالكهم ، وكانوا لايزالوا داخل سفنهم ، وبدأت أعياء المرض تزداد وتتضح . وقد أحيط لويس وهو فى سفينته الملكية بكل هذا، وتأكدت الأنباء بأن ما يقرب من ٥٢٥ جنديا أصبحوا فى حالة شديدة من الأعياء. وأدرك لويس خطورة الموقف التى تمثلت فى ضرورة مقاومة هذا المرض وتدبير المؤن اللازمة للحملة.

وحين بلغوا قرطاجنة انبعث بصيص من الأمل فى نفس لويس ، وفكر فى ارسال عدد من جنوده لاستطلاع الأمر وتدبير احتياجات الجند من المؤن وسبل العلاج . ولم يفكر قط فى بث

١- Nangis , Op. cit., p. 441 ; Cf. also : Henry , Op. cit., p. 449 ; Boulenger, Op. cit., p. 245 .

عيونه وجواسيسه للتعرف على الاستعدادات العسكرية للتونسيين مما يدل على خطورة الموقف داخل اسطول الصليبيين وقتها، وانهماك لويس فى رأب الصدع بين جنوده .

وقبل الاستطراد فى الحديث عن اللحظات الأولى من اقتراب الحملة من أرض تونس ، يحسن استعراض أحد الآراء الذى ثار حول الوقت الذى استغرقته الرحلة البحرية من سردينيا إلى تونس . فيذكر هرقل أنهم وصلوا قرب تونس يوم ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٢ ذى الحجة ٦٦٨هـ [١]. أى أنهم قطعوا ما يقرب من ٩ أيام من سردينيا إلى تونس ، وهذه الرواية بعيدة عن الحقيقة لأن المسافة بحرا بسفن ووسائل النقل في ذلك الزمان لاتزيد عن ثلاثة أيام، حتى لو كانوا قد تعرضوا لأى ظروف مناخية سيئة خلال الرحلة. والواقع أننا لم نعثر على اشارات صريحة تفيد تعرضهم لعواصف شديدة . اللهم إلا تلك العاصفة التى حدثت على بعد أقل من عشرة أميال من تونس ، ولم تستمر سوى بضع ساعات[٢]. وبناء على ما تقدم، فإن الزمن الذى قطعته الحملة من سردينيا إلى تونس لم يزد عن ثلاثة أيام، وهذا ما ستكشف عنه السطور التالية.

وعلى أى حال، بعد أن اطمأن لويس إلى سير الأمور قرب قرطاجنة تواترت الأخبار بعدم وجود عائق يمنع دون نزول الجنود متخفين فى زى تجار تونس إلى البر لكى يبتاعوا ما يحتاجون إليه. وفعلا أرسل لويس عددا من جنده في زوارق صغيرة متخفين في زى أهالى تونس للقيام ببعض المهام التى كلفوا بها، والعمل على انقاذ المرضى المسيحيين. ويذكر نانجى «لقد وصل بعضهم فعلا إلى قرطاجنة خلسة ، ووجدنا بعض المنازل الخاصة بالتجار التونسيين، وحين اقتربنا منهم يبدو أنهم اكتشفوا آمرنا، وكرهوا جدا وجودنا فوق أرضهم ، وبدأوا يخفون عنا كل شئ يمكن أن نبتاعه منهم»[٣].

أما كيف تم اكتشاف أمرهم ، فالأمر غاية فى البساطة ، حيث يجب آلا ننسى العلاقات التجارية المزدهرة التى كانت قائمة بالأمس القريب بين التونسيين والفرنسيين ، والصقليين

١- Eracles, Op. cit., pp. 458 .

٢- Nangis, Op. cit., p. 540 ; Matt. of West., vol . II, p. 450 .

٣- Nangis, p. 540 ; Cf . also : Boulenger, Op. cit., p. 248 .

أيضا حسن عبد الوهاب : خلاصة ج تاريخ تونس، ص١١٢ .

وغيرهم من العناصر التى تكون منها الجيش الصليبى. لذا ، فإنه ليس من الصعب على أهل تونس اكتشاف أمرهم وبسهولة، مما يدل على عقم الخطط التى كان يتبعها لويس ، وعدم تقديره لمثل هذه الأمور البديهية.

ونتيجة لكل هذه الظروف عقد لويس مجلسا عسكريا جديدا لتقليب الأمر على مختلف وجوهه قبل اتخاذ أى خطوة عسكرية حاسمة ضد مدينة قرطاجنة . واستقر الرأى على ارسال احدى عشرة سفينة صغيرة تقترب جدا من الشاطئ ، على أن تبقى باقى السفن الكبيرة والسفينة الملكية بعيدا عن الشاطئ[١] ، وذلك لاستطلاع الأمر قبل الهجوم . ونتوقف هنيهة بينما لويس يستعد للنزول إلى الشاطئ ، لنرى ماذا استجد من ظروف بالنسبة لتونس وبقية العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه وقتذاك. لقد أخطأ لويس فى عدم تقديره للأمور وحساب قوة المسلمين. وكان رد فعل القوى الإسلامية فى تونس وخارجها قويا جدا، حيث بدأت تونس بزيادة التحصينات العسكرية على حدود مدينة قرطاجنة وتعزيزها لمقاومة العدو. كما حشدت أعدادا ضخمة من المقاتلين والسفن. ويذكر متى أوف وستمنستر «أننا قد ذهلنا جميعا وأصابنا اليأس عندما رأينا على بعد هذه الحشود الهائلة التى بانتظارنا ، وتأكدنا من هلاكنا»[٢] . وهذه اشارة أخرى واضحة تنفى الاتهام الذى وجه إلى المستنصر بأنه كان متفقا مع المسيحيين ويسعى إلى كسب ودهم بالمراسلات والسفارات والهدايا[٣]. فالدولة الحفصية قد قامت على مبدأ الجهاد ورجالها هم ورثة الموحدين الذين قامت دولتهم على الجهاد السياسى والدينى ضد المرابطين. هذا ، بالإضافة إلى أن طبيعة بلادهم وموقعها الاستراتيجى قد حتم عليهم أيضا الجهاد البحرى والبرى [٤]. لذا فليس من المستبعد على الإطلاق ورغم عدم وضوح سياسة المستنصر أن يجاهد التونسيين ضد الدخيل لحماية أراضيهم من عبثه. وقد ساعدهم على ذلك رد الفعل داخل مصر قلعة القوى الإسلامية، والتى كانت تخرج منها دائما صيحة الجهاد ضد الغزاة . فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزه المصريون على أعدائهم

١- Nangis, p. 479 .

٢- Matt. of West ., vol . II, p. 450 .

٣- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥ .

٤- ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص٢٧٤ .

من انتصارات ففي ابان الحملة على تونس لعبت مصر دورا هاما في الدعوة إلى الجهاد. وكانت الخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق المنابر لها أكبر الأثر في الحث على الجهاد ضد الغزاة ، مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية على مصر ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ حين قام الجامع الأزهر بدور رئيسي في تنبيه الأذهان إلى الخطر الجاثم في أرض فلسطين . ودعمت خطب العلماء ورسائل الحكام بالآيات القرآنية «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم» ألا إن نصر الله قريب »[١]. كما كان لمصر دورها الحيوى في التحرك السريع لمجابهة أمر الحملة على تونس عسكريا فعلى الرغم من أن بيبرس كان مشغولا بأمر الصليبيين في بلاد الشام[٢]، آلا أنه بدأ على الفور في تحصين الثغور الاسلامية سواء في تونس عن طريق امداد المستنصر بالمؤن والعتاد وحث عربان برقة وأفريقيا على الوقوف بجوار المستنصر [٣]، أو في مصر عن طريق تحصين الثغور المصرية وعمارة الشوانى والجسور الممتدة إلى دمياط خوفا من أن يقصدها الفرنج ثانية [٤].

وهناك رواية انفرد بها أحد المؤرخين المسلمين عن توجه الحملة إلى الاسكندرية ، وهذا أمر مستبعد . ومفادها « أنه أثناء وجود بيبرس في بلاد الشام وصلته الأخبار بأن الفرنج حولوا وجهتهم من تونس نحو الاسكندرية ... بل أنهم تمكنوا فعلا من الاستيلاء على مركبين للمسلمين . فعاد على الفور إلى الاسكندرية ودخلها في ١٨ شعبان ٦٦٨هـ (١٤ أبريل ١٢٧٠م)، وأمر بعمارة القناطر وتحصين البلاد»[٥]. ولكن الخبر لم يكن أكيدا، لأنه طال

١- جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ط١، الاسكندرية ، ١٩٨٦، ص٢٤٠ .

٢- ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن الفرات : تاريخ الدول ج١٢ ، لوحة ٣٧ ، راجع أيضا مونروند : الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص٣٤٤ .

٣- العينى: عقد الجمان ، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٥٥٨ .

٤- واضح من روايات المؤرخين العرب المشارقة أن بيبرس كان يعتقد أن وجهة الحملة مصر وليس تونس. فلم ينس بعد حملة لويس على بلاده قبل ذلك التاريخ بحوالى ربع قرن. انظر المقريزى: ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٠ .

٥- تاريخ البرزالي ، ورقة ٢ أ .

انتظاره بها ولم يظهر أى أثر للفرنج . ومع ذلك بدأ فى اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة . وفى الواقع أنه فى هذه الأثناء كثرت الأقاويل والتكهنات بشأن خط سير الحملة. فنظرا للهزيمة القاسية التى حلت بلويس فى مصر من قبل ، جعلت الكثيرين يتوقعون ضرورة عودته للانتقام ومحو عار الهزيمة ، رغم أن بيبرس كان على يقين باستحالة حدوث هذا إلا أنه لم يتوان عن تحصين الاسكندرية أو غيرها من السواحل المصرية التي كان يمكن أن يقصدها الفرنج. فلم يدخر وسعا فى تحصين كل من دمياط والاسكندرية، ومراسلة المستنصر وامداده بالمساعدات فى نفس الوقت، ورغم كل هذه الاستعدادات ، فقد وصلته رسالة عاجلة من مندوب والى مدينة الاسكندرية يعلمه بأن الفرنج قصدوا المدينة وأنهم نزلوا البر، وأعلمه بعدم قدرته على التصدى لهم وعدم استطاعته فى اخراج قطع الأسطول لمواجهة هذا الموقف وذلك لغياب المسئول عنه فى مهمة رسمية فاستدعاه بيبرس على الفور وأصدر أوامره للأهالى بألا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب وألا توقد نار فى البلاد ليلا[1]. ثم توجه على فوره إلى دمياط ودخلها فى يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة ٦٦٨هـ / ٢٧ يونيو ١٢٧٠م[2] لأنه كان يتوقع أن تكون دمياط هى مطمعهم الحقيقى أن أرادوا العودة أسوة بما حدث أثناء حملة لويس التاسع نفسه ومن قبلها حملة جان دى برين. ولكن الفرنج لم يقتربوا من دمياط ولا من الاسكندرية. وما حدث بخصوص الاسكندرية مجرد احتمالات وتخيلات بأن لويس- كما سبق القول- لابد أن يتوجه شطر مصر ليمحو عار الهزيمة التي منى بها من قبل. ولكن هذا الخبر ليس له أساس من الصحة ولم يفكر لويس فى ذلك مطلقًا لأنه لم يغفل أن ميزان القوى فى الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين كان يتجه بشدة نحو مصر التى كانت تعيش أوج عصرها الذهبى. لذا كانت فكرة التوجه إليها فكرة عقيمة لا جدوى من ورائها، رغم أن الآمال كانت تغمره للانتقام منها .

وغير خاف أن الهدف الأساسى من توجهه إلى تونس هو الاستيلاء عليها، ثم الزحف عبر الصحراء الغربية إلى القاهرة مباشرة لتحقيق حلمه القديم بالقضاء على معقل مصر العالم العربى الإسلامى ، ثم الاتجاه شمالا صوب الأراضى المقدسة لتحقيق باقى الأطماع الصليبية المعروفة.

١- المقريزى: السلوك ، ج١، ق٢ ، ص٥٨٧-٥٨٨، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٤٧-١٤٨ .

٢- ابن اياس : تاريخ مصر ، ص٨٧-٨٨ .

وبناء على ما تقدم، أدرك بيبرس أخيرا أن وجهة الحملة هي تونس وليست مصر. فلم يدخر وسعًا في توطيد موقف المستنصر ومساعدته[١]، ومن الغريب أنه في نفس الوقت لم يأل المستنصر جهدا في اصلاح أسوار المدينة وعمارة خزائنها بالحبوب . كما بدأ في مضايقة التجار الفرنج في دولته وضيق عليهم سبل العيش، وشرع في عقد الاجتماعات العسكرية حين وصلته الأخبار الأكيدة برسو سفن العدو قبالة قرطاجنه. فبدأ في تنظيم خططه لاتخاذ أفضل الوسائل للتصدى لهم في الوقت الذى أخذ فيه الخطباء في المساجد في القاء الخطب الحماسية لشحذ همم الناس ضد العدو. وبدأ عامة الشعب في ترديد الأبيات الشعرية التى كتبت في ذكرى أسر لويس بالمنصورة [٢].

وكان من بين الآراء العسكرية ما أشار إليه البعض بترك العدو في عرض البحر دون الاشتباك معه حتى تنفذ ما لديه من ذخيرة وعتاد، فيضطر للعودة إلى بلاده، ولكن حذره البعض الآخر المستنصر بانه أن تركه هكذا فربما ييأس من طول الانتظار فيضطر إلى الرحيل نحو ثغر آخر من الثغور التونسية أو الإسلامية عامة. وهذا ما لايرضاه المستنصر ولا التونسيين بوجه عام، لأنه أدرك ضرورة ابراز دوره كقائد مسلم حريص على مصلحة المسلمين في أى مكان . ولهذا السبب رجح المستنصر الرأى الآخر الذى أشار بضرورة العمل على اعطاء لويس فرصة النزول إلى البر لكى يسهل الفتك به وبجنوده في مواجهة حاسمة.

وفي حقيقة الأمر ، فقد قام المستنصر بدور فعال في التصدى لهذه الخطوة من قبل الصليبيين. ولم يعتمد على قواته فحسب، بل وفدت عليه قوات من السودان الذى كان على علاقة طيبة بالمستنصر في العديد من المجالات سواء أكانت سياسية أم اقتصادية[٣] . فكان

١- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢، راجع أيضا: حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢-١١٣ .

٢- محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١ .

٣- لقد أنشئت العديد من المراكز التجارية على طول الطريق من المغرب إلى السودان، وكانت مراكز نشطة اشتهرت بتجمع كميات كبيرة من الذهب، وكانت تلك المراكز تقوم بتصدير الزيوت والقطن والخشب وبعض أنواع البخور والجلود وكان التجار يعودون من هناك محملين بالتبر والدقيق والملح وللمزيد انظر:

ابتسام مرعى: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، ص٢٧٨ .

السـودان من أول الدول الإسـلامـيـة التى بادرت بمساندته فى مـواجـهـة الغـزو الصليبى. وفى هذا الصـدد يروى متى أوف وستمنستر « أن الجنود السـودانيين كانوا يحيطون بالشـاطئ من كل جانب وكانوا يزأرون كالوحوش الضارية ليخطفونا . ومن شدة خبثهم فإنهم لم يشتركوا معنا فى معركة حربية مباشرة، بل كانت المناوشات تجرى عن بعد ، وكان علينا ألا نغفل عنهم ولو لدقيقة واحدة »[١]. ويضيف قائلا «أنه على الرغم من أن الفرنج لم يكونوا يعيرونهم اهتماما كبيرا، إلا أنهم لم يفكروا أن أخطارا جسيمة أخرى كانت تحيط بهم. ويقول المؤرخ الفرنسى مونروند مؤكدا رواية متى، «أننا حين وصلنا بالقرب من قرطاجنة، وأنه على الرغم من الآمال الكبيرة التى كانت بداخلنا تجاه المستنصر ، إلا أنه أبدى غير ما كنا نتوقع منه، لأن كل هذه الأشواق والآمال التى منحنا اياها كانت حيلة منه وفخا أوقعنا فيه .. فهو لم يأت إلينا تنفيذا لوعده، بل أظهر كل ما هو عكس ذلك وهددنا بالذبح إن لم نبتعد حالا عن شواطئ بلاده»[٢].

وهذا دليل آخر على عدم صدق الرواية الخاصة بتودد المستنصر إلى لويس وعرضه الدخول فى الديانة المسيحية وتسليم بلاده. ويتضح من هذا كله سوء التخطيط من قبل لويس ، وتخبطه فى قراراته حين علم بنوايا المستنصر الحقيقية. كما يتضح أن الهدف الدينى لم يكن سوى ستارا أخفى وراءه رجال الحملة أطماعهم الحقيقية ، لأنهم لو كانوا صادقين فى نواياهم ، ما اختاروا تونس هدفا لحملتهم، وما تخبطوا فى قراراتهم أو ارتجلوا فى تحركاتهم. وقد كان هذا واضحا تماما أمام أعين القوى الإسلامية العربية الأخرى مما أوجد ترابطا شديدا مع تونس فى كفاحها ضد الصليبيين فى الوقت الذى كان فيه ميزان القوى يتجه لصالح المسلمين ، مما حتم على تونس أن تقوم بدور كبير فى التصدى لهذه الحملة بصفة خاصة والجهاد ضد الصليبيين ببلاد المغرب بصفة عامة، على الرغم من المؤامرات والاضطرابات السياسية التى كانت تمر بها بلاد المغرب العربى وقتها مما يدل على ترابط فكرة الجهاد المشترك بين العرب ضد الصليبيين ، سواء فى مصر أو فى بلاد الشام أو فى المغرب العربى كله [٣].

١- Matt . of West., vol . II, p. 450 .

٢- مونروند: الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٢ .

٣- جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى، ص٢٣٨ ، ٢٥٣ .

الفصل الثالث

وصول لويس التاسع إلى تونس

(١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدة ٦٦٨هـ)

وصول لويس التاسع قبالة قرطاجنة فى ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذى القعدة ٦٦٨ هـ - مناقشة مختلف الآراء حول تاريخ وصول الحملة إلى تونس- سقوط قلعة قرطاجنة في قبضة الصليبيين ، والآثار المترتبة على ذلك- موقف المستنصر من الحملة والآثار السلبية التى ترتبت على سوء خططه- استعدادات الظاهر بيبرس لمواجهة جيوش الحملة واستئصال شأفتها داخل مصر وخارجها- بناء الفرنج للمعسكرات والأسوار الدفاعية داخل قرطاجنة - المناوشات العسكرية المتقطعة بين قوات لويس والمسلمين بتونس، ونتائجها .

هكذا تمكن لويس من جمع شتات حملته والتقاط أنفاسه بعد وصوله قبالة مدينة قرطاجنة عقب الرحلة الصعبة التى واجهته هو وقواته من سردينيا إلى تونس ، وبات محتما عليه أن يعيد تقييم الموقف من جديد لمواجهة المأزق الذى وضعه فيه المستنصر. فقد ذكرنا من قبل أن لويس ومن معه من قادة الحملة قد أصابهم الذهول من التحدى السافر الذى أظهره المستنصر حيالهم، والذى كان مغايرا تماما للوعود التى قطعها على نفسه بتسليم بلاده لهم، ودخوله فى الدين المسيحى كما ادعى بعض المؤرخين الغربيين. فقد كان ذلك الموقف سببا فى حدوث اضطراب شديد بين صفوف الحملة ، لأن لويس كان قد عقد آمالا كبيرة على هذه الوعود.

ويبدو أن اعداده للحملة قد اعتمد إلى حد بعيد على المساعدات المزعومة من قبل صاحب تونس. لذا أصبحت الأمور أكثر تعقيدا ، خاصة وأن الملك الفرنسى قد واجه الأمرين من قلة الأقوات وانتشار الأمراض بين جنوده قبل أن يقترب من تونس ، وذلك بسبب طول الانتظار بميناء اجمورت ، وتأخر وصول الامدادات التى كان قد اتفق عليها مع قادة أوروبا هذا، فضلا

عن أن العواصف الشديدة التى واجهتهم في الطريق ، وسوء الأحوال الجوية، كان لها أكبر الأثر فى وضوح الخلل والاضطراب في صفوف الحملة ، وساعدت على انتشار الأمراض بين جنودها . لذلك كان عليه أن يعمل على اعادة تقييم كل خططه فى ضوء هذه المستجدات .

وقبل أن نستهل حديثنا عن الأحداث التى صاحبت نزول لويس وجنوده إلى قرطاجنة ، لابد أن تستعرض مختلف الآراء التي ثارت حول الميعاد الذى وصل فيه إلى تونس. فقد وردت اشارات عديدة متضاربة بهذا الخصوص إذا أوضحنا من قبل أن لويس عندما وصل مدينة قرطاجنة لم يحتلها على الفور بل أمضى بعض الوقت فى عرض البحر قبل أن يقتحم المدينة. ولذا تعددت الآراء حول الوقت الذى نزلت فيه قواته إلى المدينة. ولم يقتصر الاختلاف فى الآراء حول يوم الوصول ذاته، بل امتد ليشمل الشهر والسنة التى قامت فيها الحملة.

فيذكر المؤرخ الغربى وليم دى نانجى أن وصول القوات الصليبية إلى تونس كان يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠ م / ٢٦ ذى القعدة ٦٦٨هـ [١]، فى حين يؤكد ابن خلدون أن وصولهم كان آخر شهر ذى القعدة ٦٦٨هـ / ٢٢ يوليو ١٢٧٠م[٢]. بينما يذكر هرقل أن وصولهم كان يوم ١٥ يوليو ١٢٧٠م / ٢٣ ذى القعدة ٦٦٨هـ ، وأن احتلالهم لقرطاجنة تم بعد ذلك بتسعة أيام أى يوم ٢٤ يوليو ١٢٧٠م ٢ ذى الحجة ٦٦٨هـ[٣]، أما ابن أبى دينار فلم يحدد يوما معينا فى شهر ذى القعدة ، بل ذكر أنه خلال هذا الشهر من عام ٦٦٨هـ / يونيو - يوليو ١٢٧٠م كان وصول القوات الصليبية قبالة تونس [٤].

فى حين ذهبت طائفة أخرى من المؤرخين المسلمين والمسيحيين إلى أن وصول الحملة قبالة تونس كان فى شهر ذى الحجة ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٧٠م. فيذكر ابن أبى زرع أنه فى ٢٥

١- Nangis, Op. cit., p. 449 Cf, also : Richard, Op. cit., p. 184 ; Bailly , Op. cit., p. 309 ; Boulenger , p. 247 .

٢- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ .

٣- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٤- ابن أبى دينار : المؤنس فى تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ ، أنظر أيضا : محمد الحبيب : اب التاريخ، ص٢١٦ .

ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٧ أغسطس ١٢٧٠م كان وصول القوات الصليبية إلى تونس[١]. وقد اقترب معه من هذا التاريخ ابن القنفذ الذى يذكر أن نزول النصارى تونس كان يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٨ أغسطس ١٢٧٠م[٢]، وقد اتفق معهما المؤرخ الغربى رينو بأن وصولهم تونس كان خلال شهر أغسطس ١٢٧٠م / محرم - ذى الحجة ٦٦٨هـ دون تحديد اليوم [٣].

هذا ، فى الوقت الذى اختلفت فيه طائفة أخرى من هؤلاء المؤرخين حول العام الذى وصلت فيه الحملة إلى تونس . فيذكر جوفروا دى بلييه Geoffroi de Beaulieu أن وصولهم تونس كان عام ١٢٦٤م / ٦٦٣هـ ، إذ يقول ، «أنه الوقت الذى أتى بثمار الجهود التى بذلها البابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م) من أجل انفاذ الحملة الجديدة التى كانت وجهتها تونس هو عام ١٢٦٤ (٦٦٣هـ)». فى حين يؤكد أبو الفدا أن وصولهم كان عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م دون تحديد لليوم أو الشهر[٥]. وقد اتفق معه جان جوانفيل الذى أورد أن تاريخ الحملة كان عام ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ دون ذكر تاريخ وصولهم تونس بالتحديد ، على الرغم من ثراء كتاباته حول سيرة لويس وحملتيه على مصر والشام، إلا أن عدم مصاحبته للحملة ضد تونس لم يتح له الفرصة للحديث عنها باسهاب [٦].

ومن الغريب أن هذا التضارب لم يكن بين المؤرخين وحدهم ، بل وجد التضارب فى روايات المؤرخ الواحد بهذا الشأن. فيذكر المقريزى مثلاً أنه فى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م - ١٢٦٢م جمع الفرنسيس عساكره يريد أخذ دمياط فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولا ليسهل له أخذ

١- ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ .

٢- ابن القنفد (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ابن القنذ القسنطينى) : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية تونس ١٩٦٨، ص١٣٦ .

٣- Reinaud , Op. cit., p. 519 .

٤- Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H.G.F., t. xx, p. 20 .

٥- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ، ص١٩٦ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ .

٦- Joinville, Op. cit., p. 299 .

دمياط بعد ذلك . فسار إلى تونس وأشرف على أخذها»(١). وقد أيده فى روايته الكتبى (٢)، عندما قال إن تاريخ تلك الحملة هو عام ٦٦٠هـ . ويأخذ بهذا التاريخ عدد غير قليل من المؤرخين المسلمين. فيذكر أبو المحاسن «أنه فى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١-١٢٦٢م، بقيت نفس لويس تحدثه بالعودة إلى البلاد الإسلامية لأخذ ثأره مما جرى عليه بدمياط ، واهتم لذلك اهتماما كبيرا . «وفى سنة ستين وستمائة قصد السواحل المصرية فقيل له إن قصدت مصر ربما يجرى لك مثل المرة الأولى والأحسن أن تقصد تونس وكان ملكها يومئذ محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر »(٣). ويذكر المقريزى فى رواية أخرى عن حملة تونس أنه «في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢-١٢٦٣م ورد الخبر بمسير الفرنسيس وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العسكر»(٤). وأيده فى روايته هذه ابن الفرات الذى قال أنه فى شهر محرم من عام ٦٦١هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٦٢م نزل الفرنج بقيادة الفرنسيس على تونس»(٥). وبذلك زاد عن الآخرين بتحديد الشهر. ثم عاد المقريزى وأورد أخبار الحملة مرة ثالثة ضمن أحداث عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٠م» حيث قصد الفرنسيس ومعه جماعة أخرى من ملوك النصارى تونس، فاستعد له السلطان أبوعبدالله المستنصر ملك تونس ...»(٦).

وعلى أى الأحوال يعتبر التحديد الزمنى الذى أورده المؤرخ الغربى ولم دى نانجى ومن اتفق معه من المؤرخين المسيحيين والمسلمين من أن تاريخ الحملة كان ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذى القعدة عام ٦٦٨هـ هو أدق ميقات لها وذلك لأنه كان معاصرا للحملة وشاهد عيان لها ، واتسمت روايته بالصدق والواقعية ، لأن يوم ١٨ يوليو وهو يوم الوصول قبالة تونس يطابق إلى حد كبير المدة التى يمكن أن يقطعها الأسطول من سردينيا إلى تونس والتى تقترب من ثلاثة

١- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ .

٢- الكتبى: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٣-٨٤ .

٣- أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج٢ ، ورقة ٥٢٠ .

٤- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٠ .

٥- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج١١، لوحة ٣٧ ، ج١٢ ، لوحة ٧٤ .

٦- المقريزى : السلوك ، ج٢١ ، ق٢ ، ص٦٥٢ ، أنظر أيضا :

Reinaud , Op. cit. p. 516 , Archer and kingsford, p. 401 Sejor Saint Louis , pp. 155-107 .

أيام حيث كان مغادرتهم سردينيا يوم ١٥ يوليو مع احتساب الفترة التى قامت فيها العاصفة والتى لم تزد عن بضع ساعات . وهذا يجعل وصولهم يوم ١٨ يوليو تاريخا مقبولا[1]، والدليل على ذلك أنه بعد هذا التاريخ بأسبوع بدأت المناوشات بين الطرفين، ويطابق هذا رغبة لويس فى اختيار فصل الصيف موعدا لهذه الحملة[2].

وإلى جانب هذه الطائفة من المؤرخين وجد عدد آخر منهم مروا مرور الكرام حول توقيت الحملة [3]. الأمر الذى أوجد تضاربا بين روايات الجميع حول المدة التى قطعتها الحملة فى تونس أيضا .

وإذا كانت المصادر العربية والأجنبية، قد اختلفت حول تاريخ الحملة فقد اختلفت أيضا حول اسم حاكم مصر آنذاك . فيذكر ابن إياس أنه وردت أنباء عن حملة جديدة للويس بعد كسرته فى دمياط وذلك زمن الخليفة المنصور . يقول «إن ملك فرنسا لما اعتقل بدار ابن لقمان كاتب السر وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى ... إلى أن افتدى نفسه وأقاربه وحلفوا إيمانا عظيما بألا يتعدى على بلاد المسلمين إلا أنه بعد ذلك حدثته نفسه بالعودة إلى أخذ مصر رغم أنه كان يدفع الأموال للملك المعز أيبك ، فجمع العساكر وضع المراكب الكثيرة وقصد العودة لأخذ دمياط فلما بلغ المنصور ذلك جمع الأمراء وضربوا المشورة فالتقى أهل الرأى على أن يرسلوا إليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد والحط عليه»[4]. وهذه الرواية

١- Nangis, Op. cit. p. 449 .

٢- روى نانجى أن لويس التاسع قد ذكر صراحة للسفارة التى أرسلها المستنصر إليه قبل قدوم الحملة إلى تونس «أننى قد قررت أن أحضر إلى بلدكم لأنظم أموره وسيكون ميعاد حضورى فى فصل الصيف فى شهر أغسطس حتى أتمكن من جمع محاصيل هذه البلاد فى هذا الشهر»، للمزيد أنظر: Nangis, Op. cit., p. 449 .

٣- Wiegler, Infidel Emperor, p. 317 ; Chartres, R. H. G. F, t. XX, p. 36 ; St. Pathus, R. H. G. F, p. 67 ; Anonymous, Gesta Santi Ludovici Noni , R. H. G. F, t. , XX, p. 657 .

٤ – بعد مقتل المعز عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك بتدبير من زوجه شجر الدر تولى بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاما وابتدأ ولايته يوم ٢٦ ربيع أول ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، إلى أن ثارت المشاكل بينه وبين الأمير سيف الدين قطز، وانتهى الأمر بالتخلص من المنصور وتولية قطز الحكم فى ٦٥٨هـ / ١٢٥٦م أي أن تولية المنصور وعزله كانا قبل أحداث هذه الحملة بما يزيد عن اثنتى =

ليس لها أى أساس من الصحة لأن المرة الوحيدة التي فكر فيها لويس العودة لمهاجمة المسلمين فى دمياط ثم حول وجهته إلى تونس كانت زمن الخليفة الظاهر بيبرس وليس على عهد المنصور بن المعز أيبك. وأما إذا كان ابن اياس يقصد المنصور خليل ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب من زوجه شجر الدر فإنه قد جانب الحقيقة أيضا لأنه مات وهو طفلا فى حياة أبيه الصالح نجم الدين »[1]. وغير مقبول أن يكون المقصود هو المنصور سيف الدين قلاوون والد الأشرف خليل لأنه جاء في تاريخ لاحق لايتمشي مع تسلسل الأحداث .

وكيفما كان الأمر، فبعد وصول لويس قبالة قرطاجنة أصبح شغله الشاغل فى بداية الأمر، أن يعمل على علاج مرضاه الذين بدأ المرض يستشرى بينهم وينهك قواهم. فقد ذكرنا أنه أرسل عددا من رجاله الذين تخفوا في زى تجار تونس للعمل على شراء احتياجاتهم . وبعد عودة هؤلاء إلى لويس يفيدونه باكتشاف أمرهم ، صمم لويس على توسيع نطاق هذه البعثات. ونزل هؤلاء بصورة علنية ، محاولين ارغام الأهالى أن يبيعوا لهم ما يحتاجونه . وقد تصدى لهم التجار التوانسة ورفضوا امدادهم بالمؤن أو الاسعافات اللازمة لعلاج مرضاهم. ويشير نانجي أن هؤلاء الجنود رجعوا إلى قائدهم وهم فى شدة الحنق والغيظ من أهالى قرطاجنة .

= عشر عاما . وللمزيد أنظر المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٠٥ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج٧، ص٤٢ ، ابن اياس: تاريخ مصر ، ج١ ، ص٨٧-٨٨ . ويلاحظ أن رواية ابن اياس تضمنت بعض الاخطاء التاريخي. إذ ورد فيها أن ابن لقمان كان كاتب السر والحقيقة أنه كان يشغل منصب قاضى القضاة بالديار المصرية كما جاء أن الذى تولى حراسة لويس فى أسره هو صبيح القاطمى، والحقيقة أنه كان يعرف باسم صبيح المعظمى نسبة إلى المعظم توران شاه آخر ملوك الدولة الأيوبية فى مصر .

١- من المعروف أنه بعد موت المعظم تورانشاه . آخر ملوك الدولة الأيوبية عهدت شجر الدر بزمام الأمور إلى الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى، ولم تترك له السلطة المطلقة فى كل شئ ، بل كانت شريكا له فى الحكم ولايقضى أمرا إلا بالرجوع إليها. بالإضافة إلى أن كل التوقيعات كان تتم باسمها وصورتها عليها وكتب بجوارها «والدة خليل» وهو المنصور خليل ابنها من الصالح نجم الدين ، مما يدل على دهائها وسعة حيلتها باضفاء صفة اشرعية على حكمها وللمزيد أيضا: الفيومى: نثر الجمان، ج٢، ورقة ٢٢ أ ، ب، أبو المحاسن : النجوم ، ج٦ ، ص٣٦٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص٢٧٣ ، النويرى: نهاية الأرب ، ج٢٧ ، لوحة ٩٥-٩٦ ، السخاوى: تحفة الأحباب ، ورقة ٧٢-٧٣ ، راجع أيضا : جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص١٤١ ، حامد غنيم: الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، ص١٢-١٣ .

ويبدو أن الأمور حتى ذلك الحين قد اتسمت بالطابع السلمى، ولم يتعرض هؤلاء لأى محاولة اعتداء من قبل أهل تونس. ويرجع هذا إلى طبيعة العلاقات بين التونسيين والفرنج من قبل حقيقة أن نواياهم فى هذه المرة كانت عدائية ولكن المصادر لم تشر حتى ذلك الحين بوقوع اشتباكات بينهما. وقد اضطر الجنود إلى بذل المحاولات الممكنة للحصول على ما يحتاجونه ولكن دون جدوى حيث قام التجار التونسيين بنقل بضائعهم خارج مدينة قرطاجنة على ألايبيعوهم اياها[1]. وأمام تدهور الموقف ، وفشل خطة لويس فى اجبار الأهالى على امدادهم بما يحتاجونه عقد مجلسا جديدا لمناقشة الموضوع من مختلف جوانبه والتوصل إلى أفضل سبل للخلاص من هذا المأزق . وكان الملك والبارونات متألمين من هذا الوضع «وقد أبدى أحد كبار الفرسان ويدعى بيير شامبليون Peierre de Champilion استياءه وغضبه الشديدين وأقسم أمام الملك أنه كان باستطاعتهم أن يفتكوا بهؤلاء وأن يجبروهم على بيع الأشياء الخاصة بهم ولكننا توقفنا عن هذا للعلاقات الطيبة والمودة التى بين الملك وهؤلاء القوم »[2]. وقد أيده فى هذا عدد من المارشالات والفرسان الآخرين عندما قالوا له « أن أفضل الوسائل التى يمكن اللجوء إليها فيما بعد هى استخدام القوة المسلحة دون رحمة». ويبدو أن الملك لويس كانت لاتزال لديه بعض الآمال فى تغير موقف المستنصر ، وأن يوافق على تسليم بلاده سلما وبدون اراقة للدماء . وبناء على ذلك رفض الاقتراح الخاص بحمل السلاح مبكرا والتريث حتى تنجلى الأمور[3] . ومن شدة حرص لويس على كسب أهل تونس إلى جانبه أنه بعث إليهم برسالة ودية حاول فيها اقناعهم بأنه لاشأن له بأى تحصينات عسكرية داخل قرطاجنة ، وإنما يرغب فى

١- Nangis, p. 447 ; Matt. of West., p. 450 ; Cf also : Dury. Hist . de France, t. I, p. 366.

٢- Nangis. Op. cit., p. 445 ; Chronique Anonyme finissant en 1286 , R. H. G. F., t. XXI , pp. 84-86 ; Eracles, p. 459 ; Reinaud, Op. cit., pp. 521-523 ; Beaulieu, Vita Ludovici noni , R. H.G.F, t. XX p. 21 ; Cf . also; Guizot, St, Louis, pp. 135-136 .

٣- من المعروف أن الرأى العام المسيحى كان قد عقد آمالا كبيرة على تحالف المستنصر مع الغرب المسيحى، وكان هذا تصورا خاطئا من وجهة نظرهم لأن المستنصر لم تكن علاقته الودية مع لويس تزيد عن نطاق المالأة واتقاء شره دون تقديم أية تنازلات من قبله وللمزيد أنظر:

Michaud , Crois VI, p. 20 ; Hassall , France, p. 38 ; Miller , Hist . de France , vol . II, pp. 43-44 .

معالجة مرضاه وتقديم العناية الكافية لهم، وأن يوافق الأهالى على بيع كل الأشياء التى تحتاجها الحملة.

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل عل تدهور الموقف بين صفوف الحملة وازدياد المرض بين الجنود[١].

ولكن يبدو أن كل هذه المحاولات لم تأت بنتيجة ايجابية مع أهالى قرطاجنة ، الأمر الذى أثار الجند ضدهم . وكان الفرسان يرددون أمام الملك بأن أهالى تونس على استعداد لفعل أى شئ إلا التعامل معهم وأمام هذا الموقف اضطر الملك ، مرة أخرى، إلى إرسال مبعوثين من قبله لابتياع بعض الحاجيات وشراء المؤن اللازمة للجيش . فعلى الرغم من الاستعدادات الهائلة للحملة قبل رحيلها من اجمورت ، إلا أن طول الانتظار داخل اجمورت قد عاد بالكثير من الأضرار عليها إذ أضاع على الفرنج فرصة كبيرة لتوفير المؤن من جديد بعد نفاذ المخزون لديهم كما اضطروا إلى انفاق الكثير من الأموال لتغطية متطلبات الجند أثناء وجودهم باجمورت ثم سردينيا ، مما عاد بالضرر عليهم ، وكان كل هذا مدعاة للتونسيين للاستعداد لهم لمواجهتهم عسكريا واقتصاديا . وقد أدرك رجال الحملة ذلك، لدرجة أن الملك لويس فكر فى عرض أشياء ثمينة للبيع ربما لم يكن يفكر مطلقا فى بيعها من قبل، ليتسن له الحصول على احتياجاته الملحة.

ويتضح من هذه الاشارة الحالة المتردية التى وصلت إليها الحملة قبل أن تبدأ بتنفيذ أى خطوة إيجابية ضد تونس . كما أنها تكشف عن قسوة المجاعة التى ألمت بالجيش مما جعل لويس يضحى بكل ثمين وغال لانقاذ جيشه من هذه المحنة. كل هذا يدل دلالة واضحة على أن لويس قد عقد آمالا كبيرة على المستنصر ، وأيضا على استتباب الأمور بين قواته، ولم يضع فى حسبانه أنه بانتظاره كل هذا البلاء ، ولم يتصور أن يجعل منه المستنصر ألعوبة وأنه لم يكن صادق النية فى أى وعد قطعه على نفسه. والسؤال الذى يطرح نفسه هو كيف يمكن لرجل محنك مثل لويس أن يتصور ببساطة وبلاهة كل ذلك ؟ والشئ المحقق آن الحمى الدينية داخل لويس لنشر الدين المسيحى فى شمال افريقيا جعلته يستغرق فى أحلام اليقظة ويغمض عينيه عن الكثير من الحقائق الهامة التى تنفى وبشدة قبول المستنصر التواطؤ معه وتسليم بلاده

١- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج١١ ، لوحة ٣٧ ، وأيضا : Nangis, p. 445 .

إليه. وهذا، فضلا عن أنه لم يضع في حسبانه عامل الخبث والدهاء الذى كان يتعامل به المستنصر مع خصومه ، فكانت النتيجة أنه أوقعه في شراكه .

والمهم أن كل هذه المحاولات السلمية التي بذلها الصليبيون في استمالة أهل تونس إلى جانبهم قد باءت بالفشل وتيقنوا أن الأمور لن تحسم إلا بالقتال، وقد التمس الجميع من لويس السماح لهم بعدم الانتظار أكثر من ذلك والمبادرة باقتحام مدينة قرطاجنة ، كما أعلنوا لقائدهم أنهم سوف يتعاملون مع أهالى المدينة بأسلوبهم الخاص، وأقسموا على التنكيل بهم عقابا لهم على تعنتهم هذا[1]. فعلى الرغم من قصر المدة التى أمضتها الحملة قبالة تونس والتي لم تتعد أياما معدودات قبل الاشتباك العسكرى، إلا أن التداعى والانهيار داخل صفوف الجيش الصليبى أدى إلى ازدياد خطورة الموقف .

وبناء على ما تقدم ، لم يجد لويس بدا من الانصياع لرغبة القادة بمهاجمة القلعة والعمل على احتلال مدينة قرطاجنة ، خاصة بعد أن تأكد من نوايا المستنصر وعدم تغير موقف الأهالى منهم. وتقول الرواية أنه دخل على معسكر لويس عدد من كبار الأمراء والبارونات والفرسان معلنين عن رغبتهم فى تقدم بعض قطع الأسطول نحو القلعة ومحاصرتها من جهة البحر[2]. وقد وافق لويس على ذلك ، وتم اعداد خطة محكمة للحصار. وفى يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٣ ذو الحجة ٦٦٨هـ ، تقدمت القوات الصليبية نحو قلعة قرطاجنة وصدرت التعليمات بموعد الهجوم . ومن الغريب أنه على الرغم من أن صاحب تونس كان على علم بكل تلك الخطوات، إلا أن رد الفعل لديه كان سلبيا وتنقصه السرعة والحنكة لانقاذ الموقف وحماية تونس : وفى اعتقادنا أن المستنصر لم يكن جاهلا بشئون الحكم والحرب والسياسة لكى يتهاون فى حماية بلاده وترك للفرنج الفرصة للاستيلاء على المدينة وهو على يقين بأنه سيتمكن بعد فترة من القضاء عليهم لعلمه بالحالة التى وصلت إليها جيوشهم نتيجة الأمراض وقلة المؤن. فكان يعد نفسه ليظهر أمام خصومه من بنى مرين وبنى عبد الواد بأنه المنقذ لتونس من الضياع ، وأنه أحق من الجميع بوراثة الموحدين . وإلا فلماذا سكت المستنصر تاركا العدو يتقدم نحو البر، حيث كانت خطته التى اتفق عليها مع زعماء الأندلس والموحدين هى اعطاء

١- Nangis, pp. 448 ; Beaulieu , Op. cit., p. 22 .

٢- Nangis, p. 448 .

الفرنج الفرصة للتقدم نحو البر حتى يسهل عليه تصيدهم لا ليتركهم يستولون على المدينة. أما الآراء التى أشارت بتركهم فى البحر حتى تنفذ مؤنهم ويرحلوا ، فلم تلق أى تجاوب خشية أن يتجهوا إلى ثغر اسلامى آخر(١).

وبناء على ذلك ، صدرت الأوامر بحصار قلعة قرطاجنة الداخلة فى البحر وقد ركز الفرنج حصارهم لها بحرا فى الوقت الذى أغفل فيه المسلمون هذه الجهة، ووضعوا قوات قليلة لحصارها برا. وقد أشار نانجي ويؤيده في ذلك عدد من المؤرخين المسلمين أن «المستنصر كانت تنقصه الكفاءة العسكرية اللازمة لوضع خطة محكمة لحصار القلعة برا وبحرا. ويتساءل وكيف يهمل ذلك وهو يعلم بموقع المدينة بأكملها على الساحل». بل ذهب المؤرخون إلى ما هو أبعد من ذلك حيث قالوا أن هذا الاهمال من جانبه كاد يأتي على تونس بأكملها »(٢). وعلى هذا فقد تقدمت القوات الصليبية البحرية نحو القلعة واقتحمتها بسهولة دون وجود أى رد فعل اسلامى من داخلها ، وتمكن البحارة الصليبيون من صعود القلعة واعتصموا بداخلها لساعات طويلة حتى يمنعوا أى محاولة أو رد فعل من قبل المسلمين لاستعادتها. ولم يكن عدد القتلى بين الطرفين كبيرا لاختلاف خطة كل منهما. وأسرع الأمراء والبارونات بعد ذلك بنقل أعداد كبيرة من المرضى والمصابين الفرنج للعمل على توفير الرعاية الصحية اللازمة إليهم. كذلك قتل عدد من التونسيين ممن كانوا داخل القلعة أو المحيطين بها، كما سقط عدد آخر من المسلمين أسرى فى قبضة الفرنج مما يدل على سوء التخطيط العسكرى من جانب المستنصر لمواجهة ذلك الموقف. وقد ترتب على سقوط القلعة بهذه السرعة دون تقديم تضحيات كثيرة من قبل الفرنج، أثر على ارتفاع معنويات الصليبيين بصفة عامة ولويس على وجه الخصوص. وقد أصدر أوامره باليقظة التامة لأى مفاجأة من قبل المسلمين وأعلن لرجاله آنه ليس فى نيته خلال الأيام القليلة التي أعقبت سقوط القلعة القيام بأى عمل عسكرى آخر، وكان عليه تكريس جهوده للاستفادة من الأوضاع السائدة وقتها ، وعلاج المرضى الذين كان عددهم فى تزايد مستمر. ويذكر نانجى أن هذه الخطوة العسكرية الناجحة التى اتبعها الصليبيون ترتب عليها

١- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢ .

٢- Nangis , p. 448 .

وأيضًا ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ ، أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ (ب) .

استحواذهم على الأسلاب التى خلفها المسلمون وراءهم[1]. ويجب تناول هذه الرواية بحذر. فمن المعروف أن تلك المدينة كانت عبارة عن أطلال وغير آهلة بالسكان ، فهى بقايا مدينة قرطاجنة القديمة ، حتى الميناء التابع لها يبدو أنه أتى عليه وقت فقد فيها أهميته التى كان يتمتع بها فى العصر القديم. لذا فمن المستبعد أن تكون بها مخلفات ذات قيمة ، وأقصى ما يمكن الحصول عليه من الأسلاب آنذاك هو مخلفات الجند وبعض الأسلحة الخاصة بالحصار البرى للقلعة.

ومهما يكن، فمن الأمور التى لايمكن انكارها أن الصليبيين بنجاحهم فى الاستيلاء على قلعة قرطاجنة وطئوا أقدامهم فيها ، وتمكنوا من تكوين فكرة دقيقة عن أحوال المعسكر الإسلامى ونقاط الضعف فيه. ولكن هذا لايعنى التقليل من الجهد الذى بذله التونسيون فى الدفاع عن بلدهم . حقيقة كان هناك قصور فى خطتهم العسكرية، ولكنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه الأخطار التى حلت بهم . فيؤكد متى أوف وستمنستر قائلا «أنه ما إن وصلنا تونس لم نتوقع أبدا أن يكون المسلمون قد أعدوا من السفن الحربية ما أرهبنا ، وتيقنا من فشل خططنا للاستيلاء على بلادهم «ثم يؤكد» أنه بلغ من كثرة الأساطيل الإسلامية أننا كنا نعجز عن رؤية جزيرة سردينيا التى كان من السهل علينا مشاهدتها ونحن على ساحل تونس»[2] . إذن هذه اشارة أكيدة عن الاستقرار والازدهار اللذين كانت تنعم بهما تونس ، الأمر الذى كان يمكن أن يعينها على الصمود والدفاع عن القلعة . ويرجع سبب ضياعها إلى سوء التخطيط العسكرى والتناقض الواضح فى شخصية المستنصر وتصرفاته أولا وأخيرا . وأما عن رواية متى عندما قال إن من يقف على ساحل تونس يمكنه أن يرى جزيرة سردينيا ، فهذا معنى مجازى مبالغ فيه لأنه لايعقل أن تكون المسافة بين سردينيا وتونس ثلاثة أيام ومع ذلك يمكن رؤيتها بالعين المجردة. ولعل المقصود بذلك أن تونس هى أقرب المناطق الإسلامية لجزيرة سردينيا .

والمهم أنه فى صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٢٧٠م / ٥ ذى الحجة ٦٦٨هـ، أى بعد سقوط القلعة بيومين أعاد المسلمون تنظيم جيوشهم، وأحاطوا بالقلعة من كل جانب وقد ارتفعت

١- Nangis, Op. cit., p. 448 .

٢- Matt. of West. , vol II, p. 450 .

معنوياتهم ورغبتهم فى الاستشهاد من أجل انقاذها. وقد انتاب الفرنج الهلع «حيث أحاط بنا المسلمون وهم يصرخون عاليا بعبارات التهديد بأنهم سيفتكون بنا إن لم نرحل حالا عن أرضهم»[١]. ويتضح من عبارات التهديد هذه أنه لم يحدث صدام مسلح حقيقى بين الطرفين بعد سقوط القلعة ، بل اقتصر الأمر علي المناورات وجس النبض والاستطلاع التى قصد منها التونسيون استفزاز الجيش الصليبى واجباره على الرحيل. أما بالنسبة للمستنصر فكان رد فعله أن أرسل عشرة من كبار الفرسان بهدف ابلاغ الفرنج المعتصمين داخل القلعة بضرورة الرحيل عنها حتي لايفتك بهم»[٢]. ويبدو أن لويس لم يعبأ بهذه التهديدات حيث كانت خطته التالية هى الاستيلاء على ميناء قرطاجنة ، وهو أهم موقع بالمدينة لأن وصولهم إليه سيسهل عملية نزولهم إلى البر واحتلال المدينة بأكملها . والأخطر من ذلك أنه سيسهل أمر الاتصال بشارل كونت انجو شقيق لويس في صقلية، من أجل ارسال المساعدات والمؤن . ويبدو أن عملية الاستيلاء على القلعة قد شجعتهم لاحراز المزيد من النجاح واتخاذ كافة التدابير اللازمة للاستفادة من ذلك الوضع وقد غابت عن ذهن المستنصر كل هذه الأمور أو لعله تجاهلها مما أثار ضده عددا كبيرا من ملوك المسلمين الذين اتهموه بالتخاذل والتفريط فى بلاده. وأمام تطور الأمور بهذه الصورة أدرك المستنصر صعوبة الموقف ، وأن المشكلة لم تعد تقتصر على ضياع القلعة ، بل امتدت إلى مسألة الدفاع عن الميناء ثم المدينة بأكملها . ولم يضيع الصليبيون وقتا فى سبيل الاستيلاء على الميناء فبمجرد صدور الأوامر من لويس بهذا الخصوص ، تقدمت القوات الصليبية وحاصرت الميناء من كل جانب ، وبينما كانت جيوش المستنصر فى سبات عميق . ولم يحسبوا لعنصر الوقت والمباغتة أى حساب ، ولم يتعظ المستنصر من سقوط القلعة فى قبضة الفرنج بهذه السرعة ، مما أثار ضده فريق كبير من المؤرخين المسلمين الذين اتهموه بالتخاذل والضعف [٣]. والدليل على ذلك ، أن عملية الاستيلاء على الميناء لم تستغرق الوقت المتوقع لها، بل تمت أسرع من كل التوقعات لدرجة أن لويس

١- Nangis, Op. cit., p. 449 .

وأيضا مونروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٢-٣٥٤ .

٢- Nangis, p. 449 .

٣- Reinaud, Op. cit., p. 517 ; Nangis, Op. cit., p. 448 ; Cf . also : Michaud, Crois VI , p. 20 ; Sejor , Op. cit., pp. 155-156 .

نفسه لم يصدق الأنباء التي وصلته بهذا الشأن . ويقول نانجي «أنه ذهل في البداية ، ثم ظهرت على وجهه بعد ذلك أسارير الفرح» وأعلن على لسانه أنه لم يكن يتصور أن يتمكنوا بهذه السرعة من احتلاله وأنه قصد من هذه المحاولة الجادة تهيئة الظروف وجس النبض لدى المسلمين، وأن أقصى ما كان يتمناه أن يوفق جنوده في انزال بعض القوات إلى المدينة لاحضار حاجياتهم » [1]. أما عن التفاصيل العسكرية لاحتلال ميناء قرطاجنة ، فلم تسعفنا المصادر من عربية وأجنبية بالكثير منها سوى تلك الاشارات المقتضبة التي وردت على لسان نانجي بتقدم عدد كبير من الفرنج نحو الميناء وأنهم لم يجدوا أي رد فعل يحول دون احتلالهم له»[2].

بعد ذلك عقد لويس مجلسا طارئا حضره الأمراء والبارونات ، وقد غمرت الجميع الفرحة والتفاؤل لهذه الأنباء. ويقول نانجي «أنه حضر هذا الاجتماع وشاهد لويس يتهامس مع بعض المقربين ولايدرى حول أي شئ دار الحديث. ولكنه يرجح أنها مشاورات خاصة حول أفضل السبل الواجب اتخاذها للحفاظ على مكاسبهم العسكرية التي أحرزوها على حساب المسلمين». وقد دارت مناقشات علنية داخل المجلس ويقول نانجي «أنه لم يكن هناك أي خلاف بين المجتمعين فيما يتعلق بالخطوة التالية وهي الاستيلاء على المدينة نفسها، طالما أن الظروف في صالحهم ، خاصة وأن الاستيلاء على كل من القلعة والميناء قد تم بصورة سريعة وبدون تقديم أي تضحيات من قبل الفرنج . حقيقة أنهم كانوا يدركون أن المسلمين متربصين بهم، لكنهم استهانوا بهم وبخططهم الممزقة للدفاع عن المدينة مما أطمعهم في توجيه المزيد من الضربات إليهم.

١- Nangis, Op. cit., p. 448 .

٢- لم تتعرض المصادر الإسلامية لتفاصيل هذه الأحداث، وكل ما جاء فيها مجرد اشارات عابرة تفيد أن لويس هاجم تونس وضيق عليها الحصار، وكادت تقع في قبضته نتيجة عدم احكام المستنصر لخططه العسكرية انظر: المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٤ ، الكتبي: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٤-٨٥ ، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ ، ابن أبي دينار: المؤنس، ص١٢٨ ، المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٢ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ . راجع أيضا :

Eracles, Op. cit., p. 458 .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد نادى بعض الأعضاء الذين حضروا المجلس بضرورة الاهتمام بأمر الميناء والقلعة ، وارجاء أمر الاستيلاء على المدينة نفسها بعض الوقت حتى لاينشغل الفرنج بأكثر من جهة في وقت واحد، فيضيع الميناء من أيديهم لما له من أهمية قصوى بالنسبة للطرفين خاصة وأن الصليبيين تصوروا أنه باستيلائهم على الميناء سينفتح الطريق أمامهم إلى مصر ثم أفريقيا بأجمعها بعد ذلك[١]. ويبدو أن نشوة النصر جعلت أحلامهم تتزايد ولم تعد تقتصر على جبهة اسلامية معينة، مما يؤكد من جديد أن الهدف الديني لتلك الحملة كان شبه منعدم . وعلى الرغم مما أكده بعض المؤرخين الغربيين من أن تلك الحملة كانت تتميز بطابع ديني، فلماذا لم يذكروا أن نجاح الصليبيين في تونس سيوصلهم إلي بلاد الشام لتخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين وهو الهدف الأساسى للحركة الصليبية ؟ والاجابة بسيطة وهى أن استحواذ الفرنج على مصر وأفريقيا سوف يشفى غليلهم فى الحصول على مزايا اقتصادية وسياسية فضلا عن هيمنته الكاملة على ديار الإسلام. أما الدافع الدينى فهو الستار الذى اخفوه وراءه نواياهم الحقيقية.

هذا فضلا عن أن هؤلاء الغزاة قد بالغوا فى قيمة انجازاتهم بقرطاجنة . فمن المعروف تاريخيا أن هذه المدينة حسبما أسلفنا قد فقدت بريقها وأهميتها منذ زمن بعيد ، وأنهم جاءوا إلى اطلال وخراب وليس إلي مدينة منتعشة اقتصاديا حسبما كانوا يتصورون . بالإضافة إلى أن الميناء الذى علقوا عليه الآمال لم يكن يشكل قيمة اقتصادية كبيرة بالنسبة لتونس ، حيث أهمل أمره منذ فترة غير قصيرة . ولكن واجب الدفاع عنه من قبل المسلمين لا علاقة له بقيمته وقتذاك . بل تكمن الخطورة فى أن تحكم الفرنج فى الميناء سيسهل عملية نفاذ المسيحيين داخل تونس نفسها، ذلك أن المسافة بين تونس وقرطاجنة لم تكن تتعدى بضعة أميال[٢].

وبناء على ما تقدم ، أصبح الشغل الشاغل للصليبيين هو جس نبض التونسيين الموجودين على أرض قرطاجنة دون الدخول فى صراع دام معهم ودون تكريس أى جهد لعمل عسكرى

١- Nangis, pp. 448 ; Michaud , Crois , VI , pp. 20-22 ; Reinaud, Op. cit., p. 517 , also : Miller , Op. cit., t. II, pp. 43-44 .

٢- لاتزيد المسافة بين قرطاجنة وتونس عن ميلين، ولايوجد بها مكان آهل بالسكان إلا الأرض المرتفعة المعروفة بالمعلقة. وللمزيد أنظر: الادريسي: صفة المغرب وأرض السودان، ص١١١-١١٤ .

مباشر . وقد عين لويس لهذه المهمة شخصين هما فيليب دليس Phlippe de Laise والسير أوبالستين Sir Opalstin على أن تكون مهمتهما دخول المدينة ليلا والعودة فى الصباح إلى مقر قيادة الملك ويتم هذا يوميا لنقل الأخبار إليه أولا بأول[١] . ويتضح من هذه الرواية أن التونسيين أهملوا تماما الرقابة، لأنه كيف تمكن بهذه السهولة لمبعوثى الملك النزول إلى البر والتجسس على أحوال تونس ثم العودة إلى أسطولهم فى عرض البحر حيث مقر الملك دون أى مقاومة بحرية أو برية من قبل أهل تونس الذين يشتهرون بأنهم بحارة مهرة ومشهود لهم فى هذه المضمار. فكيف لايدركون أمر الجواسيس إن كان ثمة رقابة حقيقية لكل تحركات الفرنج. والحقيقة أن هذا الموقف المتخاذل من قبل التونسيين يناقض ما حاول بعض المؤرخين المسلمين اظهاره من أن التونسيين كانوا فى حالة استعداد تام وأن الطوارئ كانت على أشدها فى أنحاء البلدة[٢]. ويؤيد الرأى السابق بوجود اضطرابات فى خطط صاحب تونس .

والتفسير الوحيد لهذا التضارب هو أن التونسيين لم يفضلوا الالتحام مع العدو بدليل الاتهام الذى وجه إلى صاحب تونس بأنه يجب أن يتحلى بالشجاعة وأن يتحرك للدفاع عن بلاده وأن يكف من مداهنة العدو[٣]، لأن سلبيته هده وعدم دخوله فى معركة حاسمة لقمع العدو زادت من كراهية المسلمين له ، وخاصة الظاهر بيبرس سلطان مصر الذى تحرك من بلاده للدفاع عن تونس سواء بارسال المساعدات المادية والعسكرية أو العمل على توطيد كلمة المسلمين، وحث العربان والمغاربة والموحدين على ضرورة الجهاد للدفاع عن البلد وايقاظ المستنصر من غفوته التى ستأتى على الأخضر واليابس. ولكن ليس باستطاعتنا أن نجزم وبشكل نهائى بتواطؤ المستنصر كما اتهمه البعض . وكل ما فى الأمر أنه- من وجهة نظرنا- كانت تنقصه الحنكة السياسية والخبرة العسكرية للدفاع عن بلاده برا وبحرا ، رغم أنه لم يكن ينقصه أبدا الذكاء والحيلة فى التخلص من خصومه فى الداخل . ويتضح هذا فى مواقفه من

١- Nangis. Op. cit., p. 448 ; Reinaud, Op. cit., p. 517 .

٢- الكتبى : فوات الوفيات ، ج٢١ ، ص٨٣-٨٤ ، ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١، ابن الوردى : تتمة المختصر، ج٢ ، ص٢١٩ ، المقريزى: السلوك ج١، ق٢ ، ص٥٩٠ ، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ، ص١٩٦، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ص٢١٦ .

٣- ابن الفرات: تاريخ الدول، ج١٢، لوحة ٨٩ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٢٨ . أنظر أيضا :

Reinaud, Op. cit., pp. 517-518 .

العريان والخلوط وعميه اللحياني والمجدور ، فقد استعمل معهم كل الحيل والوسائل للقضاء عليهم جميعا . فضلا عن أن جماعة الموحدين والمغاربة الذين شاركوه فى الرأى بترك الفرنج ينزلون إلى البر ثم يتصديونهم بعد ذلك، ثبت أنه رأى خاطى بسوء خططهم العسكرية المخالفة تماما لكل تحركات لويس فكان لابد أن يثبت حسن نواياه ويسرع بالتحرك لانقاذ الموقف ولكن سكوته أكد بعض الاتهامات بخيانته وعدم وضوح مسلكه وخطته فى مواجهة العدو من البداية .

المهم أن الأخبار كانت تصل إلى لويس على نمط واحد، وهو استمرار الوضع على ما هو عليه. من وجود حالة استعداد عسكرى فى تونس دون أى محاولات فعلية لاسترجاع القلعة أو الميناء أو محاولة الالتحام مع أسطول الصليبيين فى البحر . وكانت هذه الأخبار دافعا للفرنج لاعداد الخطة المحكمة لمهاجمة مدينة قرطاجنة ومحاولة الاستيلاء عليها . وبالفعل تمكنوا من احتلال مناطق عديدة محيطة بالميناء. كانت خالية تماما من السكان بدليل أنهم لم يحصلوا على أسلاب تذكر من جراء هذه المحاولة. ويبدو أن الأهالى حين رأوا رجحان كفة الصليبيين. وضياع الميناء دون القيام بعمل عسكرى ، آثروا الرحيل بعيدا عن منطقة القتال حاملين معهم كل ما أمكنهم حمله من متاع ونفائس . ولم يكن عدد هؤلاء السكان كبيرا لأن المدينة ذاتها، كما سبق القول ، لم تكن عامرة بالأهالى [١].

ويقول نانجى «أنه يوم احتفالنا بعيد القديس يواكيم St. Joachin يوم ٢٩ يوليو ١٢٧٠م ٧ ذى الحجة ٦٦٨هـ كنا قد قمنا بجولة فى الأرض الجديدة التى تم الاستيلاء عليها قرب الميناء، وكنا نتجول بحرية تامة دون وجود أى عائق من قبل التونسيين. ولكن ظهر أمامنا فجأة عدد غير قليل من المسلمين بالقرب من برج مدينة قرطاجنة . ولم نقف مكتوفى الأيدى بل تعقبهم الفرسان الفرنجة حتى اضطروا إلى الصعود للاحتماء داخل البرج الذى لم نكن قد استولينا عليه بعد. وظل المسلمون محاصرون داخله حتى صباح يوم ٣٠ يوليو ١٢٧٠م (٨ ذى الحجة ٦٦٨هـ) وحين علم ملكنا بهذه الأخبار لم يرسل لنا المزيد من الأسلحة لاحكام الحصار حول البرج ، بل اكتفى بالتوجيهات فى الاستمرار فى الحصار»[٢]. ويبدو أن هذه الفئة من المسلمين

١- هم الفئة القليلة التى كانت تسكن بعض الأحياء المهجورة ومن أشهرها أرض المعلقة.

٢- Nangis, Op. cit., p. 449 .

كانت تحمل الأسلحة معها بدليل الاشارات التي أوردها نانجي من حدوث قتال حول البرج وسقوط عدد كبير من القتلى بين الطرفين. إلا أن القتال انتهى باستيلاء الصليبيين على البرج أيضا بالإضافة إلى القلعة والميناء. ولاتخلو هذه الرواية من المبالغة أيضا بهدف اظهار الفرنج بمظهر المنتصرين ، والتقليل من شأن المسلمين. والسؤال كيف دارت رحى هذه المعركة بينما كان هؤلاء الصليبيون يتجولون فى الأرض المحيطة بالميناء دون وجود أى تكتيك عسكرى لخطوة جديدة ضد المسلمين. والأرجح أن هذه المعركة كانت مفاجأة أوكمينا أعده المسلمون للفرنج فى الطريق وأسفر عن سقوط عدد من القتلى المسيحيين. لذا يجب تناول رواية نانجى بشئ من الحذر. كما يجب ألا ننسى أن أهالى المدينة ربما اشتعلت غيرتهم على بلدهم التى كانت على وشك الضياع ، فمارسوا صنوفا من الفداء والبطولة يأبى هذا المؤرخ أن يشير إليها حتى لايقلل من شأن بنى جلدته ، حيث تتضح من روايته أنه لم يكن هناك تخطيط عسكرى لاحتلال البرج ، بدليل أن لويس فوجئ بهذه الأخبار وأصدر أوامر سريعة بحصار البرج دون أى إعداد أو تخطيط مسبق. فكيف تحدث كل هذه الصور البطولية من قبل جماعة الفرنج وهم يتجولون فقط فى المدينة أثناء أحد احتفالاتهم الدينية ؟ فالأمر لايتعدى المناوشات المتفرقة التى نجمت عن نزول الفرنج أرض المدينة .

ومع ذلك ، لايمكن أن ننكر أن الصليبيين قد أحكموا خططهم بصورة أفضل من التونسيين، بدليل سقوط قرطاجنة فى أيديهم دون وجود عائق يحول دون ذلك وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين مروا على أحداث سقوط المدينة مرور الكرام ، ولم تتعد اشاراتهم عنها سوى « أن أفريقيا كادت أن تضيع جميعها بعد أخذ قرطاجنة »[1]. فقد كاد المسلمون أن يغلبوا وتضيع كل أراضيهم جهة المغرب[2] ، وأن المنقذ الوحيد للمسلمين لم يكن نابعا من رد الفعل العسكرى ضد الصليبيين بل نتيجة انتشار الأمراض بين صنوفهم والتى فتكت بهم [3]. فى حين أورد نانجى اشارات مقتضبة تفيد أن المسيحيين أعملوا فى المسلمين القتل. فكان هذا هو نهاية المطاف لكل من وجد منهم داخل قرطاجنة بأجمعها. إذ تمكن الفرنج بعد فترة قصيرة من

١- ابن الوردى: تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩، العينى: عقد الجمان، ج٢ ، ق٣ ، لوحة ٥٥٨ .

٢- أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٢٦ ، المقريزى: السلوك ، ج١ ق٢، ص٦٠٣ .

٣- ابن رسول : نزهة العيون، ج٢ ، ورقة ١٩٨-١٩٩، ابن الفرات : تاريخ الدول، ج١١، لوحة ٣٧ ، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص٢١٩ .

احتواء مدينة قرطاجنة بأكملها وحشدوا قوات هائلة داخل القلعة والميناء والبرج [١]، وأصبح المسلمون فى قلق شديد لمصير تونس بعد سقوط قرطاجنة بهذه السرعة وكانت العناية الإلهية وراء وقف تقدمهم نحو تونس عندما انتشر المرض داخل جيوشهم[٢].

لقد كان المستنصر فى وضع لايحسد عليه. وقد اهتزت صورته أمام باقى المسلمين، حيث اتهمه الجميع بسوء تقدير الموقف واستهانته بأمر الحملة. فالمدينة بتحصيناتها لم تسقط دفعة واحدة بل على مراحل رغم هذا لم تكن هناك انتفاضه قوية من قبله لمنع هذا البلاء ، بل ترك البلاد نهبا للويس وجيوشه وأصبح بوسع الملك الفرنسى التجول داخل قرطاجنة بحرية مطلقة دون وجو رد فعل قوى يوقف هذا الزحف الصليبى على باقى المدينة . وقد أهمل صاحب تونس أمر تحصين المدينة من جهة البر والبحر معا، على الرغم من أنها مدينة ساحلية فى المقام الأول مما أفقد التونسيين مدينتهم ، وأصبح الصليبيون قاب قوسين أو أدنى من احتلال تونس نفسها. وقد اتهم المسلمون المستنصر بأنه قد وضع البلاد فى موقف حرج حيث تعذر وصول الإمدادات والمؤن إليها بسبب الحصار الذى فرضه الصليبيون حول تونس .

حقيقة أن هذا الحصار لم يترتب عليه حدوث المجاعة فى تونس بعكس ما جاء فى روايات بعض من المؤرخين الغربيين، لأن تونس كما نعلم سبق وأعدت عدتها لتخزين الحبوب والمؤن بالإضافة إلى أن ميناء قرطاجنة لم يكن يشكل قيمة كبيرة بالنسبة لها. فلم يكن هو المنفذ الوحيد لتونس على البحر ولكن هذا لايشفع لصاحبها تقصيره فى أمر الدفاع عنها وتجنب شدة الحصار ووطأته. لقد توالت السفارات والمكاتبات من جميع الحكام المسلمين تهاجم المستنصر وتوبخه. ومما زاد الطين بلة «أن المستنصر ردا منه على شدة الحصار الذى فرض عليه قام بإرسال سفارة من قبله إلى لويس ومعها مبلغ ضخم من المال وصل إلى ٨٠ ألف دينار من الذهب بهدف رفع الحصار عن المدينة. وأخذ لويس هذه الأموال ووزعها كمكافأة على الجنود والفرسان والبارونات الذين أخذوا ينفقون منها ببذخ يحمل نغمة السخرية من موقف

١- Nangis, Op. cit., p. 449 ; Eracles, Op. cit., p. 458 .

٢- الكتبى : فوات الوفيات، ج١، ص٨٤-٨٥، السلوك : ج١، ق٢ ، ص٣٦٤ ، ٥٠٢ ، ابن الفرات: تاريخ الدول، ج١٢ ، لوحة ٧٤ ، محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

ملك تونس »(١). وقد تعجب المؤرخ رينو من موقف المستنصر قائلا » أنه بدلا من أن ينتفض ويثور على ضياع أرضه يمالئ عدوه بكل هذه الأموال(٢). ثم أين ذخائره وأسلحته؟»(٣).

وعلى أي حال، كان هذا الموقف المتخاذل من قبل المستنصر مدعاة لازدياد أطماع لويس فيه، وازدياد احكام قبضته حول بلاده التى أصبحت عرضه لخطر جسيم. وقد أحدث هذا قلقا كبيرا فى أنحاء العالم الإسلامي.. فحين وصلت هذه الأخبار مصر وجه السلطان الظاهر بيبرس رسالته القاسية للمستنصر يقول فيها «إن مثلك لايحق أن يلى أمور المسلمين، وأنه يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة والآباء وبذل كل الجهد للدفاع عن بلادك»(٤)، كما طلب منه الاستفادة من العربان والمغاربة لمواجهة الموقف وتكوين جبهة قوية للدفاع عن البلاد (٥).

ومن الطريف أن المستنصر رد على هذه العبارات القاسية بارسال هدية عبارة عن خمسة وعشرين جوادا . وقد أخذ بيبرس هذه الخيول ووزعها على الأفراد ولم يأخذ لنفسه منها شيئا، ولم يغير هذا من موقفه في مهاجمة المستنصر وتوبيخه، بل أرسل له ردا أشد قسوة من المرة الأولى، وأنكر عليه التظاهر بالمنكر واستخدام الفرنج عونا على المسلمين كما استنكر عليها ما

١- سبق أن أشار المقريزى إلى موضوع هذه الأموال التى دفعها المستنصر إلى لويس قبل وصوله تونس، وأن لويس أخذها وأصر على غزو البلاد والأرجح أن هذه الأموال دفعت بعد الحصار وليس قبله وذلك لسوء تقدير المستنصر لخطورة الموقف. أنظر المقريزى: السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص٢٦٤-٢٦٥ . وأيضا : Reinaud , Op. cit., pp. 517-518 .

٢- Reinaud , p. 518 .

٣- لقد اعتاد المستنصر وقت الحروب اخراج الآلات الحربية من خزائنه وتفريقها على الرجال، وعندما تنتهى الحرب يعيدها إلى خزائنه ويصلح ما فسد منها. كما كان معروفا عنه أنه يغدق الأموال على عمارة الشوانى والعمائر. أنظر اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٨٨ب ، الفيومي: نثر الجمان ، ج٢، ورقة ١٩٠ أ.

٤- لم يتسن لنا العثور على نص تلك الرسالة وكل ما ورد عنها أنها أرسلت ردا على المكاتبة التى بعث بها المستنصر مع أبى عبدالله محمد بن الراس أثناء حصار الحملة لتونس ، أنظر ابن القنفذ: الفارسية فى تاريخ الدول الحفصية ، ص١٣٢ .

٥- سبق أن لبى البربر النداء الذى وجهه إليهم بيبرس بالتكاتف مع المستنصر في مواجهة قوات الحملة، ولكن سوء الخطط التى وضعها المستنصر لحماية بلاده هى التى أوصلته إلى هذا المصير، أنظر المقريزى السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩ ، أيضا : Reinaud , Op. cit., p. 517 .

دفعه من أموال طائلة للويس فى وقت كانت فيه بلاده فى أمس الحاجة إليه. ومن بين العبارات التى وجهها إليه قوله «لقد كان من واجبك ضرورة الخروج للدفاع عن بلدك حتى ولو متخفيا ... وكيف تخاف وأنت فى عساكرك»؟[1]. وحاول المؤرخون الغربيون تفسير موقف المستنصر هذا بأن عدم مواجهته لهم يرجع إلى نواياه الخفية التى تتجه للتحالف معهم ، وأنه يحاول أن يخفى رغبته خوفا من أتباعه وخصومه فى الداخل ، وخشية من حكام المسلمين فى الخارج. وقد اعتبروا أن المحاولات والعبارات التى هددهم المستنصر بها لاتخرج عن كونها ستارا لاخفاء مشاعره الصادقة حيالهم. يشير نانجى فى هذا الصدد قائلا «إن وصولنا تونس قد أضاع على المستنصر أى فرصة لكى يرفض استقبالنا ، وأنه رد على مبعوث ملكنا ردا سريا لم يعلمه أحد من قادة المسلمين، يفيد موافقته على نزول لويس على أرضه والاقامة فى بلاده بصفة دائمة ودون أى مشاكل»[2].

ويتضح من رواية نانجى الكثير من التضارب . فاذا كان المستنصر قد راسلهم سرا وأبدى استعداده لتسليم بلاده إليهم ، فلماذا تردد واستعد لهم عسكريًا ؟ ولماذا يستقبل مبعوثهم ثم يشعر بالحرج ويراسلهم سرا؟ وهو يعلم أن الأمر ليس بيده وحده ولكن أعوانه وحكام المسلمين وأهالى تونس أنفسهم هم أصحاب الحق فى تقرير مصير بلادهم[3]. هذا كله مرجعه إلى التواء سياسة المستنصر وخبثه مما جعله عرضه لهذا الهجوم من قبل المؤرخين. ويذكرنا خبثه ودهاؤه بما قاله أحد الجغرافيين العرب حين زار تونس «بأن أهلها مشهورين باللؤم والخبث»[4]. ويشبه موقف المستنصر هذا بمن أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد. فقط ظهر أمام شعبه بأنه ناقم على لويس وجيوشه، وأنه على أهبة الاستعداد لسحقه، وفى الواقع

١- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج٢، لوحة ٨٩ ب.

٢- Nangis, p. 447 ; Reinaud, p. 517 ; Michaud , Op. cit., p. 20 ; Cf. also : Hassel , Op. cit., p. 36 ; Archer and Kingsford, p. 40 ; Miller, pp. 43-44 .

٣- ذكرنا فى الفصل الأول أن أمر دخول المستنصر فى الدين المسيحى كان من محض خيال المؤرخين الغربيين فقط، لأن كل الظروف داخل تونس كانت فى صالح المسلمين ولايمكن فى ظلها تقديم مثل هذه التنازلات .

٤- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ، ١٩٦٠، ص١٧٣ .

فإنه، لم يصدر أمرا واحدا للتحرك الفعلى والدفاع عن المدينة مما أظهره أمام الأعداء والأصدقاء بمظهر المتواطئ مع لويس والفرنج.

وقد نجم عن كل هذا كما سبق القول ازياد خصوم المستنصر ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحدين ، الأمر الذى جعله يفكر فى اتخاذ ما يراه لمصلحته فحسب وكان موقفه هذا مدعاة لتضارب آراء المؤرخين الغربيين فيه. فيؤكد متى أوف وستمنستر «بأن المستنصر قد أعد حشودا هائلة استعدادا للقائهم»[١]. ويؤكد هذا أحد المؤرخين الغربيين الحديثيين «أنه عديم الأمانة وأنه أوقع المسيحيين فى شراكه ولم يظهر أى علامة قاطعة على دخوله فى المسيحية»[٢]، فى حين يذكر مؤرخ ثالث «أن ثمة مراسلات سرية كانت قائمة بين المستنصر ولويس لم يكن يعلم بها أحد من ملوك المسلمين»[٣]، بينما يرسل فى العلانية مبالغ طائلة إلى لويس يثير بها أحقاد الملوك والمؤرخين المسلمين ضده [٤]، مما اضطر بيبرس إلى توجيه عبارات قاسية إليه مطالبا اياه بضرورة التحلى بالشجاعة والانضمام للعرب فى كل مكان لمجابهة العدو[٥].

ويبدو أن المستنصر قد ابتعد عن عربان افريقيا خوفا منهم. فلا يجب أن ننسى ما كان بينه وبينهم من صراع فى بداية حكمه، وكيف أنه خدعهم جميعا وتخلص منهم بقتل زعمائهم. كان هذا العداء المزمن بين الفريقين كفيلا بألا يفكر فى طلب مساعدتهم معتمدا على جنده. ولكن هذا لايعفى المستنصر من المسئولية. فإن السياسة التى سار عليها تدل على قصر نظره، لأن العربان بعد أن استأصل شأفتهم أصبحوا فى وضع لايفكرون فيه فى الانتقام منه، فضلا عن كراهيتهم للعدو الصليبى. فالصراع بين المسلمين والافرنج بالأندلس أثر موقعة العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت ذكرياته لاتزال ماثلة فى الأذهان[٥]. ولذلك فإنه من غير المستبعد ألا يلبى هؤلاء دعوة المستنصر لمجابهة العدو المشترك ونسيان الخلافات القديمة بينهما .

١- Matt. of West., vol II, p. 54 ; Reinaud , pp. 517-518 .

٢- مونروند: الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٥٢ .

٣- Nangis, p. 447 .

٤- العينى : عقد الجمان، ج٣ ، ق٣ ، ورقة ٥٨ ب.

٥- العينى: عقد الجمان، ج٢ ، ورقة ٧ .

ومهما يكن ، فإن موقف صاحب مصر الذى تمثل فى تلك العبارات الشديدة اللهجة التى وجهها إلى المستنصر كان له أثره. إذ سعى صاحب تونس جاهدا للعمل على محو هذه الاتهامات عن نفسه وبذل المزيد من الجهد فى سبيل الدفاع عن بلاده . واستقبل أعدادا ضخمة من الجيوش التى قدمت إليه من مصر والسودان والمغرب وغيرها من البلاد. وكانت خطته هى العمل على احكام الحصار حول جيوش الحملة، ومنع وصول الامدادات إليها والحيلولة دون وصول الأدوات اللازمة لعلاج المرضى داخل السفن أو داخل القلعة وكذلك العمل على تصيد الفرنج فرادى دون الدخول فى معركة سريعة وحاسمة معهم. وذكر العينى أنه عقب احتلال الصليبيين لأرض المعلقة، «اجتمع المستنصر بالقادة والزعماء التونسيين وغيرهم من ملوك المسلمين للمشاورة فى أحسن السبل لرد هذا الهجوم ورفع الحصار»[١]. وترتب على هذا أن تقدم المستنصر وتحت امرته عدد ضخم من جيوش المسلمين وحاصروا القلعة[٢]. ويبدو أن عدد الفرسان والرجالة والخيول كان من الكثرة بحيث أرهب جيوش الصليبيين. إذ يقول نانجى «إن المسلمين قدموا بأعداد ضخمة وبدأوا فى التحرش بنا، وكانوا تحت امرة المستنصر صاحب تونس نفسه الذى بدأ واضحا أنه ليس على استعداد للاحتكاك المباشر بنا. ولكن فجأة تغير موقفه وتوقف عن هذه المناوشات الباردة وظهرت رغبته فى القتال وحين رأى قومنا ذلك بدأوا فى حمل السلاح، وأصدر الملك أوامره بعد عقد مجلس عسكرى طارئ بأن يستعد الجميع لمواجهة هذا الموقف . كما قام على الفور بترحيل الأميرات ومنهن أميرة أرتوا Artois إلى السفن الموجودة فى البحر ...» ويستطرد قائلا «أنهن رحلن قبل أن يتمكن المسلمون من رؤيتهن أثناء خروجهن بعيدا عن القلعة. وقام كل من الوزير بيير شاميرلين Pierre Le Cham-pirlait والوزير عمورى دى لاتوش Amury de Latuch بحراسة الملكات ، وتأكدا من عدم تعقب المسلمين لهن»[٣]. وبادر لويس بزيادة التحصينات العسكرية حول الميناء والبرج. وبدأ فى تحصين الطرق والشوارع المؤدية إلى القلعة. ويبدو أن المسلمين أحكموا حصارهم أيضا حول الميناء، لأن تحصينات الفرنج العسكرية له لم ترهبهم ، واتخذوا كافة السبل لمنع وصول الامدادات إلى لويس ورجاله .

١- العينى: عقد الجمان، ج٢، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ .

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج٣، لوحة ٧٤ ، ابن خلدون: العبر، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢، أنظر أيضا : Matt. of . West ., vol ., II. p. 540 .

٣- Nangis, pp. 453-455 .

يضاف إلى ذلك أن خطة صاحب تونس كانت تستهدف ضرورة تخليص الميناء من قبضة الفرنج ، لأن استمرار وجودهم فيه على المدى البعيد ربما يعرض تونس لمحنة اقتصادية[١]. فميناء قرطاجنة كان يعد الميناء الأول في حوض البحر المتوسط . حقيقة لقد فقد بريقه في تلك الآونة ولكن هذا لايمنع من خطورته وأهميته الاقتصادية بالنسبة لتونس[٢]. وهو بالنسبة للويس بمثابة المنفذ الآمن الذي يمكنه من الحصول على الامدادات والعتاد من أخيه شارل كونت أنجو أو من بقية ملوك أوروبا. هذا فضلا عن أن المستنصر قد أدرك بعد فوات الأوان التأثير الذي فعلته أمواله الطائلة التي دفعها للويس إذ أدت إلى وجود حالة من الانتعاش في معسكره ، كما سهلت حصوله على المؤن من الميناء عن طريق الشراء، بينما ساد الاضطراب المعسكر الإسلامي واختل اقتصاديا .

والمهم أن هذه الخطوة الجريئة من قبل المستنصر كانت ذا أثر عظم وفقا لرواية العديد من المؤرخين العرب ، ومفادها أن الصحوة المتأخرة للمستنصر قد آتت ثمارها وأحدثت قلقا شديدا في المعسكر المسيحي. كما بذل صاحب تونس قصارى جهده لتغطية نفقات هذا الهجوم، وأخرج من خزائنه الأموال الطائلة وقطع السلاح ووزعها على الجند، لدرجة ان ابن أبي دينار انتقد المستنصر في هذا قائلا «لقد كانت تلك الحملة سببا في اتلاف الأموال الطائلة التي تركها أبو زكريا لابنه المستنصر»[٣]. كذلك شهدت شوارع تونس صحوة وطنية أخرى تزعمها الشعراء والأئمة في المساجد وألقيت الخطب بهذا الشأن.

وفي هذا الصدد يحاول نانجي أن يوهم بأن بعض أهالي تونس كانوا عيونا للويس، وهم من علية القوم، وكانوا ينقلون إليه كل الأخبار الهامة عن أحوال تونس . ففي هذا الشأن يقول «أن من بين عيون لويس قوم من المسلمين من كبار الفرسان في الجيش الإسلامي»[٤].

١- وردت اشارات متفرقة للمؤرخين المسلمين أوضحت الشدة التي مرت بها تونس من جراء ذلك. أنظر:
Reinaud, pp. 517-518 .

وأيضا العيني: عقد الجمان، ج٢ ، ق٣ ، ورقة ٥٥٨، الكتبي: فوات الوفيات ، ج١ ، ق٢ ، ص٨٤-٨٥، المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤، محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٢- يسرى الجوهري: أفريقيا، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٣٠٣ ، جمال الدين الدناصوري: افريقيا ، ص١٤٣ .

٣- ابن أبي دينار: المؤنس ، ص١٢٨ .

٤- الكتبي : فوات الوفيات، ص٨٤-٨٥ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٨ : ابن اياس : تاريخ مصر، ج١ ، ص٨٧-٨٨ .

بل الأكثر من ذلك أنه يورد اشارات واضحة تدل على تواطؤ عسكرى بين هؤلاء ولويس فيما يتعلق بحصار المستنصر للقلعة والميناء. يقول «إننا اثناء تشديد الحصار حول مدينة قرطاجنة وصل فجأة إلى مقر الوزير يوحنا صاحب عكا[١]، بعض المسلمين وطلبوا رؤية المندوب البابوى فى الحملة، وأنهم فعلا صعدوا احدى السفن بصحبة الفرسان المسيحيين واتجهوا فى عرض البحر... وهناك أعلن هؤلاء الفرسان الثلاثة رغبتهم الحقيقية فى دخول الدين المسيحى ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم. وقد وصل هذا الخبر إلى لويس الذى أمر بتشديد الحراسة عليهم وعدم اتاحة الفرصة لهم للاطلاع على أحوالهم ، مع تأجيل عملية تنصيرهم لبعض الوقت . هذا ، فى الوقت الذى قدم فيه مائة آخرون من المسلمين وقد ألقوا بسلاحهم وأبدوا من مظاهر الولاء مثلما فعل الآخرون ، وكرروا نفس الرجاء فى طلب دخول المسيحية. أما هؤلاء المسلمين فقد سبق لهم أن قتلوا ٦٠جنديا مسيحيا فى شوارع تونس قبل وصولهم إلى المعسكر الصليبى.

وعلى أى حال، صدرت الأوامر بدخولهم فى المسيحية، وقد أحس لويس بتسرعه فيما يتعلق بهذه المسألة ، وأنه كان يتعين عليه أن يتوخى الحيطة والحذر. ولعله أقدم على ذلك نتيجة اهتمامه الشديد بأمرهم حيث كان بينهم أفراد من علية القوم فى تونس [٢].

وليس هناك ما يدعم هذه الرواية فى المصادر المعاصرة والمتأخرة نسبيا عن موضوع البحث من عربية وغير عربية. وواضح أن هذه هى السياسة التى انتهجتها السلطات الدينية والدنيوية فى الغرب زمن الحروب الصليبية ، والتى تنحصر فى محاولة صبغ العالم العربى الإسلامى بصبغة مسيحية كاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية أو الحملات العسكرية إذا اقتضى الأمر. ولذلك تعتبر عملية نشر الكثلكة فى العالم العربى الإسلامى جزءا لايتجزأ من الحركة الصليبية نفسها، وهدفا أساسيا من أهدافها .

١- يقصد نانجى يوحنا صاحب عكا وهو أحد افرنج الشرق الذين قدموا من عكا للعمل تحت امرة لويس فى هذه الحملة. وأما لفظ وزير فهو غير صحيح أما قوله بأن هؤلاء كانوا مسلمين ففيه الكثير من الغموض والمبالغة لإظهار المسلمين بمظهر التخاذل والتراجع عن دينهم الإسلامى .. وهى رواية تكررت كثيراً فى هذه الآونة لأغراض دينية مسيحية بحتة وللمزيد أنظر : Eracles, p. 458 .

٢- Nangis, p. 453 ; Beaulieu Op. cit., pp. 24-26 .

ويستمر نانجى فى روايته قائلا «أن لويس استدعى أحد المترجمين لترجمة العبارات التى كانوا يرددونها ترجمة حرفية. ونقل المترجم إلى لويس ما يقصده هؤلاء المسلمون وأبلغهم أن الملك لايشك فى نواياهم فى الدخول فى الديانة المسيحية سواء كانت هذه رغبتهم الشخصية، أو رغبة ملكهم نيابة عنهم ، وأن الملك من ناحيته سوف يتحرى بطريقته الخاصة لمعرفة صدق نواياهم ورد الفرسان عليه قائلين «سيدى أننا نعلم جيدا خطورة الأمر، وضرورة التأكد من ناحيتكم ولكن يوجد بيننا اثنان من علية القوم وذوى المكانة لدى ملك تونس ... ولدينا من الفرسان عددا يأتمرون بأمرنا . وصحيح أنكم تملكوننا الآن ... وإن ما وقع من صراع وأحزان فهذا بسبب ما بين ملككم وملكنا ... وكنا ننفذ ما نؤمر به ، ولم يكن قصدنا ازعاجكم أو التسبب فى الحاق الأذى بأى منكم. وإن كنتم مصممين على التحرى عنا فاتركوا واحدا منا يذهب إلى قومنا وإن لم يعد وتحت امرته الفين من المسلمين على أتم الاستعداد للدخول هم أيضا فى المسيحية وأن يكونوا تحت امرتكم وفى عونكم ، فعليكم أن تفعلوا بنا ما تشاءون».

ويبدو أن كل ما قاله هؤلاء لم يحظ باهتمام الملك الفرنسى الذى لم يقتنع بحديثهم. ولذلك أمر بالسماح لاثنين من الفرسان بالذهاب وأبقى على الفارس الثالث الذى ذكر هذا الكلام. ويسترسل نانجى فى روايته قائلا «بأنهم ذهبوا فعلا على وعد بالعودة فى اليوم التالى ومعهم عدد كبير من إخوانهم المسلمين للدخول فى الدين المسيحى حيث أعلن هؤلاء التونسيين أن من سيحضر معهم ممن يفضلون الديانة المسيحية على الانخراط فى صفوف ملك تونس». يتضح لنا من روايته اصراره الدائم على قلب الحقائق لصالح معسكره- فعلى الرغم من اعترافه بتكتل الجيوش الإسلامية ومحاصرتها للمعسكر الصليبى،[٢] ، الأمر الذى أوجد حالة من القلق والارتباك فى صفوف الصليبيين، إلا أنه يحاول أن يتخذ من كل خدعة أو موقف مفتعل من قبل المسلمين قصة ينسج خيوطها من وحى خياله تحقيقا لأغراض خاصة تخدم القضية الصليبية.

وكيفما كان الأمر، فمن المرجح أن هؤلاء الفرسان كانوا قد وقعوا فى الأسر أثناء احدى العمليات العسكرية الثلاث التى استهدفت احتلال القلعة والميناء ثم المدينة. ومن الطبيعى أن

١- Nangis, p. 453 .

٢- Nangis, p. 453 .

راجع أيضا : العينى: عقد الجمان، ج١، ق٢، ص٥٨٠. ابن الفرات : تاريخ الدول، ٣، لوحة ٧٤ .

يحاول هؤلاء الخروج من أزمتهم حتى لو كان هذا بايهام الفرنج برغبتهم في الدخول فى المسيحية. ومما يؤكد أنهم أسرى تلك العبارة التى ذكرها نانجى «بأن هؤلاء سبق وقتلوا ٦٠ من جنودنا»، مما يدل على أن العلاقة التى ربطت بينهم وبين الفرسان المسلمين هى ميدان المعركة. ثم كيف يمكن أن تقبل روايته هذه فى الوقت الذى بدأ فيه مركز الثقل يتحول لصالح المسلمين عندما هبت تونس- عن بكرة أبيها ، حكومة وشعبا، للتخلص من براثن الأعداء، الأمر الذى لايمكن أن ينجم عنه انحياز أهل تونس للفرنج بعد أن رأوا الموقف فى صالحهم . يضاف إلى ذلك أن نوعية هؤلاء الفرسان لايمكن أن تهدر من كرامتها وكبريائها . ولكن نانجى أبى الاعتراف بهذا، كما أنه يحتمل أن يكونوا عيونا على لويس وجيشه لصالح بلدهم تونس ونستبعد تماماً رغبتهم فى دخول المسيحية كما تخيل نانجى .

وعلى أى حال ، فقد كثف لويس نشاطه فى هذه الفترة من حصار المسلمين له ولجيشه ، وأدرك أن الأمر لن ينتهي باستسلام المستنصر والاستيلاء على بلاده كما كان يأمل . فبدأ على الفور في مراسلة ملوك الفرنج فى الغرب، وأخذت النجدات تصل إليه من صقلية. ويبدو أنه كان ينتظر المزيد من أخيه شارل، وكان يتمنى أن يحضر هو شخصيا بجيوشه لانقاذ الموقف ، خاصة وأن المستنصر رد على تحركه هذا بإرسال مطالب عاجلة إلى كل ملوك المسلمين لمساعدته في مواجهة الموقف . ووصلت إليه امدادات كثيرة ومن جهات عديدة . يروى ابن خلدون «أنه وصلت قوات أبى هلال صاحب بجاية ، وجاءت جموع العرب من كل ناحية ووصلت امدادات من سدويكش وولهاصته وهوارة وأمده ملوك المغرب من زناته [١]، وأوفد إليه محمد عبد القوى عسكر بنى توجين ، وأخرج السلطان أبنيته وعقد اللواء لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمتطوعة وهم اسماعيل بن أبى كلداش وعيسى بن داود ويحيى بن أبى بكر، واجتمع عدد لايحصى من المسلمين وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة أمر الجهاد ضد قوات لويس بأنفسهم والتزم والسلطان المستنصر القعود فى ايوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعودو ابن أبى الحسين وقاضيه أبو القاسم البراء[٢]. ويتضح من رواية ابن خلدون الاعداد المنظم والجهد المكثف الذى استمر صاحب

١- سدويكش وولهاصته وهواره وزناته وصنهاجة وسرطة وترجه ، ومداسة ، ورزيقة وغيرها هى اسماء لأشهر قبائل البربر ببلاد المغرب العربي. انظر ابن حوقل : صوت الأرض ، ج١ ، ص١٠٥-١٠٧ .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢ ، راجع أيضا : أبو المحاسن : المنهل ج٢، ورقة ٣٥٩ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٦ .

تونس فى تقديمه من أجل انقاذ بلاده نتيجة سلبيته . وقد قسم وقته ما بين تنظيم الجيوش بنفسه ، ومباشرة مهام الحكم، وتلقى المساعدات وارسال طلبات إلى المسلمين يستنجد بهم ضد العدو والدخيل. وهذا أيضا يعزز ما سبق أن بيناه من أنه لم يكن مصافيا للملك لويس التاسع أو متفاهما معه للحد الذى صورته بعض المصادر من عربية وافرنجية ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الانتفاضة للدفاع عن تونس ذات أثر كبير فى ارجاء سقوطها فى قبضة لويس، كما عملت على شل حركة المعسكر الصليبى . واضطربت أحوال لويس وأدرك أن المسلمين قد عادوا شأنهم الأول من حيث القوة . وتعددت الاجتماعات بين الملك ومستشاريه ، وبفضل خبرته السياسية فى ميدان الحرب ضد المسلمين ، فقد شعر بأن الحملة تقترب من نهايتها المحتومة . وأصبح لويس فى حيرة من أمره[1] هل يهتم بالمرضى ومن هم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ؟ أم يهتم بالأصحاء الموجودين داخل القلعة أو فوق ظهر السفن فى عرض البحر يعانون من شدة الجوع ؟ أم يهتم بالحفاظ على ما استولى عليه من أملاك المسلمين ويتصدى لهم بكل قواته ؟ أم يترك نفسه للألم والحسرة على موقف أخيه شارل السلبى منه؟ فقد أخل شارل بكل وعوده لأخيه فى وقت أصبح فيه المعسكر الصليبى كله فى أمس الحاجة إليه. بل الأخطر من ذلك كله تلك الأخبار التى كانت تصله بين الحين والحين عن موقف مصر الإيجابى من الحملة، واستعدادها لملاقاته سواء داخل مصر أو خارجها، والإمدادات الضخمة التى كانت تمد بها صاحب تونس . فكان هذا مدعاة لانهيار معنوياته إلى أبعد الحدود، وضياع أى أمل لديه لمحو عار الذل والهزيمة التى لحقت به على ضفاف النيل، خاصة وأن مصر بقيادة بيبرس أصبحت الشبح الذى يهدد الفرنج كافة. فكان الشغل الشاغل له هو القضاء على جذور هذه الحملة ووأدها وهى لاتزال فى المهد . ولذا ركز جهوده فى أمرين رئيسين : أولهما ارسال المساعدات المادية والعسكرية لصاحب تونس، واسداء النصح والارشاد له فى كل خطواته لمواجهة الحملة مما يؤكد أن المستنصر كان يفتقد الحنكة العسكرية وثانيهما العمل الدؤوب على تصفية الوجود الصليبى ببلاد الشام بما فى ذلك القضاء على حملة الأمير ادوارد التى تواترت الأخبار عن قرب وصولها إلى بلاد الشام، والتى كانت تمثل ضلعا رئيسيا لحملة لويس على تونس، بل هى الجناح الأيمن لها ببلاد الشام ، وقبل كل هذا تهيئة الجبهة المصرية وتعزيزها استعدادا لملاقاة العدو إن فكر فى تحويل وجهته شطر مصر .

١- Nangis, Op. cit., p. 455 .

ولقد شهد عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م نشاطا مكثفا من قبل بيبرس ضد الصليبيين ببلاد الشام، فقد شنت القوات الإسلامية عدة غارات على طرابلس استطاع بيبرس من خلالها انتزاع العديد من الحصون والمعاقل هناك [١]. ولكنه ركز هجماته على معاقل الداوية والاسبتارية بهدف تصفية وجودهم وابطال دورهم الخطير ضد المسلمين فى الشرق الأدنى. فقد هاجم حصن الأكراد[٢]، وانضم إليه كل من صاحب حماة وصاحب صهيون وغيرهما من الأمراء المسلمين التابعين له . وتمكن من القضاء على وجودهم داخل الحصن بعد أيام قليلة من الحصار[٣]، ، الأمر الذى أضعف شوكتهم. وترتب على ذلك أن أسرع عدد كبير من القادة المسيحيين فى طلب الهدنة وعقد الصلح مع بيبرس مثل صاحب انطرسوس .

ولكن هذا لم يوقف من نشاطه ضدهم ، فقد استرجع العديد من المعاقل التى كانت بحوزتهم وهى مناصفة مع المسلمين ، كما فرض حصارا شديدا على قلعة المرقب[٤] التابعة للاسبتارية [٥]. وبذا أحكم قبضته على كل الطرق المؤدية إلى طرابلس. الأمر الذى أزعج صاحبها بوهمند السادس Bohemond VI ودفعه إلى بذل كل الجهد فى سبيل عقد معاهدة صلح مع بيبرس حتى يتمكن من الاحتفاظ بما تبقى له من مناطق نفوذ [٦]. وحقيقة الأمر لم يكن بيبرس يسعى لعقد أى تحالفات معهم ، بل كان هدفه هو اجتثاث جذورهم أينما وجدوا[٧].

١- المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٠ .

٢- حصن الأكراد: هو الحصن الرئيسى للاسبتارية وكان تابعا لحاكم «طرابلس» ويحمى الممر الرئيسى الذى يصل ساحل لبنان الشمالى بسوريا وكان هذا الحصن فى طليعة الحصون التى بنيت لتسيطر على الممرات التى امتدت بين الأقاليم الإسلامية والمناطق المسيحية الداخلية أنظر فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان، ج٢ ، ص٢٤٥ .

٣- المقريزى : المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩١-٥٩٢ .

٤- المرقب : ثغر منيع على جبل شاهق مطل على البحر ، والحصن كبير مثلث بناه الرشيد ثم ملكه النصارى ثم استعاده المسلمون. أنظر الدمشقى نخبة الدهر، ص٢٠٨ ، وأيضا : فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان ، ص٢٤٥ .

٥- ابن أيبك : كنز الدرر، ج٢، ص١٦٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص٤٣٧ (أ-ب) .

٦- العينى : عقد الجمان ، ج٢ ، المجلد الثالث ، ورقة ٥٥٦ .

٧- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٥٩٠ .

ولكنه اضطر إلى عقد الصلح معه عندما بلغته الأنباء بقرب وصول حملة الأمير ادوارد[١]. فلم يشأ بيبرس أن يضيع هذه الفرصة حتى يتفرغ تماما لمواجهة تلك الحملة ، ومع ذلك لم يقدم أي تنازلات فى هذه المعاهدة[٢] ، بل أعيد فقط توزيع مناطق النفوذ لكل منهما . فأصبحت عرقة وجبيل[٣] ، وأعمالهما لصاحب طرابلس وأن تؤول نصف غلات انطرسوس والمرقب وبانياس للسلطان الظاهر بيبرس والنصف الآخر للداوية والاسبتارية . وتعود بعرين [٤]، وحمص القديمة لسلطان مصر .

وفى حقيقة الأمر ، فإن بوهمند لم تتوافر لديه النية الصادقة تجاه بيبرس بل أراد فقط من وراء هذه الهدنة أن يلتقط انفاسه ليكيل له الضربات من جديد ، مستغلا فى ذلك أنباء وصول حملة الأمير ادوارد. فضلا عن أنه أسرع إلى أبغاخان المغول فى فارس وحاول أن يقنعه بضرورة القيام بعمل مشترك ضد بيبرس . ولكن ابغا رد عليه قائلا «انك ما جئت إلا لتخوفنى منه ، وتنفرنى عنه ، وتملأ قلوب عساكرى رعبا وخوفا» . فكان موقف المغول من بيبرس على

١- سوف أتناول أخبار هذه الحملة بالتفصيل فى الفصل الخامس .

٢- انفرد السلامى فى مختصر التواريخ بتحديد مدة هذه الهدنة بخمس سنوات فقط، بينما أجمع الآخرون على أن مدتها عشر سنوات أنظر السلامى: المصدر السابق، ورقة ٦٧ ، بيبرس الداودارى : زبدة الفكرة ، ج٩ ، لوحة ٩٨ ، راجع أيضا محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس، ص٨٤ ، السيد عبد العزيز سالم، ص٢٧٠ .

٣- بخصوص موضوع دخول جبيل فى طاعة بوهمند بمقتضى هذه المعاهدة فمن المعروف أنها كانت فى صراع شديد مع كونتية طرابلس، ولم ينس سادة المدينة من أسرة امبرياتشى ما فعله بوهمند ضد برتراند ابن عم هنرى امبرياكو صاحب جبيل ، الذى أعلن صراحة استقلال جبيل تماما عن طرابلس وأن يكون لديها السيادة المطلقة دون وساطة من أحد، الأمر الذى جعل من جبيل مدينة ذات ثقل سياسى كبير لايسمح لأحد بالتفاوض نيابة عنها. لذا فمن غير المستبعد أن يكون المقصود هنا جبلة وليس جبيل، لأن جبلة كانت تابعة لأنطاكية التى كان يحكمها آنذاك بوهمند السادس هى وطرابلس ، انظر ، سامية عامر : (دكتورة) الصليبيون فى فلسطين جبيل لبنان ، ص١٣٠-١٣١ .

٤- بعرين : قلعة منيعة لها قناة كبيرة تحمل الماء من سلمية إلى حماة تسقى بساتينها وأراضيها . انظر الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٠٧ .

هذا الوجه لطمة قوية وجهت إلى بوهمند ، وتملكه اليأس من فكرة مناوئة بيبرس إلى أن توفى عام ١٢٧٥م / ٦٧٣هـ [١].

وعلى الرغم من احساس الفرنج ببلاد الشام بقرب وصول حملة عسكرية متكاملة لانقاذهم من الوضع المتردى الذى وصلوا إليه، إلا أنهم لم يتفاعلوا معها واستطاب الصليبيون الحياة الهادئة بالشرق، ولم يعودوا يفكرون فى العودة إلى ديارهم ، وكرهوا الحرب والصراع واراقة الدماء. ولقد أصبحت لهم زوجات وأبناء ومصالح ، فاستكانوا تماما لكل ما فرضه عليهم المسلمون من قيود أو شروط. ولم يجد بيبرس صعوبة تذكر فى احتوائهم جميعا . هذا ، فى الوقت الذى كانت فيه النجدات العسكرية تصل إليهم تباعا سواء ببلاد الشام أو بتونس، ولكنها كانت فى أعداد قليلة ينقصها الحماس وليس بوسعها القيام بأى عمل حاسم . ولم تعد هذه الآمال تروقهم بعكس الحال فى الماضى، بينما كانت القوى الإسلامية فى ازياد مستمر تصاحبها تحركات عسكرية دقيقة وسريعة لاستئصال شأفة الدخلاء .

ولم ينشغل بيبرس عن تونس رغم هذه الأعباء الجسيمة التى حملها بالتصدى للصليبيين ببلاد الشام . فلم يبخل عليها بأى امدادات أو مشورة عسكرية أو أسلحة ، فى الوقت الذى ركز جزءا كبيرا من اهتمامه لتحصين مصر قلعة الدفاع عن تونس والعالم العربى الإسلامى وقتها ، وجعلها فى حالة تأهب مستمر، ولم يترك جبهة واحدة بدون تعزيزها بالتحصينات والاستحكامات . فحصن مدينتى الاسكندرية ودمياط وباقى الثغور المصرية التى يمكن أن تنفذ منها جيوش الحملة . كما اهتم بزيادة أعداد السفن وعمارة الشوانى[٢].

ويقول رينو «إن بيبرس كان صبورا إلى أبعد الحدود، وقد وضع بلاده فى قمة الاستعداد العسكرى الذى يمكن أن يصمد للحصار الطويل»[٣]. كما أنه لم يتوقف عن التأثير على الحكام

١- للمزيد من التفاصيل عن العلاقة الودية التى قامت بين التتار وبيبرس إلى أن انتهت بدخولهم الإسلام أنظر: Reinaud , Op. cit., p. 516 .

وأيضا الداوداري : زبدة الفكر، ص-١٦٠ .

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول، ج٢ ، لوحة ٧٤ ، المقريزى : السلوك، ج١، ق٢ ، ص٥٨٧ .

٣- Reinaud , Op. cit., p. 517 .

المسلمين التابعين له لإثارة حماستهم لعمل عسكرى موحد يحفظ مصر وتونس على حد سواء[1]. هذا، بالإضافة إلى أنه طرق كل الوسائل السلمية التى يمكن أن تقى تونس خطورة وجود الحملة فوق أراضيها. فقد أرسل بعثة إسلامية إلى غرب أوروبا لايجاد رأى عام مضاد لحملة لويس[2] مستغلا فى ذلك صداقته القوية مع بعض ملوكها . حقيقة أن معظم هذه العلاقات اتسمت بطابع المصالح التجارية والاقتصادية المتبادلة[3] إلا أن بيبرس كان ينظر إليها على أنها وسيلة للعمل ضد الصليبيين داخل مواقعهم . كما أن هذه المصالح المشتركة جعلته دائما على أهبة الاستعداد لمواجهتهم لتقديم أية تنازلات . كما أتت هذه العلاقات ثمارها حين كانت المنفذ الذى علم منه بيبرس أن وجهة الحملة ستكون تونس وليس مصر رغم تضارب الروايات بعد ذلك. وعلى أى الأحوال، كانت الأطراف الصليبية كلها فى حالة تخبط دائم فى مواقفها من الفكرة الصليبية ومعاداة المسلمين ، حيث لم ترد اشارات واضحة عن وجود تعاون دبلوماسى مثمر بين بيبرس وأى من ملوك الفرنج.

١- كان ملوك الإسلام التابعين لبيبرس هم صاحب الروم غياث الدين بن ركن الدين، وصاحب ماردين قرا ارسلان وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين بن رسول ، وصاحب مكة شرفها الله أبو نبى نجم الدين، وصاحب المدينة على ساكنها السلام عز الدين شيحة بن حماد ، وخليفة المغرب أبو العلاء ادريس بن أبى عبدالله محمد بن يوسف النائب بمصر الأمير بدر الدين الخازندار . انظر ابن ايبك: كنز الدرر ج٨، ص١٦٢ .

٢- Matt . of West ., p. 445 ; Reinaud , Op. cit., p. 516 .

٣- من المعروف أن بيبرس كان على علاقة صداقة قوية بكل من الامبراطور الألمانى مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثانى وشارل كونت أنجو . وربما حاول من وراء هذه الخطوة استغلال العداء القديم بين فردريك وشارل حين قام الأخير بالاستيلاء على ممتلكات مانفرد ابن الإمبراطور الألمانى فردريك فى جزيرة صقلية، الأمر الذى أعطى لبيبرس الأمل فى أن فردريك لابد أن يفكر فى أن ينتقم منه ومن أخيه لويس لاسترجاع ممتلكات ابنه . حقيقة أن المصادر الأجنبية والعربية لم تسعفنا بما يفيد بوجود خطوات ايجابية فى هذا الصدد بين فردريك وبيبرس ، ولكن الظروف المحيطة بهذا الموقف جعلت بيبرس يوسع دائرة تحركاته للتخلص من الحملة الصليبية ضد تونس بكل الوسائل والطرق . هذا بالإضافة إلى صداقته القوية بحكام برشلونة وجنوه وأشبيلية. أنظر : السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩٥ ، ابن الفرات: تاريخ الدول: ج٧ ، لوحة ٤٤ . راجع كذلك :

Matt. of West ., p. 445 .

وأيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٨ .

يضاف إلى ما تقدم، أن انشغال بيبرس بأمر الحملة لم يجعله يغمض عينيه عن الأخطار الأخرى التى هددت المسلمين ، وفى مقدمتها الخطر المغولى. حقيقة لقد استؤصلت شأفتهم تماما بعد موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ، ولكن هذا لم يقض تماما على العداء المشترك الذى يجمع بينهم وبين الصليبيين ضد المسلمين، مما جعل بيبرس يوجه لهم المزيد من الضربات المتقطعة على أطراف بلاد الشام. لقد كان يقظا لكل تحركاتهم. وقد أدت كل هذه الظروف مجتمعة إلى زيادة الكيان الصليبى فى بلاد الشام ضعفا وتدهورا فى الوقت الذى علا فيه شأن بيبرس سواء فى مصر أو بلاد الشام أو فى ديار الإسلام جميعا . وقد أدى هذا فى نهاية الأمر إلى احتواء الحملة الصليبية على تونس وانقاذ الشمال الافريقى من الضياع الأكيد[1].

وإذا كنا قد تحدثنا عن جهود بيبرس فى سبيل القضاء على بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، وابعاد الخطر المغولى عن الشرق الأدنى، وتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة العدوان الصليبى ضد تونس ، فذلك لتداخل كل هذه القضايا فى بعضها بحيث لايمكن فصلها عن موضوع البحث لانعكاس هذه الأحداث على الحملة الصليبية ضد تونس وتأثر الحملة بها.

ومهما يكن من أمر، إذا عدنا ثانية إلى تونس سوف نجد أن لويس التاسع بعد أن تأكد من تقاعس أخيه شارل كونت أنجو عن القدوم إلى ساحة القتال، اضطر إلى استقدام عدد آخر من السفن الموجودة فى عرض البحر إلى الشاطئ لزيادة تحصين الميناء . كما أنزل عددا كبيرا من قواته إلى البر لتحصين المدينة ومواجهة الحصار الإسلامى لها. هذا، بينما لم يترك لهم التونسيون الفرصة لتنسيق قواتهم. بل كانت خطتهم هى توجيه الضربات المتلاحقة لهم حتى يرتبك المعسكر الصليبى ، مستغلين فى ذلك ازدياد انتشار المرض فى داخله. فمنعوا عنهم الامدادات بالعمل على بث الاضطراب والقلق داخل معسكرهم فى الميناء ، وأصبح شغلهم الشاغل هو مواجهة الضربات التى كالها المسلمون لهم والحصار الذى فرضه المسلمون عليهم أكثر من اهتمامهم بالحصول على المؤن. هذا فى الوقت الذى ازداد فيه التفتت داخل

١- أبو المحاسن : المنهل، ج٢ ، ورقة ٣٥٩-٣٦٠ ، الكتبى : فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٣-٨٤، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٦٥٣ ، أبو الفدا: المختصر ج٣ ، ص١٩٦، انظر أيضا : محمد الحبيب: لب التاريخ ، ص٢١٦ .

المعسكر الصليبى، وضاعت الكلمة الموحدة، وازداد حنق لويس على أخيه شارل [1]، الذى لم تكن تهمه سوى مصالحه الخاصة. وكانت كل محاولات لويس فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الحملة، هى ترميم بعض الأسوار المهدمة حول مدينة قرطاجنة القديمة، رغم أنها كانت خرابا ودمارا . لذا كانت مهمته عسيرة فى اقامة حواجز تفصل بينه وبين المسلمين ، واختلط الفريقان ببعضهما، وازدادت الاشتباكات وتفاقمت الأمور، ولم يكن لديه الفرصة الكافية لمواجهة هذا الموقف المتأزم، فالوقت كان يمر بسرعة ولم يكن هذا فى صالحه. ورغم هذا فقد عمل على انشاء جسر من الخشب على مسافة قريبة من القلعة، وأمده بالميناء كمحاولة منه لتلافى الحصار البرى حول القلعة والميناء وأيضا لوقف الاشتباكات بينه وبين المسلمين على أرض قرطاجنة ، على أمل وصول امدادات أخرى من أخيه تعزز موقفه العسكرى فى تونس. كما حفر خندقا عميقا ، وعمر بعض شرفات المدينة[2]، ولكنها كانت كلها محاولات عقيمة فى وقت رجحت فيه كفة المسلمين فى الصراع ضد الفرنج ، ولم يصبح لدية فرصة لاستكمال تحصيناتة بعد أن أحاط به المسلمون من كل جانب [3]. ويقول متى أوف وستمنستر فى هذا الصدد «أننا فجأة وجدنا أن العرب قد أصبحوا على استعداد لتقديم كل التضحيات من أجل الخلاص منا»[4].

وهكذا استمرت الاشتباكات بين الطرفين، وازداد رجحان الكفة الإسلامية بوصول امدادات عسكرية جديدة من السودان وبرقة، وقدوم العربان والمغاربة وغيرهم ، فى الوقت الذى ازدادت فيه الأمور تعقيدا بالنسبة للويس. يقول مونروند «أنه بعد أيام قليلة من هذا الحصار الشديد الذى فرضه المسلمون حول الفرنج ، تناقصت المياه وقلت الأقوات[5] ولم يصبح لديهم ما يأكلونه سوى اللحوم المملحة التى احضروها معهم. ونظراً لشدة حرارة الشمس فقد فسدت هذه الأطعمة وتعفنت ، ومع ذلك اضطروا لأكلها دون أن يدركوا أنها كانت السبب فى ازدياد

١- مونروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٢ .

٢- ابن خلدون: العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ . وأيضا : . Nangis, p. 448

٣- المقريزى: السلوك، ج١، ق٢ ، ص٢٠ ، ص٥٠٣ .

٤- Matt., of West ., p. 45) ; Eracles, Op. cit., p. 458 .

٥- Nangis, p. 445 ; Michaud, p. 516 .

المرض وانتشار الوباء في معسكرهم ، في الوقت الذي كان فيه أهل تونس أدرى بطبيعة بلادهم. وكانوا يحاربونهم من الأماكن الحصينة البعيدة عن حرارة الشمس كما كانوا يكيلون لهم الضربات القاسية عن طريق استخدامهم آلات صناعية كان يوضع فيها كميات كبيرة من الرمل فتنزل فوق المعسكر المسيحي كأنها محماة في أتون من نار، مما أوصله إلى حالة شديدة من الضعف والانهاك»[١].

وجدير بالذكر هنا أنه رغم انتشار الأمراض بين الصليبيين ، فإن الحقيقة الهامة التي يجب أن ندركها هي أن تونس كانت نظيفة تماما من هذا المرض، ولم تكن مصدرا له. بل هناك أسباب عديدة سنعرض لها تفصيلا فيما بعد، ومن بينها المأكولات التي أصابها العفن والتي اضطر الفرنج التي أكلها لاشباع بطونهم الخاوية بسبب نفاذ المؤن .

وخلاصة القول أن الحملة قد كتب عليها الفشل المبكر، لتجمع أسباب عديدة أدت إلى هذه النهاية، من حيث قلة الأقوات ، وانتشار المرض، واستهتار شارل كونت انجو وتقاعسه عن تقديم المساعدة المطلوبة، واضمحلال الفكرة الصليبية عامة، بالإضافة إلى الصحوة الإسلامية المفاجئة من قبل صاحب تونس نفسه تلك الصحوة التي تفجرت دائمًا من مصر وعمت العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه . ولايمكن أن ننكر أيضا رغم كل السلبيات التي واجهت لويس وحملته ، أنه استفاد من تخبط المستنصر في قراراته وخططه المرتجلة التي أعطت له الفرصة في تثبيت أقدامه في قرطاجنة وزيادة الاستحكمات حول المدينة. ولكن الافاقة الإسلامية التي جاءت في الوقت المناسب قلبت موازين الأمور رأسا على عقب . وبعد أن كان زمام المبادأة والهجوم في قبضة الصليبيين ، أصبح في قبضة المسلمين ، بينما اكتفى الصليبيون منذ ذلك الحين فصاعدا بالدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام. وهذا ما سيكشف عنه الفصل التالي.

١- موبروند : الحروب المقدسة ، ج٢، ص٣٥٢ .

الفصل الرابع

المواجهة العسكرية بين المسلمين والصليبيين داخل قرطاجنة

أغسطس ١٢٧٠م / ذو الحجة ٦٦٨- المحرم ٦٦٩هـ

الصراع بين قوات لويس والمسلمين بقيادة يحيى بن صالح- تأرجح ميزان القوى بين الطرفين ، واختفاء المستنصر من تونس ومناقشة مختلف الآراء التي ثارت بهذا الخصوص- انتشار المرض داخل المعسكر الصليبي أسبابه ونتائجه- مرض لويس التاسع بداء الدوسنتاريا واختلاف الآراء حول مرضه ووفاته والآثار المترتبة على ذلك- تولي فيليب الثالث الجيش الصليبي- تحليل أوضاع المعسكرين الصليبي والإسلامي.

وبعد أن استعرضنا الآثار الايجابية التي ترتبت على صحوة المسلمين بتونس وتداركهم للخطر المحيط بهم قبل استفحاله، بفضل الدور الذي لعبه بيبرس لايقاظ المستنصر من غفوته وما ترتب عليه من اجتماع الشمل الإسلامي كله حول مصير تونس وقدوم الجيوش الإسلامية من كل حدب وصوب للوقوف بجانب المستنصر، بعد كل هذا يجدر بنا أن نتابع تسلسل الأحداث وما آلت إليه . ففي هذا الوقت ازداد المعسكر الصليبي سوءا وتفاقمت حدة المرض بين الجنود وضاعت الكلمة الموحدة بينهم. حقيقة أن المؤرخين الغربيين قد دأبوا على اضفاء صفة البطولة على جيوشهم حتى في أوقات الهزيمة والخذلان. إلا أنهم في نهاية الأمر لم يتمكنوا من انكار دور المسلمين الناجح في تطويقهم واحكام الحصار توطئة لتوجيه الضربة القاضية.

ونبدأ باستعراض دور المستنصر الحفصي في التصدي للقوات الغازية ، حيث وجد نفسه في مأزق حرج نتيجة تباطؤه في الدفاع عن قرطاجنة وشعر بتصدي خصومه وأصدقائه له على السواء، وأن اتهامهم له باللامبالاة والخيانة والممالأة لن يقف عند حد، فسعى للعمل الجاد على تخليص بلاده، ليس فقط هروبا من هذه الاتهامات ، بل لأنه بفضل حنكته السياسية والعسكرية أدرك أن الزمام على وشك أن يفلت من يده، وأن تونس نفسها على وشك الضياع

إن التقط الصليبيون انفاسهم أو وصلتهم امدادات من الغرب، كما أدرك أن دهاءه وخبثه لن يحمى سلطانه من الضياع .

وبناء على ما تقدم كانت خطة المستنصر الجديدة هى احكام الحصار البحرى والبرى معا حول معسكرات الصليبيين، الأمر الذى أوقع الفرنج فى مزيد من الاضطراب وجعلهم يرتجلون القرارات والخطط، خاصة وأن التونسيين اختاروا لأنفسهم الأماكن الحصينة فى هذا الحصار، الأمر الذى مكنهم من حماية جيوشهم من قسوة الحر والعطش وهم أعلم بطبيعة بلادهم من الصليبيين. هذا فى الوقت الذى تركز فيه الصليبيون فى أماكن شديدة الحر والجفاف وزاد قلة الأقوات مما أثر تأثيرا خطيرا عليهم.

وكانت الفترة من ٢٦ يوليو إلى ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٥-١٣ ذى الحجة ٦٦٨هـ ، هى فترة التقاط الأنفاس من قبل المسلمين وسقوط قرطاجنة ، فأعادوا تنظيم صفوفهم فى وقت ازدادت فيه حدة المرض بين الصليبيين رغم انتصارهم عسكريا على خصومهم المسلمين وانشغل الطرفان فى معالجة الصدع داخل صفوفهما ولم ترد أية اشارات فى مصادر ذلك العصر عن حدوث معارك حاسمة بين الطرفين حتى يوم ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذى الحجة ٦٦٨هـ، الأمر الذى عاد بالفائدة على المسلمين ، وسمح لهم باعادة ترتيب جيوشهم وخططهم بثقة أكبر من الصليبيين ، وقد عاون الجيش التونسى فى ذلك العديد من الجيوش الإسلامية الأخرى[1]. التى قدمت إلى ساحة المعركة ، فى الوقت الذى ضن فيه الغرب الأوروبى على لويس بالمساعدات وترك بدون اسعاف مرضاه بينما تباطأ أخوه شارل عن القدوم رغم العديد من السفارات التى أرسلها إليه، وأصبح شغل لويس الشاغل آنذاك هو اللقاء المستمر بالقادة والمستشارين العسكريين لاتخاذ أفضل الوسائل للخروج من هذه الأزمة . وأرسل لويس أحد النبلاء ويدعى أموريس دى لاروش Amuris de La roch لاستطلاع الأمر وكانت الأخبار غير مطمئنة ومفادها أن المسلمين بدأت أعدادهم فى الازدياد ، وأن الملك التونسى نفسه فى طريقه

١- كان جيش الحفصيين ابان هذه الفترة يتكون من عناصر عديدة ومنها الترك حيث اشترى الأمير أبوزكريا الحفصى ما يقرب من ألفى فارس من المماليك والأتراك بمصر هذا بالإضافة إلى انضمام عدد كبير من القواد الأتراك الذين هربوا من بغداد إلى تونس واشتراهم المستنصر الحفصى بالإضافة إلى العبيد السود الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء المحملة بالدروع . انظر ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٥٩٧-٥٩٨ .

لساحة القتال بناء على أوامر بيبرس[١]. وأنه قد أصبح لدى المسلمين النية الحقيقية فى التصدى للمسيحيين سواء فى البر أو البحر وهذه اشارة واضحة على أن المستنصر قد تنبه لخطأه الأول بتركيز الحصار على البر فقط وأصبح هدفه التصدى للفرنج من كل الجبهات وتخليص قرطاجنة من أيديهم . وفى هذه الأثناء وصلت الأنباء إلى لويس عن طريق القائد أوليفيه دى كريتس olive de Chrits وهو أحد النبلاء الذين قدموا على متن سفينة خاصة به تفيده «بأن اخاه الملك شارل فى عرض البحر وأنه فى طريقه إلى تونس. وقد فرح لويس كثيرا عند سماعه هذه الأخبار، فهذا كان أقصى ما يتمناه لدرجة أنه أقام احتفالاً كبيراً على متن السفينة المسماه متتجوا تكريما لأوليفيه على الأنباء التى جاء بها ، فالملك لويس كان يخشى سوء عاقبة تأخر أخيه خاصة بعد أن عاد المسلمون شأنهم الأول من حيث القوة والتصدى للمسيحيين»[٢].

ويتضح من الرواية السابقة أن المسلمين بتونس فى كفاحهم ضد الحملة قد مروا بمراحل ثلاث أولاها استعدادهم ويقظتهم للقاء لويس وجيوشه حين وصل قرطاجنة [٣]، وثانيتهما وأخطرها هى التقاعس الذى أصابهم فجأة وجعلهم يتهاونون فى الدفاع عن أراضيهم وذلك كان راجعا إلى الخطط الوخيمة التى أعدها سلطان تونس وتراخيه فى حماية بلاده وممالأته الظاهرة للعدو أحياناً وغموض موقفه أحياناً أخرى [٤]. أما المرحلة الثالثة والأخيرة وهى التى نحن بصددها ، فهى صحوة شعب تونس من جديد واصراره على استرجاع أرضه بعدما شاهد ضياع قرطاجنة ، وخوفه على تونس نفسها من الضياع، تلك الصحوة التى كان لسلطان مصر فيها فضل عظيم جمع بها قلوب المسلمين نحو تونس وضيق الخناق على المستنصر للتلاعب بمصير بلاده مرة أخرى[٥].

١- Nangis, p., 435 ; Eracles, Op. cit., p. 459 ; Beaulieu , Vita Ludovici noni , p. 21 ; Anonymous, Gesta Sancti, p. 56 , St. Pathus, vie de Saint Louis, p. 103 , Joinville, Op. cit., p. 299 , Reinaud, Op. cit., p. 522 .

٢- Nangis, vie de Saint Louis, p. 455 .

٣- Matt of West , p. 450 .

٤- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ ، أبو المحاسن: المنهل الصافى ، ج٣، ورقة ٣٩ .

٥- Nangis, Op. cit., p. 455 .

وبناء على ما تقدم عمل المستنصر على فرض حصار محكم حول الميناء والقلعة، وحشد لذلك عددا كبيرا من السفن الإسلامية التابعة لتونس وغيرها، كما فرض حصارا بريا حول برج المدينة ووزع جنده فى أجزاء متباعدة من المدينة. كذلك عقد المستنصر فى نفس الوقت اجتماعا حضره عدد غير قليل من أمراء المسلمين وحشد من القادة العسكريين ويبدو أنه كان اجتماعا شعبيا بهدف اذكاء روح الشجاعة والاقدام وبث روح الجهاد فى نفس الشعب التونسى للتخلص من براثن الحملة. ففى هذا الصدد يشير نانجى قائلا «إن حشودا هائلة من المسلمين قد حضرت إلى مقر الاجتماع. وأعلن المستنصر خطته العسكرية بعد التشاور مع القادة المقربين منه معلنا أن هدفه الأول سيكون احكام الحصار حول مواقع الفرنج المتمركزة فى القلعة والميناء والبرج وتوزيع باقى القوات على كل المناطق المرتفعة المحيطة بتونس»[١].

وبعد انتهاء الاجتماع خرج المستنصر بنفسه وتفقد كل مواقعه ومعسكراته وفى صباح يوم الأحد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذى الحجة ٦٦٨هـ قام المسلمون بحمل السلاح استعدادا للقتال. وحول هذا اليوم الذى دارت فيه رحى أول معركة مباشرة بين المسلمين والصليبيين، ثار الخلاف بين المؤرخين من الجانبين. يقول نانجى أن هذا اليوم هو ٢ أغسطس ١٢٧٠م / ١٢ ذى الحجة ٦٦٨هـ [٢]، فى حين يذكر ابن أبى دينار أنه يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ/ ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م[٣] ونحن نميل إلى الأخذ برواية نانجى لأن هذا التحديد الزمنى الذى أورده يتناسب مع سير الأحداث وظروف لويس الصحية، فهو لم يكن قد أصيبت بالمرض الذى أصاب جنوده بعد وكانت لاتزال لديه امكانية خوض المزيد من المناوشات الخفيفة ضد المسلمين ، أما ما ذكره ابن أبى دينار فهو تاريخ غير دقيق لأنه فى يوم ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م / ١٠ محرم ٦٦٩هـ كان لويس قد مضى على وفاته خمسة أيام كاملة فكيف اشترك فى هذه المعارك وربما يقصد ابن أبى دينار هنا احدى المعارك التى دارت بين المستنصر وشارل أخو لويس بعد وصوله تونس [٤].

١- Nangis, Vie de Philippe, R. H. G. F., t XX, p. 472 .

٢- Nangis, Op. cit., p. 472 ; Cf . al o. Guizot, St. Louis , p. 137 .

٣- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٢٨ ، محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٤- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٣٦ .

ومهما يكن من أمر فقد أورد نانجي وصفا دقيقا لجيوش المسلمين إذ يقول «أن الجنود كانوا يحملون أسلحة مختلفة خاصة بالحصار البرى والبحرى وإن استعدادهم هذه المرة كان يتميز بدقة كبيرة فضلا عن وجود قوات من الفرسان والمشاة كما أحكموا حصارهم البحرى بصورة لم نشهد لها مثيل واستخدموا أسلحة متفوقة لرد هجماتنا، وظهروا كأنهم صف واحد ينتظر ويشراسة لحظة مهاجمة قواتنا»[١]. وحين رأى الملك لويس ذلك، أمر جنوده على الفور بالاستعداد للقتال. وبدأت المعركة الأولى بهجمة اسلامية قوية على عدد من المواقع العسكرية التى أقيمت على أرض قرطاجنة لحماية الميناء والبرج فى الوقت الذى أغارت فيه السفن الإسلامية على عدد من السفن المسيحية المرابطة بالميناء. وقد اضطرب الجنود الصليبيون وساد الهرج بينهم. وهرع عدد كبير منهم إلى الزوارق طلبا للنجاة بأنفسهم واللجوء إلى السفن الكبيرة الموجودة فى عرض البحر [١]. ولم يكف المسلمون عن القتال بل تابعوا هجماتهم فى الوقت الذى وجدت فيه فرق أخرى تدق الطبول وتصدر أصواتا مرتفعة تثير حماسة الجند ضد الجيوش الصليبية ويقول نانجى «أنهم كانوا يحملون المعدات والآلات الكثيرة ويتجولون عبر المزارع وفى الشوارع لاستعراض قواتهم أمامنا حتى يشعرونا بأننا غير قادرين على الاستمرارفى المقاومة وقد استمر هذا الاستعراض فترة من الوقت دون حدوث معركة حاسمة أخرى بيننا وبينهم» ويستمر نانجى فى وصفه للمعركة قائلا «ولكن لم نقف مكتوفى الأيدى أمام هذا الاستفزاز من قبل المسلمين بل كنا نردد نحن أيضا العبارات الحماسية لإلهاب الجنود وكانوا يقولون هيا هيا لحمل السلاح من أجل قمع القوى التونسية المقبلة نحونا وفعلا هرع المسيحيون من داخل معسكراتهم، وأظهروا استعدادا كبيرا لملاقاة المسلمين خاصة عندما شاهدوا لويس بنفسه حاملا سلاحه ليكون قدوة لهم. كما قدمت بعض السفن الحربية الموجودة فى عرض البحر للمشاركة فى القتال واعتلى الفرسان ظهور جيادهم وهم يحملون أسلحتهم التى كانت تلمع من شدة بريقها وقد انضم إلى الملك لويس فى هذا ملك نافار وملك صقلية والكونتات والبارونات الآخرين ، وتقدم الجميع والتفوا حول معسكر لويس بقرطاجنة وهو المكان الذى دارت فيه المعركة»[٢].

١- Nangis, Vie de Philippe , pp. 472-473 .

٢- Nangis, vie de Philippe, pp. 473-474 .

ويجب أن نتناول رواية نانجى بشأن اشتراك ملك صقلية فى القتال بحذر شديد فمن المعروف أن ملك صقلية لم يحارب مع لويس فى تونس بل حارب مع ابنه الملك فيليب [١]. كما أن تحديدَ نانجي لمكان المعركة بأنها بالقرب من اقامة الملك لويس تحديد خاطئ حيث يذكر ابن خلدون أن هذه المعركة كانت بالقرب من الخندق الذى حفره لويس أثناء تحصيناته لمدينة قرطاجنة [٢]. وقد عاد نانجى ونقض روايته بهذا الشأن قائلاً «إن الملك والبرونات تقدموا إلى مكان مهدم من اطلال قرطاجنة وأقاموا فيه تحصيناتهم ومعسكرهم ولم يكن للمسلمين فيه أى خيام أو جند الأمر الذى بعث الاطمئنان فى نفس لويس، وعين الكونت أليسون Alison قائدا . ومعه مقدم الاسبتارية [٣]، وعدد كبير من الأمراء والمندوب الخاص عن مدينة سان دينس والذى كان يشغل منصبا كبيرا فى قيادة الحملة وكان يسمى لورى فلام Lauri Flame ويضيف نانجي قائلا «إن هذا الرجل كان بمثابة العلامة الرئيسية للمعركة»، ويتضح من رواية نانجي أن الصليبيين هم الذين اختاروا ميدان المعركة هذه المرة ويرجع ذلك لأن المسلمين قد سيطروا على كل المواقع الحصينة التى وجدت بها معسكرات للصليبيين ، وأنهم ضيقوا عليهم الخناق لدرجة أنهم كانوا يبحثون عن أى موقع لايوجد به تحصينات اسلامية. فى الوقت الذى كانت أحوالهم تزداد سوءا بسبب تزايد عدد المرضى داخل السفن أو داخل القلعة وسقوط عدد كبير منهم موتى بسبب عدم وجود أى اسعافات ، بالإضافة إلى انعدام الأقوات والمساعدات الخارجية ، وتزايد ضغط المسلمين عليهم، وخاصة الجنود السودانيين الذين كانوا يزأرون كالوحوش الضارية [٤]. وبدأوا يتصيدونهم في الشوارع. وفي خضم هذه الأحداث كان المستنصر حاملا السلاح مع جنده كي يشد من أزرهم ويصف لنا ابن خلدون أحداث هذا الصدام «بأن المسلمين تقدموا وسلكوا طريقا فى البحيرة، وكانت مجاورة لموقع الصليبيين وهاجموا فجأة مقدمة الجيش المسيحي. وقد تمكنوا من أن يغتنموا هذه الفرصة على أحسن وجه وسلبوا منهم الكثير من الغنائم»[٥]. ولما شعر الفرنج بتطويق المسلمين لهم أرسلوا فرقة

١- سوف أتناول هذه الأحداث بالتفصيل فى الفصل الخامس من الكتاب .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ .

٣- مقدم الاسبتارية هو أحد القادة الاثنين والثلاثين الذين قدموا من عكا لمشاركة لويس فى الحملة أنظر: Eracles, Op. cit., p. 458 .

٤- مونروند : الحروب المقدسة، ج٢، ، ص٣٥٢- ٣٥٤ .

٥- ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩٢ .

لفرض حصار حول البحيرة وبعثوا فيها بالرماة للتصدى للمسلمين وقطع الطرق عليهم، حتى يكفوا عن مهاجمتهم . خاصة وأن الصليبيين لم يتصوروا مباغتة المسلمين لهم من هذه الناحية وحصارهم بهذا الشكل . فكان عنصر المفاجأة هنا من أهم الأسباب التى أدخلت الاضطراب فى صفوف الجيش الصليبى فى هذه الجولة من الالتحام المباشر بين الطرفين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ٦ أغسطس ١٢٧٠م / ١٥ ذى الحجة ٦٦٨هـ زحف المسلمون بقيادة يحيى بن صالح [١]، وهجموا على معسكر الصليبيين بقرطاجنة وتمكنوا من قتل ما يقرب من خمسمائة جندى كما حطموا عددا من الأبنية التى كان لويس قد شيدها بعد احتلاله الميناء كذلك هدموا الخندق الكبير الذى حفره لويس قرب معسكره[٢] ويشير « نانجى » أن هذه كانت الساعات الأولى للمعركة إلا أن الصليبيين بعد ذلك سرعان ما تصدوا للتونسيين، وتمكنوا من جمع شتات جيشهم ، وكشفوا من استعدادهم البحرى. ففى نفس الليلة وبعد ساعات قليلة من هجوم المسلمين عليهم أغار الصليبيون على المعسكر الإسلامى وحدثت معركة أخرى ضارية بين الطرفين قتل فيها عدد كبير من المسلمين والمسيحيين [٣].

وحول سير الأحداث فى هذه الجولة الثانية من القتال وردت اشارات متفرقة تفيد أن المستنصر الحفصى عندما شاهد انقلاب الموازين فى هذه الليلة وأن الصليبيين قد التقطوا أنفاسهم قليلا استعد للهروب إلى القيروان وفقا لرواية ابن خلدون [٤]، فى حين يذكر أحد المؤرخين الحديثين أنه فعلا رحل إلى القيروان ولكن ليس هروبا من ساحة القتال أو تنصلا من المسئولية الجسيمة الملقاة عليه، ولكنه فقط أراد أن ينقل حلبة القتال ضدهم إلى القيروان لظروف عسكرية أفضل [٥]، هذا بينما يذكر ابن القنفد «أنه فكر فى أثناء هذه الأحداث على

١- يحيى بن صالح هو نفس الشخصية التى لعبت دورا هاما أثناء صراع المستنصر مع العربان فى بداية توليه الحكم . انظر اليعقوبى: نثر الجمان ، ج١، ورقة ١٩٢ .

٢- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٢ ، ابن رسول : نزهة العيون، ج٢ ، ورقم ١٩٨-١٩٩ .

٣- Nangis, vie de Philippe, 472-473 .

٤- ابن خلدون : المصدر السابق، ص٢٩٢ .

٥- محمد مزالى وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ص١٨١ .

سكتى قسنطينه وأراد نقل نخائره وأهله إليها وأنه اختزن بها أربعين ألف قفيزا[١] من القمح وأمثالها من الشعير وشرع في اصلاح أسوارها»[٢]، وتؤكد الاشارات السابقة أن المستنصر لم يكن صبورا أو صادقا في الدفاع عن تونس، ولم يكن يفكر إلا في مصلحته الذاتية، إذ كيف يفكر في الرحيل إلى القيروان دون أي اشارات مسبقة من قبل المؤرخين المعاصرين من الجانبين عن وجود استعداد عسكرى هناك لملاقاة جيوش الحملة؟ وكيف يتخلى عن قرطاجنة ويتركها نهبا للعدو؟ وكيف يترك جيشه ممزقا على أرضها بعد غلبة الصليبيين عليه في هذه الجولة من الصراع باعتراف المؤرخين المسلمين أنفسهم، أن نقله ميدان المعركة إلى القيروان أمر يحيطيه الكثير من الشكوك حول حقيقة نية المستنصر في الدفاع عن تونس .

أما ما ذكره ابن القنفد عن قسنطينة، فعلى الرغم من أنها ضمن مناطق نفوذ المستنصر ببلاد المغرب إلا أن هذا المؤرخ لم يذكر أن صاحب تونس قد اهتم بأمر شعبه مثلما اهتم بأهل بيته، أى اهتم بمصالحه الشخصية قبل أى شئ ، وكل تصرفاته في هذه الظروف الحرجة من مصير تونس تدعو إلى الشك وعدم الثقة في نيته . وأرجح أنه كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا، وأن مسألة فراره أو رحيله إلى القيروان أو قسنطينه كان أمرا معدا له من قبل. فالمدينتان من أوائل مدن بلاد المغرب اللتان دانتا للحفصيين بالولاء والطاعة بعد انهيار ملك الموحدين [٣]، لذلك أعد المستنصر لنفسه مقرا وبديلا آخر يكون أكثر أمنا وسلاما من تونس . إذا دارت عليه الدائرة هناك. وهذا ما أكده أحد المؤرخين الغربيين القدامى وهو نانجى من أنه ما أن دارت الدائرة على صاحب تونس حتى هم بالفرار أملا في النجاة [٤].

١- القفيز : هو مكيال للحبوب وقفيز الأرض هو مساحة ١٤٤ ذراع ، انظر جبران مسعود: الرائد، ج٢ ، ص١١٩٥ .

٢- ابن القنفد : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص١٣٢ .

٣- ابن أبى دينار: المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، ص٣٧٦ ، الزركشى : تاريخ الدولتين، ص٢٧ وأيضا ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، ص١٨٨-١٨٩، عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٨٧١ .

٤- Nangis, Vie de Phillippe , pp. 472-473 ; Nangis, Vie de Saint Louis, p. 455 .

وعلى أى الأحوال فقد استمرت المناوشات بين المسلمين والصليبين على أرض قرطاجنة وكانت الحرب سجالا بينهما، سقط فيها عدد كبير من قادة المسلمين وسادة الفرنج. يذكر نانجى» أنه سقط ما يقرب من ثلاثة عشرة من كبار القوم فى ميدان المعركة ، ومنهم يوحنا دى روسليه John de Roslait وكاستيليان دى بيوكيريه Castelian de Biokiray وقد حملا إلى الكنيسة المقدسة لاجراء الطقوس الدينية عليها قبل دفنهما»[1]. ويستطرد قائلا أنه من كثرة عدد القتلى عجز الأحياء عن دفنهم، خاصة وأن المرض كان يشتد وبصورة خطيرة بين الباقين وتساقط الشباب من حملة السلاح أما صرعى الحرب أو من المرض أو بسبب حرارة أغسطس الشديدة وأصبح الأحياء عاجزين عن انقاذ المرض لدرجة أن حفائر المتاريس التى صنعت لحفر الخندق حول معسكر الصليبيين استغلت قبورا لموارة الجند المسيحيين الذين ملأتها جثثهم[2] .

وإن دل هذا الوصف على شئ فإنما يدل على انهيار الروح المعنوية لدى الصليبيين وتفكك جبهتهم من الداخل نتيجة تفشى الأمراض ثم إن سوء أحوالهم الصحية طغى على فرحة احراز أى نصر كان يمكن أن يحققوه على المسلمين. كذلك أشار عدد كبير من المؤرخين المسلمين «أنه فى هذه المعركة قتل عدد كبير من المسلمين ودارت عليهم الدائرة ، وكانوا يغلبون ويفقدون المزيد من أراضيهم لولا أن أتاهم بالله بالفرج وهو تفشى المرض بين صفوف العدو بصورة شلت حركتهم »[4].

ويتضح من العبارة الشابقة تقاعس القوى التونسية عن الاستمرار فى القتال وأنه لولا المرض الذى أصاب العدو لربما كانت النتائج أكثر سوءا بالنسبة لتونس فقد كان انتشار المرض بين الجنود بمثابة المنقذ لها من الضياع .

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 472–473 ; Nangis , Vie de Saint Louis, p. 455 .

٢- Nangis, Vie de Saint Louis , p. 455 , Joinville, Vie de Saint Louis, p. 474 .

٣- مونروند: الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٦ .

٤- العينى : عقد الجمان، ج٢ ، ق٣ ، ورقة ٥٨ د ، ابن رسول : نزهة العيون، ج٢ ، ورقة ١٩٨ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٦٥٣ ، الكتبى: فوات الوفيات ، ج١، ص٨٤-٨٥، ابن القنفد : الفارسية ، ص١٣٢ .

وقد تعرضنا من قبل لقضية انتشار الوباء في تونس وقت وصول الحملة حيث اختلفت المصادر الإسلامية والمسيحية في تحديد نوع هذا الوباء ومدى خطورته ، فمنهم من ذكر أنه وباء ومنهم من يقول أنه حمى وفريق ثالث أشار إلى أنه دوسنتاريا كما وجدت فئة أخرى أشارت إلى انتشار مرض بتونس دون تحديد نوعه [١].

وقد أثبتنا أن التقدم الحضاري الذي شهدته تونس في عصر المستنصر الحفصي على الرغم من مواقفه المتخاذلة حيال الحملة ينفي وبشدة انتشار أمراض معدية أو أوبئة في البلاد كما أننا لم نعثر في بطون المصادر الإسلامية والمسيحية المعاصرة للفترة موضوع الدراسة أو المتأخرة عنها نسبيا، عن أي اصابات للتونسيين بمثل هذه الأمراض إلا ما ذكره ابن القنفد «من أنه في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) شمل الناس بتونس وغيرها مرض، واعتل السلطان المستنصر أياما ثم أفاق وكان يقال أن سببه ما «أو ماء» تأدى إلى أفريقيا من زخامة[٢]، قتلى بغداد حين فعل التتار ما فعلوا»[٣].

ويتضح مما سبق أن هذا المرض كان قبل قدوم الحملة إلى تونس بحوالي اثنى عشر عاما فلو كان تأثيره لايزال موجودا، لما سكتت المصادر ولا شارت إليه من قريب أو بعيد مع حصر أسماء من راحوا ضحيته من التونسيين، فلم تذكر المصادر إلا أسماء الصليبيين من قادة وجنود الحملة الذين فتك بهم المرض، لأنه لو كان هناك وباء أو مرض معد فهل من المعقول أن يصاب الصليبيون وهم على بعد أميال كثيرة من تونس ولم يكونوا قد وصلوا إليها بعد في حين لم يصب به أحد من التونسيين .

١- أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ ، ابن أبي دينار : المؤنس، ص١٢٨ ، العيني : عقد الجمان، ج٢ ، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن رسول: نزهة العيون ، ج٢ ، ورقة ١٩٨-١٩٩ ، الكتبي : فوات الوفيات ، ج١ ، ص٨٤-٨٥ ، ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢ ، ص٢١٩ ، المقريزي: السلوك ، ج١، ق٢، ص٥٠٢ أنظر أيضا:

Eracles, Op. cit., p. 459 ; Matt. of West ., p. 453 .

٢- المقصود بالزخامة رائحة الجثث المتعفنة دون دفن أو رائحة أي لحوم تلقى دون طريقة معينة لحفظها من العفن . انظر جبران مسعود : الرائد، ص٧٧١، ابن القنفد : الفارسية، ص١٢١ ، ابن منظور : لسان العرب المحيط، ج٢ ، ص١٨ .

٣- ابن القنفد : الفارسية ، ص١٢١ .

والحقيقة أن الطاعون الأسود انتشر بالفعل فى أفريقيا وأجزاء كثيرة من المعمورة وأصيبت به تونس بصفة خاصة[١]، أما حقيقة هذا المرض الذى انتشر بين الصليبيين ابان الحملة فمرجعه ما ذكره وليم دى نانجى وكان شاهد عيان الحملة إذ يقول «أنه فى الطريق من سردينيا إلى تونس هبت عاصفة قوية على أسطول المسلمين استمرت أكثر من يومين هلك فيها عدد من الجنود وانتشر بينهم المرض، وبعد أن هدأت العاصفة قام القادة بتفقد الجند وهم على بعد اثنى عشر ميلا من قرطاجنة ولم يكونوا قد نزلوا بها بعد، اكتشفوا أن ما يقرب من ٥٢٥ جندى داخل السفن قد أصيبوا بمرض الدوسنتاريا الحاد، الأمر الذى جعل لويس يرجئ كل خططه بعض الوقت ليعالج مرضاه. وأرسل خفية قطعا صغيرة من أسطوله لاحضار بعض الاسعافات والأطعمة »[٢]. وعلى الرغم من أن نانجى لم يعلن صراحة عن سبب تفشى هذا المرض إلا أنه إذا كان مرض الدوسنتاريا فمن المعروف أنه إذا انتشر فجأة بين جمع كبير فهذا يكون نتيجة تناولهم أطعمة فاسدة أو ملوثة وتصبح الدوسنتاريا عدوى إذا أصيب الطعام بميكروب شخص مريض بها أما الحمى فمن المعروف علميا أن أى مرض يصاحبه ارتفاع فى درجة الحرارة يصبح حمى ولكن ليست كل حمى معدية لأن الاشارات عن المرضى اختلفت فمنهم من يقول أنهم أصيبوا بالدوسنتاريا والبعض الآخر يقول أنهم أصيبوا بالحمى، أما الوباء فهو ليس مرضا محدودا ولكنه ميكروب إذا انتشر فى مكان أتى على كل من فيه إن لم توجد وسائل العلاج الوقاية المناسبة.

وبعد كل ما سبق أرجح أن سبب انتشار المرض بينهم نجم عن طول الانتظار بميناء اجمورت وتأخر وصول الامدادات التى كان لويس قد اتفق عليها من قبل مع بعض حكام أوروباء الأمر الذى أتى على كميات كبيرة من الأطعمة الصالحة للأكل فأضطر الجنود بعدها إلى أكل الأطعمة المملحة مثل اللحوم وغيرها التى لم تكن صالحة لأكلها بعد. فأتت بتلك الأمراض المعوية بين الجنود كافة دون أن يدروا أنها هى السبب فلما وصلوا تونس وتعذر

١- أبو زكريا يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد، تحقيق عبد الحميد الحاجيات ، الجزائر ١٩٨٠، ص١١٩ ، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبرينى: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، ص١٩٩ .

٢- Nangis, vie de Saint Louis, p. 443.

عليهم الحصول على الأطعمة لرفض الشعب التونسى البيع لهم كما سبق القول اضطروا إلى الاستمرار فى أكل هذه اللحوم الفاسدة في الوقت الذى اشتدت فيه حرارة شمال أفريقيا خلال شهرى يوليو وأغسطس مع استمرار القتال وعدم تعودهم على قسوة مناخ تونس فى فصل الصيف، فأصيبوا أيضا بضربات الشمس مما أدى إلى تفاقم الأزمة، أما لماذا لم يصب شعب تونس بهذه الأمراض ، فهذا مرجعه إلى تعودهم على طبيعة بلادهم ومعرفتهم بالأماكن الحصينة التى تقيهم من الحر وقت القتال بالإضافة إلى توافر الأطعمة الطازجة الصالحة للأكل وهم يحاربون على أرضهم وعدم اضطرارهم إلى أكل الأطعمة المحفوظة أو المشكوك فى صلاحيتها ، إذن فالأمر ليس وباء بل هو أمراض معدية مثل الدوسنتاريا وضربات الشمس وهو ما أطلق عليه لفظ الحمى ومما يدعم هذا القول أنه لو وجد بتونس وباء حقيقى لتناولته كافة المصادر بالتفصيل ، ومما يدعم أيضا الرأى القاطع بنظافة تونس من أى أمراض معدية هو ما أشيع عن قبول لويس لبعض العتاد والمؤن التى أرسلها المستنصر الحفصى له بفرنسا قبل قدوم الحملة وكانت على شكل هدية إليه . فلو كان بها وباء لانتقل على الفور عن طريق هذه الإمدادات ، ولكن قبول لويس لهذه الهدية أن صح التعبير دلالة واضحة على نظافة وسلامة تونس من أى أوبئة أو أمراض معدية [1]، وثمة سبب أخر يؤكد نظافة تونس من الأمراض المعدية هو أن تونس كانت مرتعا خصبا يعج بالتجار المسيحيين من كل دول غرب أوروبا، فلو كان بها شئ مثل هذا لوصل إلى مسامع قادة الحملة، ولايمكن أن تعد أوروبا حملة بأجمعها تكون وجهتها بلدا تنتشر به الأوبئة والأمراض المعدية .

ومهما يكن فقد كانت هذه الحالة المتدهورة بين صفوف الحملة سببا مباشرا فى فشلها . فعلى الرغم من رجحان كفة الصليبيين على المسلمين أثناء المعارك المباشرة بينهما إلا أن الفرنج لم يتمكنوا من الاستمرار فى القتال وانتهاز فرصة اختفاء المستنصر من الميدان بل انهمكوا فى أمر مرضاهم خاصة عندما أصيب يوحنا الحزين ابن الملك لويس بنفس المرض ، ومات بقرطاجنة ونقل على سفينة خاصة إلى فرنسا لدفنه هناك. وقد تألم لويس كثيرا لموت ابنه، وانهارت معنوياته إلى أبعد الحدود [2]. كما مات أيضا المبعوث البابوى للحملة، والكونت

١- Nangis, Vie de Saint Louis , p. 448 .

٢- Eracles, Op. cit., p. 458 ; Michaud, Crois VI, p. 201 ;

أنظر أيضًا : جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٣٢ ، مونروند : الحروب المقدسة ، ج٢، ص٣٥٥ .

دى نامـورس De Namorus والكونت دى فـاندومـا De Vandoma والكونت دى مـارشـال، ودى مـرجوا ، ودى بياتا وغيرهـم من كبار السادة والأشـراف في فرنسـا[١] وحاول لويس جاهدا أن يتمالك نفسه أمام هذه الكوارث التى حلت به وبرجاله وأن يخفى نبأ وفـاة ابنه عن أخيه شارل حتى لايتشاءم أو يتراجع فى مسألة قدومه ومساعدته [٢].

وكـان من سوء حظ الصليبيين أن أصيب لويس نفسـه بالمرض وقد أحس بـالألم يدب فى جسده أثناء احتضار ولده وشعر بألم شديد فى معدته واسهال كما ارتفعت درجة حرارته وأحس بدنو أجله فحمل إلى فراشه وهو يتحامل على نفسه من شدة الألم ولم يستسلم للمرض بل كان يتجول فى معسكرات الجنود المتناثرة حول الميناء ويصدر الأوامر لهم كعادته . وقد اجتمع الأطباء حول لويس ، ونصحوه بالبقاء فى فراشه، بعد استشرى المرض فى كل جسده، ولكن لم يكف عن جهاده فى سبيل القضية التى كرس حياته من أجلها وحتى آخر أيامه . وفى هذا الصدد يذكر جوانفيل «أنه الآن صدقت رؤيتى التى رأيتها قبل رحيل لويس إلى تونس من أن شرورا عظيمة سوف تحدث للويس وللحملة»، وعلى الرغم من اجماع المصادر الغربية على اصابة لويس بنفس المرض الذى أصيب به جنده [٣]، إلا أنه ثار خلاف بين المؤرخين العرب حول سبب وفاته ، يذكر ابن خلدون «أن سبب وفـاة لويس لم يكن المرض بل أنه أصبح ميتا حتف انفه ، ويقال أنه أصابه سهم غرب [٤]، فى احدى المعارك فماته[٥] ويقول المقرى «زن المستنصر دس إليه سيفا مسموما من سله أثر فيه سمه وقلده رسولا إليه بعد أن جعل من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره وقال للرسول: أن الفرنسيس رجل كثير الطمع ولولا

١- Michaud , p. 201 ; Cf. Also , Guizot, Op. cit. p. 173 .

٢- Nangis , Vie de Saint Louis , p. 457 ; Eracles , p. 458 . Joinville, Op. cit., p. 299 .

٣- Anonymous, Gesta Sancti Ludovici moni , R.H.G.F. t XX., p. 56 ; St. pathus , Vie de Saint Louis , R.H.G.F. t . XX . p. 103 , Chartres, de Vita et actibus regis Francorum Ludovici , R. H. G. F ., t . XX, pp. 37-39 ; Eracle Op . cit., p. 459 ; Cf . also : Hassall , Op. cit., pp. 37-39 ; Guizot, Op. cit., p. 138 ; Archer and kingsford, p. 401 ; Sejor , St. Louis . pp. 155-157 .

٤- المقصود بسهم غرب أى لايعرف جهته ولا من أطلقه .

٥- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ .

ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره وأنه سيرى السيف ويكثر النظر إليه فإذا رأيته فعل ذلك فـانتزعـه من عنقك وقبله، وقل له هذه هدية منى إليه، لأن من آدبنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر إليه بالقصد فلابد أن يكون له، ويحرم علينا أن نمسكه ، لأن ما أحبه المولى يكون على العبيد حرام، وتكراره النظر إليه دليل على حبه له ، ففرح النصرانى بذلك وأسرع الرسول العود إلى سلطانه فسل النصرانى السيف فتمكن السم فى لويس فمات فى الحين وفرج الله تعالى عن المسلمين » [١]. وقد أكد ابن أبى دينار هذه الرواية قائلا «أن المستنصر أرسل إليه مع ابن جرام الدلامى سيفا مسموما كان فيه مهلكه »[٢] فى حين يذكر ابن أبى رسول «أن المسلمين تحايلوا عليه وحاصروه حتى قتل بسهم منهم»[٣]، هذا فى الوقت الذى وردت فيه بعض الاشارات من «أنه مات بمرض الدوسنتاريا الذى تفشى بين جنوده وأن الله جعل مهلكه أرض المعلقة» [٤].

ومهما كانت الأسباب ، فقد حاول لويس جاهدا ورغم المعاناة الشديدة من المرض أن ينقذ جيشه من الهلاك ، ولم ييأس من مقدم أخيه، ورغم شدة الألم كان يتحامل على نفسه، ويتفقد مرضاه ، وكان يشد من أزر الجميع بكلماته الطيبة وفجأة وصلته أخبار أكيدة بقرب دخول شارل كونت انجو ساحل تونس فابتهج لويس كثيرا لذلك . ولكن صحته كانت فى تدهور مستمر، ولزم فراشه تماما ، ولم يعد قادرا على الخروج من خيمته وفى هذا الصدد يقول وليم دى سان باثوس [٥]، «لقد كان لويس يضع أمامه الصليب المقدس ويرفع يديه إلى السماء

١- المقرى : نفح الطيب، ج٢، ص٣٢٤ .

٢- ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٣٦ ، محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٣- ابن رسول : نزهة العيون، ج١٢ ، ورقة ١٩٩ .

٤- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج١١ ، لوحة ٣٧ ، العينى: عقد الجمان ، ج٢ ، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ ، المقريزى: السلوك، ج١، ق٢ ، ص٢٣٣ ، أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، أنظر أيضا :

Nangis, Vie de Philippe, pp. 470 - 471 ; Matt of West , Op. cit., vol II, p. 540 ; Michaud, Crois VI , p. 201

٥- هو أب الاعتراف لمارجريت زوجة لويس التاسع وأيضا أب الاعتراف لابنتها بلانش ومارجريت هى ابنه الكونت ريمون كونت بروفانس ، وقد تزوجها لويس عام ١٢٣٤ م ورافقته فى حملتيه على مصر وبلاد الشام=

ويتحدث بصوت عال كأنه يطلب المعونة والرحمة من الرب. وكانت جيوشه جميعها في صمت حزين . ولم يكن خبر قدوم شارل يسعدهم قدر رغبتهم في شفاء لويس». وعندما تيقن لويس من دنو أجله استدعى ابنه الأكبر فيليب الثالث، ووجه إليه وصيته وتعاليمه الخاصة بالحكم وقيادة صفوف الحملة في هذه المرحلة الحرجة وقد شملت تلك الوصية المعالم الواضحة الدقيقة التي سار عليها لويس سواء في حكم فرنسا أو في قيادته للحروب من أجل القضية الصليبية ومن أبرز هذه الوصايا أنه طالبه بتجنب اقتراف الذنوب مع التحلي بالصبر والاخلاص لله، والاستقامة والحلم مع الرعية وحسن الصحبة من رجال الدين والعلمانيين ، وألا يظلم أحدا ولايغتاب انسانا وأن يكون عادلا مستقيما محافظا على الصلوات بارا بوالديه ، صادقا في تخليص الصليب من أيدي المسلمين، متعاونا مع أي أمير مسيحي يطلب منه المساعدة (١).

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على ما سبق أن أكدناه في مستهل هذه الدراسة، من أن لويس التاسع قد تشبع بالروح الدينية إلى حد التزمت وأصبحت القضية الصليبية هي القضية الأولى التي كرس حياته من أجلها وفي سبيلها قام بثلاث حملات كانت آخرها تلك الحملة الفاشلة ضد تونس .

وعلى أي الأحوال فبعد أن انتهى من وصاياه لابنه، اتجه لويس بالدعاء للقديس ديو نيسيوس St. Dio Nsuis الذي اعتاد أن يستغيث به في أوقات الحرب والمحن وأخذ يطلب شفاعته وكانت كل دعواته للقديسين أن يحمي الله عسكره وينقذهم من هذه المحنة التي هم فيها ويقول جوانفيل « أنه كان يكثر الدعاء ويطلب الشفاعة من القديس دنيس ، وكان يردد أيها الرب هبنا القوة التي نستطيع بها ازدراء متاع الدنيا وتقبل كل مصيبة . كما طلب أيضا شفاعة القديسة جنفييف St. Jeanfieve وكان هذا من عادته عندما تحل به المحن والكوارث خاصة بعد أن أحس بدنو أجله.

= أما حملته الثالثة على تونس فلم ترافقه فيها بل بقيت في فرنسا وهي أم يوحنا الحزين الذي مات بتونس . أنظر: St. Pathus, Miracles de St. Louis , XI- XVI ; Michaud , Crois., VI , p. 212 .

١- Joinfille , Op . cit., p. 300 ; St. Pathus , Vie de St. Louis , p. 103 , Chartres, de Vita et actibus regis Francorum Ludo Vici , R.H.G. F, t XX, p. 39 ; Anonymous , Gesta Sanctic Ludovici noni , R. H. G. F, t . XX, p. 56 .

بعد ذلك طلب لويس من المحيطين به أن يضعوه على فراش من الرماد ووضع يده على صدره على هيئة الصليب وذلك يوم الثلاثاء ٢٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩ هـ ثم اتجه ببصره إلى السماء وظل هكذا حتى ظهر يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥محرم ٦٦٩هـ وكان كلما تمكن من الكلام يقول « يا إلهى اجعلنا أن نحتقر المتع الدنيوية وألا نخاف البته من محزنات العالم وشدائده ... أيها الرب كن مطهرا لشعبك بالقداسة وحافظا اياه من الشرور ويقول جوانفيل أنه كان يردد أنني ارى أورشليم ، سنتوجه إلى بيت المقدس، يارب دعنا نعمل باسمك على نشر المسيحية فى تونس وكان يتفحص كل من حوله ممن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلى أن وقع اختياره على أحد الرهبان المبشرين لهذا الغرض فى تونس وحدثه بما يدور فى نفسه بهذا الشأن»[١].

وهنا تتضح نوايا لويس، وهو يقترب من الموت ، فى العمل على غزو بيت المقدس، ونشر المسيحية الغربية بين المسلمين ، وفي الحقيقة لايمكن الفصل بين هذين الأمرين ، باعتبار أنهما يشكلان جناحى الحركة الصليبية : العسكرى والتبشيرى.

وفى اللحظات الأخيرة من حياة لويس كان ينظر إلى كل من حوله بعذوبة وأحيانا يبتسم إلى أن قال «ادخل إلى بيتك يارب واسجد فى هيكل قدسك» وفى تمام الساعة التاسعة من مساء يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ صعدت روحه إلى السماء» . ويذكر نانجى أن لويس حمل بعد وفاته ودفن باحدى ربوات قرطاجنة ، فى حين يذكر أحد المؤرخين الحديثين أن لويس نقل بعد ذلك إلى فرنسا ودفن هناك ، وفى عهد المشير أحمد باشا الحسينى استطاع الفرنسيون الحصول على تصريح من الحكومة التونسية باقامة كنيسة فى المكان الذى مات فيه لويس وهذه الكنيسة لازالت موجودة ومعروفة بكنيسة القديس لويس ومكانها بجوار متحف الآثار القديمة الذى أنشأه القسيسون المعروفون بالآباء البيض[٢].

١- Wieggler , Op. cit., p. 317 ., Matt. of West ., Op. cit. p. 450 ; Cf . also : Tenison , Op. cit., pp. 34 - 35 ; Archer and Kings ford , p. 401 ; Hassall, Op. cit., p. 38 ; Guizot, p. 138 ; Sejor , Saint Louis, pp. pp. 155-157 .

٢- أنظر : . Nangis, Vie de Saint Louis, p. 461

وأيضا : أبى أبى دينار : المؤنس، ص١٣٦ ، محمد الحبيب : لب التاريخ، ص٢١٦ .

وعلى الرغم من اتفاق غالبية المصادر الأجنبية على أن وفاته كانت يوم ٢٥ أغسطس إلا أنه ثار الخلاف بين المؤرخين المسلمين بخصوص هذا اليوم فيذكر ابن أبى دينار « أن وفاته كانت يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ / ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م» ، فى حين يذكر المسعودى أن وفاته كانت فى ١٠ محرم ٦٦٨هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٦٩ م، أما الكتبى فقد ذكر تاريخ الوفاة عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢ م على اعتبار أنه أورد تاريخ الحملة كله تحت أحداث عام ٦٦١هـ ، وسار على نهجه المقريزى . أما أبو الفدا فقد أورد الوفاة عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩ م دون تحديد لليوم أو الشهر ، وأيده فى روايته ابن الوردى [١]، فى حين ذهب ابن أبى زرع إلى تسجيل تاريخ منفرد عن وفاته مبينا أن ذلك كان فى ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ : ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م [٢].

وعلى أى الأحوال فمن المعروف من رواية شهود العيان لهذه الحملة[٣]، وعلى رأسهم وليم دى نانجى أن وفاته كانت بعد نشوب أول المعارك المباشرة بين المسلمين والصليبيين أى بعد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ ذى الحجة ٦٦٨هـ وأنه حين مرض ابنه يوحنا ومات، ذكر هذا المؤرخ أن لويس أصيب بنفس المرض الذى لم يمهله أكثر من أسبوعين ومات به ، أما رواية ابن أبى زرع فهى بعيدة عن الواقع لأنه إذا كان قد أصيب بالمرض فى محرم فمن غير المعقول أن يطول به المرض طوال أربعة شهور أى إلى ربيع آخر لأن هذا المرض الذى أصابهم من اسهال وحمى كان يفتك بمرضاه بسرعة ، خاصة وأنه لم تكن قد توافرت بعد سبل العلاج السريعة لانقاذ لويس أو غيره من المرض أضف إلى هذا ، عدم تأييد آى من المؤرخين المسلمين والمسيحيين لرواية ابى أبى زرع مما يؤكد عدم صحة هذا التاريخ حول وفاة لويس.

هذا ويرى العديد من المؤرخين الحديثين ممن اهتموا بتاريخ الحركة الصليبية على وجه العموم، ودور فرنسا فيها بوجه خاص، أنه بوفاة لويس التاسع تلاشى الأمل الأخير الذى كانت تتعلق به مملكة اللاتين فى الشرق. فكان ينظر إلى ملوك فرنسا على أنهم المدافعون

١- أبى أبى دينار، المؤنس، ص١٢٨ ، المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ ، الكتبى: فوات الوفيات ، ص٨٥ ، المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ ، الخطط ، ج١ ، ص٢٢٣ ، أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، أبو المحاسن : المنهل، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ ، العينى، عقد الجمان ، ج٢ ، ق٣، ورقة ٥٥٨ ، وأيضا محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٦ .

٢- أبى أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ .

٣- Nangis, Vie de Philippe, p. 457 ; Vie de Saint Louis', p. 461 .

الحقيقيون عن مصالح بيت المقدس[١]، فبعد وفاته مباشرة اضمحل الحماس الذى كان واضحا فى نفوس الجنود ولو إلى حين . وعلى الرغم من احساسهم باضطراب الجيوش التونسية فى مواجهتهم وسهولة احراز انجاز عسكرى ضدهم إلا أن الأمور قد اختلت وكان العبء ثقيلا فى اخراجهم من هذه المحنة .

ذلك أنه منذ أن تولى فيليب الثالث ابن لويس التاسع ووريثه على العرش [٢]، قيادة الحملة لم يكن يشغله شيئا قدر العمل على ايقاف المرض عند حد . لذا أظهر براعة فى احتواء الموقف وعقد اجتماعا حضره كافة الأمراء والبارونات كان أشبه بمظاهرة سياسية ، وقد استعرض فيه خطته القادمة بشأن الأوضاع الراهنة لقواته، ولم يعارض المجتمعون خططه الأمر الذى مكنه من التصرف فى الموقف دون وجود ما يشغله أو يثنيه عن عزمه ، حقيقة لقد تركت وفاة لويس فراغا بين القادة ولكن هذا لم يؤثر على نجاح سياسة ابنه فيليب «ولم ينجم عنه اضطراب بين صفوف الجند»[٣].

ويقول نانجى «أن المسلمين لم يستفيدوا من موت لويس وشلت حركتهم عن الاغارة على جيوشنا ولم نفاجئ منهم بأى دمار أو خراب يحل بين صفوفنا »[٤]. ويستطرد قائلا «أنه أمر غريب أن يقف المسلمون عند هذا الحد بينما كل الظروف فى صالحهم . فقائد الحملة وأشد المتعصبين ضد المسلمين قد مات ، والأمراض تفتك بجيشنا والحرارة لايطيقها جنودنا والأطعمة قليلة، بل ما وجد منها فاسد لايطيق أحد على أكله. فلماذا أهمل المسلمون كل هذا، وتقاعسوا وهم ينظرون إلينا دون القيام بأى خطوة ايجابية لصالح بلادهم؟ [٥].

١- Archer and Kingsford , Op. cit., p. 403 .

٢- لقد ثار جدل بين المؤرخين المسلمين حول شخصية فيليب فيشير ابن خلدون أنه بعد وفاة لويس تولى الحكم ابنه الذى كان قد ولد بدمياط وقد أشرنا من قبل أن الذى ولد هناك ليس فيليب بل يوحنا الحزين الذى توفى أثناء الحملة على تونس، كما أطلق لقب الهاردى وهاردى أى الجسور على فيليب نظرا لاقدامه وشجاعته فى تحمل المسئولية بعد وفاة ابيه . أنظر ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ ، محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٣- Nangis, Vie de Philippe, p. 469 .

٤- Joinville, Op. cit., p. 299 ; St. Pathus, Op. cit., p. 103 ; Anonymous, Op. cit., p. 57 .

٥- Nangis , Vie de Philippe, p. 471 .

ومن هذا العرض التفصيلى لأحوال الحملة وما آلت إليه لايسعنا إلا اتهام المستنصر بالتقاعس وعدم الحنكة بل والغموض فى كل خطواته، خاصة وأن العدو التقليدى له وهو شارل كونت أنجو كان لايزال بعيدا عن الأراضى التونسية ، والفرصة ذهبية أمامه . ففى غضون هذه الساعات القليلة ما بين وفاة لويس ووصول شارل كان بوسعه القيام بعمل عسكرى ناجح يصلح صورته أمام حكام المسلمين والمؤرخين المعاصرين له، والتفسير الوحيد لموقفه أن هرب من تونس ورحل بعيدا عن قرطاجنة. وأصم أذنيه تماما عن كل النداءات التى وجهت إليه وربما لم يصل إلى مسامعه وفاة القائد الصليبى نفسه، فلم نستشف من المصادر عربية وغير عربية ما يفيد علمه بوفاة لويس التاسع.

هذا فى الوقت الذى كان فيه بيبرس فى أوج استعداده العسكرى للقدوم بنفسه إلى تونس أن احتاج الأمر[١]، ولكن اسعدته كثيرا الأنباء التى أكدت انهيار معنويات الجيش الصليبى، وأراحه أكثر نبأ وفاة لويس[٢] وكان يتوقع من المستنصر القيام بعمل حاسم مستغلا هذه الظروف [٣]، وثمة أحد الآراء الذى رجح أن عدم قيام المستنصر بعمل عسكرى ضد الصليبيين احساسه أن مناخ بلاده قام نيابة عنه بما كان يريد القيام به، بمعنى أن حرارة تونس فى شهر أغسطس قد أتت على الجيش الصليبى فرأى أنه لا داعى لاستنزاف دماء التونسيين من أجل قضية رابحة مائة بالمائة [٤]، ولكن هل كان المستنصر بمثل هذه الحماقة ؟ وهل من المعقول أن البلاد تعتمد فقط على مناخها وتضاريسها فى الدفاع عن أراضيها ؟ وهل لم يصل إلى مسامعه قرب وصول شارل إلى تونس لينقذ جيش أخيه من الهلاك ؟ بالتأكيد هذا سبب واهى ضعيف لايصلح للدفاع عن المستنصر ذلك أنه كان مدركا لكل ما يفعله ، فلم يتصف بالتهور أو الرعونة مع أعدائه بل كان داهية والأمر كان معدا له تماما وهو عدم الدخول فى

١- محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٢- أبو المحاسن : المنهل الصافى، ج٢ ، ورقة ٢٥٩ ، الكتبى : فوات الوفيات ، ج١، ص٨٤-٨٥ .

٣- Gestes des Chiprois , pp. 198-199 ; Eracles, Op. cit., p. 460 ; Anonymous , Gesta Sancti Ludovici noni , R. H . G. F., t. xx, p. 56 ; Chartres, Op. cit. p. 39 .

٤- Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H.G . F, t . XX, p. 23 ; St. Pathus, Vie de Saint Louis ,R. H.G. F, t XX. p. 103 .

غمار حرب قد تأتي عليه، وتصور أن خرابات قرطاجنة ، ستنفر الصليبيون منها وتجعل فرصة الخلاص منهم أمر سهل وحاول جاهدا الوصول إلى حل الأزمة عن طريق سلمي وليكن الصلح وتقديم كافة التنازلات سواء رضي شعب تونس أو رفض ، لما في ذلك من حفاظ على عرشه أمام خصومه بالمغرب .

وبناء على ما تقدم فقد استفاد فليب من هذه الأوضاع وعين على حصار قرطاجنة قادة جدد بعد وفاة عدد كبير من القادة الذين سبق أن عينهم لويس. وسلم أمر حراسة القلعة إلى المارشال شارجينيير Charginier وقد تميز بالدقة والحماسة في أي عمل يوكل إليه ، فقد كان أحد حراس القلعة من قبل، وكان هذا أول عمل قيادي يكلف به دون أن يشاركه فيه أحد من القادة الصليبيين الآخرين. لذا أصدر أوامره بزيادة تسليح الجنود المحاصرين للقلعة من ناحية البحر خاصة عندما علم بتغير خطط التونسيين في الدفاع . وعمل شارجينيير على احكام كل المنافذ المؤدية للقلعة والتي يمكن أن تنفذ إليها القوى التونسية ، كما عين فيليب مجموعة كبيرة من القادة البحريين وأوكل إليهم مهمة حماية ساحل المدينة والميناء وضرورة الاستعداد التام لمواجهة أي هجوم جديد من قبل المسلمين .

واشترك فيليب مع عدد كبير من قادته في وضع خطة محكمة مفادها الاستيلاء على أي سفينة تصل إلى البحر تحمل المؤن والأمتعة للمسلمين بتونس، وقد أنيط بهذه المهمة عدد من البحارة المهرة[١] حيث تشير المصادر العربية المعاصرة أن تونس قد مرت بمحنة شديدة أنقذها الله منها بمعجزة [٢]، وذلك لأن الفرنج نجحوا بالفعل في قطع سبل الاتصال مع تونس دون أن يشعر بهم التونسيون المحاصرون لمعسكراتهم ولجأوا إلى المفاجأة والحيل البحرية البارعة لتحقيق أهدافهم . ومما زاد الطين بلة أنه انتشرت الأخبار في تونس تعلن عن قرب وصول شارل عم فيليب ، مما أوقع الرعب في قلب المستنصر والتونسيين. ويذكر نانجي «أنه في نفس اليوم الذي تمت فيه البيعة لفيليب شوهد عرض البحر وقد غطته أعدادا كبيرة من

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 472-473 .

٢- أبو الفدا ، المختصر ، ج٣، ص١٩٦ ، ابن الفرات : تاريخ الدول، ج١١، لوحة ٣٧ المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج١١ ، ص٢١٩ ، ابن رسول : نزهة العيون، ج١٢ ، ورقة ١٩٩ ، محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج٢ ، ورقة ٢٦٠ أ .

السفن القادمة بأصوات أبواق الحرب وطبولها تعلن وصول شارل كونت أنجو العدو اللدود للمستنصر وذلك حتى يؤازر أخاه فى تلك الظروف الصعبة من تاريخ الحملة ولم يكن قد وصل إلى مسامعه نبأ وفاة لويس (١)، وقد أحدثت هذه الأنباء قلقا كبيرا فى الأجواء التونسية بسبب العداء الشخصى القديم بين المستنصر وشارل بشأن قطع المستنصر الجزية التى كان يدفعها لأسرة هوهنشتاوفن من قبل واحتضانه لخصوم شارل، بالإضافة إلى ادراكه لأطماع شارل التى لاتنتهى فى الشمال الأفريقى، كل هذا وضع البلاد فى مأزق خطير على الرغم من أن تونس لم يكن ينقصها الاستعداد العسكرى لملاقاة العدو واستكمال مسيرة الكفاح لحماية البلاد من خطر شارل بصفة خاصة والصليبيين بصفة عامة.

ولسوف تثبت السطور القادمة عقم سياسة المستنصر فى معالجة الأمور التى ستؤول فى نهاية الأمر إلى خلاص تونس من براثن الحملة لا بالكفاح حتى النهاية ولكن بصلح مخزى فى حق تونس خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة.

١- Chartres , De Vita et acti bus , p. 37 ; Anonymous , Gesta Santi Ludovici noni . R.H.G.F, p. 56 ; St. Pathus , Vie de Saint Louis , p. 103 ; Beaulieu , vita Ludovici noni . R.H.G.F, t. xx, p. 24 ; Eracles. Op. cit., p. 459 ; Wiegler , infidel Imperor , p. 317 Matt of West ., vol II, p. 453 ; Reinaud. Extr . des . Hist. Arabes, p. 522 .



الفصل الخامس

نهاية الحملة الصليبية على تونس

(٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ)

الفرنج يستأنفون القتال بقيادة شارل كونت أنجو (٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ) – وصول حملة الأمير ادوارد إلى تونس (سبتمبر ١٢٧٠م / محرم – صفر ٦٦٩هـ) – تأرجح ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين ورجحان كفة التونسيين فى النهاية– الصلح بين المسلمين والصليبيين وبنوده– رحيل القوات الصليبية عن تونس– رحيل الأمير ادوارد إلى بلاد الشام– ما بعد الحملة .

لقد تركت وفاة لويس التاسع أثرا بالغ الخطورة على مصير الجيش الصليبى داخل تونس، وأصبح واجبا على ابنه فيليب أن يواجه التحديدات والمسؤليات الجسام التى واجهته . خاصة بعد أن انتعش المعسكر الإسلامى وزاد اصرار المسلمين على تخليص تونس من براثن العدو. حقيقة أن فيليب لم يجد متسعا من الوقت لخوض غمار معارك حاسمة ضد المسلمين ولكن هذا لم يكن يعنى استمرار الوضع على ما هوعليه فيما يتعلق بالمناوشات الباردة. فقد احدثت أنباء وصول شارل ملك صقلية وكونت أنجو إلى تونس ضجة ضخمة وكانت بمثابة الأمر الذى حسم كل هذه الأحداث ورغم أن وصوله جاء متأخرا إلا أنه كان الحلم الذى عاش من أجله لويس والصليبيين .

وكان وصول شارل يوم الاثنين الموافق ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ ، فى مظاهرة بحرية ضخمة خرجت على أثرها جموع كبيرة من السفن لاستقباله والاحتفاء به نظرا لمكانته بين زعماء دول غرب أوروبا[1]. وفى هذا الصدد يصف وليم دى نانجى لحظة وصول شارل قائلا « أن المسيحيين عندما شاهدوا عرض البحر وقد غطته سفن شارل ارتفعت فجأة

١– Nangis, Vie de Saint Louis , p. 471 .

صرخاتنا من الفرح وارتاع المسلمون لهذا المنظر ثم تقدم شارل فى جمع ضخم من رجاله ونزل من سفينته على رصيف ميناء قرطاجنة القديم وكان الميناء لايزال بأيدينا . ومنذ اللحظات الأولى التى وطأت فيها أقدام شارل أرض المدينة ساوره الشك والقلق حول مصير أخيه وجيشه ، فقد كان الميناء خاويا من مظاهر الاستعداد العسكرى، والسفن مهملة ، فأسرع إلى خيمة أخيه لويس فوجده لايزال ممدا على الأرض فوق كومة من الرماد . فألقى بنفسه على قدمى أخيه يقبلها وهو يبكى بحرقة بالغة كلها ندم على عدم موافاة أخيه ومساندته فى وقت كان فى أمس الحاجة إليه وكان شارل يخاطبه كأنه حيا «مسميا اياه سيده وأخاه»[١].

وعلى هذا ، فقد كان وصول شارل فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الحملة [٢]. أمرا له أهمية مما جعله يشعر بالمسؤلية الجسيمة التى ألقيت على كاهله ، خاصة عندما شاهد بريق الأمل فى عيون الجنود وابتهاجهم لحضوره [٣].

وعلى الرغم من ذلك، لو تتبعنا الاشارات السابقة عن شارل وكيف أنه أهمل نداء أخيه مرات عديدة وكيف أنه لم يفكر إلا فى مصلحته الذاتية، لأمكننا أن نستنتج أنه لم يكن الشخصية التى يمكن أن تتحمل كل هذا العبء ، فقد كانت بقايا القوات الصليبية بمثابة التركة المثقلة بالأعباء والهموم، وأدرك بحاسته السياسية صعوبة احراز كسب سريع على حساب المسلمين وجيوش أخيه على هذه الحالة من السواء، حقيقة أنه كان يحلم فى تأديب صاحب تونس والاستيلاء على ممتلكاته ، ولكن دون تقديم تضحيات كبيرة أو مواجهة هذا الموقف العصيب فمن المعروف أن عداءه القديم مع التونسيين منذ توليته عرش صقلية وامتناعهم عن تأدية الجزية التى كانوا يدفعونها لآل هوهنشتاوفن ، كانت آثاره لاتزال ماثلة فى أذهان شارل وتمنى أن يقمعهم ويجبرهم على اعادة دفع تلك الجزية الى خزينته ، هذا بالإضافة إلى آماله العريضة فى الاستحواذ على شواطئهم التى كانت تعد مرتعا خصبا للنشاط البحرى والتجارى المتفوق. أضف إلى ما تقدم رغبة شارل فى قمع التجار التونسيين الذين كانوا يشكلون خطرا اقتصاديا مباشرا على مصالحه فى جنوب ايطاليا وصقلية . فلما وصل شارل إلى تونس وجد أن الأمور لاتسير كما كان يتمنى، بل وجد صحوة اسلامية

١- Wiegler, Infidel Imperor, p. 317 .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 473 .

٣- Matt. of . West ., vol ., II, p. 450 ; Cf . also , Michaud , Op. cit., p. 210 ; Tenison , Op. cit., p. 35 ; Bailly , Op. cit., p. 308 .

كبرى تجتاح البلاد للخلاص منه ومن بقايا جيوش لويس المنهكة . كما وجد معسكر أخيه مليئا بالجثث المتعفنة، والقليل الباقي منها في انتظار الموت بعد أن أقعده المرض عن الحركة – لكل هذا كان شعوره بالخوف والقلق أكثر من الحزن والألم على وفاة أخيه وأكبر من آماله العريضة في اعادة فرض سيطرته على تونس(١)، فقد كان شارل يعتبر أخاه بمثابة الملهم له في خطواته العسكرية الأمر الذى أدى إلى تخبطه وارتجاله فى ترتيب جيوشه فى الساعات الأولى من وصوله بعد أن أدرك أنه لامناص من القتال .

هذا بالإضافة إلى أنه واجه صعوبات نفسية عديدة تمثلت فى الاتهام الذى بدا واضحا فى عيني ابن أخيه فيليب الثالث- وقد حاول شارل جاهدا أن يمحو عن نفسه ما نسب إليه من تقاعس وتراخ عن انقاذ جيش أخيه وتعلل بأن السبب فى عدم مجيئه وجود مشاكل خطيرة تتعلق بأمن ومصلحة بلاده (٢). ولكن ما منعه فى حقيقة الأمر هو انشغاله بتوسيع ممتلكاته على حساب بيزنطه واثارة الامبراطور البيزنطى ميخائيل بليولوجوس، وادخال الرعب فى قلبه ، هذا إلى جانب ما يتميز به من دهاء وخبث ، فى عدم استعداده لتقديم أى تضحيات من قبله للحصول على مكاسب سياسية في تونس معتمدا في ذلك على القوى الصليبية التى أتت مع أخيه (٣).

وعلى الرغم من أن فيليب كان مدركا تماما لنوايا عمه، إلا أنه لم يكن بوسعه عمل شئ سوى التعاون معه من أجل وضع خطة عسكرية ناجحة تخرجهم من المأزق الذى هم فيه .

وكانت أولى الخطوات التى قام بها شارل هى عقد اجتماع عسكرى موسع حضره القادة والنبلاء الفرنج استعرض فيه خطورة الموقف واصرار المسلمين على القتال الأمر الذى يتطلب ضرورة التصدى لهم . وفى نفس الوقت وصلت أخبار أكيدة بقرب قدوم الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا بقواته للمساعدة فى احتلال تونس وقد أشرنا من قبل أن وجهة ادوارد الأساسية

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 463 .

أنظر أيضاً : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٤٧-١٤٨ .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 463 ; Matt. of West ., vol . II, p. 450 .

٣- Reinaud , Op. cit., p. 517 .

أنظر أيضا : المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ .

كانت بلاد الشام، ففي هذا الصدد يقول متى أوف وستمنستر «أنه لما رحل لويس إلى تونس بقواته الكبيرة ، عزم الأمير ادوارد على حمل الصليب ومساعدته ولكن على أن تكون وجهته عكا . ونظرا لظروف عديدة قرر الأمير ادوارد الرحيل أولا إلى تونس عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس واستعداد الملك شارل في الرحيل إليها . فتوجه ادوارد إلى هناك على أمل احراز النصر وتحقيق مكاسب عسكرية ينسبها إلى نفسه وإلى بلده».

أما عن الظروف التي حدثت لادوارد فترجع إلى تقاعس النبلاء الذين سبق وأن وافقوا على مرافقته في حملته . فقد اعتذروا فجأة الواحد تلو الآخر عن المشاركة فيها مما اضطر ادوارد إلى الرحيل مع عدد قليل من رجاله لم يتجاوز ألف رجل. وقد صحبته في حملته زوجته اليانور القشتالية ثم تبعه أخاه ادموند دوق لانكستر ومعه جيش بقيادة دوق بريتاني وفرقة أخرى من جنود الأراضي الواطئة بقيادة تيدالو رئيس أساقفة ليبج [١].

وعلى هذا فقد كان تغير خطة ادوارد وقراره بالرحيل إلى الشمال الأفريقي ليس حبا في لويس التاسع بل لاغتنام الفرصة على أمل الحصول على مكاسب سهلة هي ثمرة الجهد الذي بذله لويس هناك بالإضافة إلى أن حالة وتعداد جيوشه بعد تقاعس امرائه كانت لاتؤهل له فرصة الرحيل إلى بلاد الشام، وقد اختلفت المصادر الأجنبية حول تاريخ وصول ادوارد إلى تونس، فثمة آراء ذكرت أن رحيله في أوائل صيف عام ١٢٧١م / ذي الحجة ٦٦٩هـ ، وهذا خطأ لأنه من المعروف أن وصول شارل إلى تونس كان يوم وفاة لويس أي يوم ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ ، وأن ادوارد لحق به بعد فترة قصيرة جدا وهذا يعني أنه وصل بالتحديد قبل بدء أولى المعارك المباشرة بين شارل والمسلمين، أي قبل يوم ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ، يضاف إلى هذا اجماع عدد من المصادر الإسلامية على أن عمر الحملة داخل تونس لم يتجاوز أربعة أشهر . وعلى هذا فالتحديد الزمني لوصول ادوارد بأنه في صيف ١٢٧١م / ٦٦٩هـ بعيد عن الحقيقة.

١- Matt. of West., Op. cit., vol II , P. 450 Cf. also : Gestes des Chiprois , P. 460- 461 ; Röhrict, La Croisade du Prince Edward, t. II. p. 620 .

أنظر أيضا : الكتبي: عيون التاريخ، ج٢، لوحة ٢٤٦ ، وكذلك سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ، ص١١٥٩ .

وعلى أى حال ، فقد ارتاع ادوارد للحالة التى وصلت إليها الحملة على تونس وتبخرت آماله فى نسب أى انتصار عسكرى إلى نفسه رغم موت لويس القائد الأوحد لهذه الحملة. هذا بالإضافة إلى الحالة المتردية التى كانت عليها فلول قوات لويس ورغبة شارل فى التسلط على أمور الحملة وحده . ورغم هذا فقد أبدى ادوارد قدرا من الحماسة العسكرية داخل قرطاجنة ولكنه فوجئ بالحقيقة القاسية التى صارحه بها شارل حيث أعلن له اصرار المسلمين على التضحية بكل ثمين وغال فى سبيل الخلاص من جيوش الصليبيين وأن القتال سيكون بمثابة قصة أليمة لن تنتهى بالخير على الصليبيين وهم على هذه الحالة اليائسة (١).

ولكن أمام هذه الظروف لم يكن بوسع القائدين ادوارد وشارل التراجع والانسحاب لما فى ذلك من مذلة وامتهان لشخصيهما وبلديهما، فى الوقت الذى صمم فيه شارل على عدم التحرش بالمسلمين أو الاشتباك السريع معهم، بل عمل على تنظيم صفوفه ونقل المرضى المصابين بعيدا عن معسكرات الجند القادرين على حمل السلاح حتى يضمن عدم انتشار عدوى المرضى بين جنوده الأصحاء أيضا. وعمل على اثارة حمية الجند للانتقام من المسلمين وعدم التراجع بعدما شاهد تنظيم المسلمون لصفوفهم وتغيير استراتيجيتهم وذلك بالاستفادة قدر المستطاع من المناطق الجبلية المرتفعة فى تونس لتطويق المعسكرات الصليبية من أعلى. هذا بالإضافة إلى تعزيز قواتهم من المشاة والفرسان الذين أحاطوا بمعسكرات الصليبيين وأصبح الفريقان يواجهان بعضهما وغدا الجنود الذين بالجبال بمثابة ستار واق لهم وقت القتال. وكان المسلمون يتجولون بجرأة بالقرب من خيام الصليبيين. وقد حاولوا استفزازهم والتحرش بهم وكانت هذه هى السمة الجديدة التى اتسم بها الجيش الإسلامى بعد حالة التقاعس التى لازمته فى بدايات الحملة إلى أن اندلعت الاشتباكات الدامية بين الطرفين وكان الطرف الصليبى بقيادة شارل نفسه ». وفى هذا الصدد يشير نانجى أن المعارك حين بدأت اتبع المسلمون معنا طريقة الكر والفر (٢)، وقد فوجئنا بوجود عدد ضخم منهم وقد غطوا

١- Matt. Of West., vol II. p. 450 ; Röhricht , Op. cit., pp. 620 ; Cf . also : Richard, Op. cit., vol II, pp. 397-398 .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 470 ; Chartres De Vita et actibus, p. 37 ; Matt. of West ., Op. cit. vol . II, p. 452 ; Anonymous, Gesta Sancti , R. H. G.F . t; XX, p. 57 .

الأرض المحيطة بمعسكراتنا وسدوا كل المنافذ التى تصل بين خيامنا وانتشروا متحرشين بنا، وكانت لديهم قدرة غريبة على مواجهتنا (١).

وقد كان رد الفعل الصليبى أن اصدر شارل يوم الخميس ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ أوامره بالاستعداد لمعركة حاسمة وطويلة مع المسلمين وتقدم عدد ضخم من الجنود التابعين لشارل واصطفوا بحماسة بالغة لدرجة أن عددا من القادة المرضى اصروا على مصاحبة شارل فى قتاله، ولكنه ابعدهم واقتصر الأمر على كل القادرين صحيا على حمل السلاح» يذكر نانجى أنه حين رأى المسلمون ذلك اضطربت صفوفهم فجأة . وكان ذلك راجعا إلى تصورهم بأن الصليبيين لن تقم لهم قائمة بعد موت لويس ولم يضعوا فى الحسبان هذه الدماء الجديدة التى أضافها كل من الملك شارل الانجوى والأمير ادوارد الإنجليزى على صفوف الجيش الصليبى، فكان الأمر بالنسبة للصليبيين يعنى عودة الروح من جديد بين صفوفهم، فى وقت تأرجحت فيه سياسة تونس وبشكل خطير تجاه الحملة رغم رجحان كفة التونسيين، فعلى الرغم من رجحان كفتهم فى بداية هذه المناوشات إلا أنه فجأة كانت تحدث اضطرابات وتراجع فى خططهم ، ويرجع ذلك إلى السياسة الملتوية العقيمة التى كان يتبعها صاحب تونس بين الحين والآخر والتى لم توضح بجلاء ما يريده من شعبه أو عدوه ونتيجة هذا اختلت الموازين ، ورغم أنهم ظهروا بمظهر المهاجم ضد الصليبيين فى بداية الأمر إلا أنه تغيرت سياستهم وتقاعسوا عن التصدى للصليبيين .

وحول أول صدام مسلح بين الطرفين يصف نانجى أحداثه قائلا « لقد رجحت كفة المسيحيين وتجلت جرأة وشجاعة شارل فى احتواء الموقف وتجنب مزيد من الهلاك على أيدى المسلمين، كما حرص على الاستفادة من تغير خططهم وعدم السير على وتيرة، واحدة ، خاصة وأن الهجمات قد انتشرت فى جهات متفرقة، وقد تساقط فى هذا الصدام عدد كبير من القتلى بين الطرفين ، واستعملوا فيها كافة أنواع الأسلحة ، ولم تكن المعركة برية فقط، بل امتدت إلى البحر أيضا . واكتظ ميناء قرطاجنة بقطع من السفن الحربية التى استقدمها معه الملك شارل. وقد بلغ من شراسة المعركة أن اكتظت الحقول والشوارع والمناطق المهجورة بجثث القتلى، فقد فر بعض المسلمين بعيدا عن ساحة القتال، ولكن شارل أصر على تتبعهم ومعه اثنين من كبار

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 470 .

النبلاء وقد صمموا على التنكيل بهم ويقول نانجى «أن شارل توغل ومعه النبلاء فى مناطق مجهولة وقد خشى عليه النبلاء من سوء العاقبة ، ونصحوه بالعودة إلى مقره خوفا من كمين يكون قد أعده المسلمون لهم. ورأى شارل ضرورة العودة ، بعد أن قتل فى هذه المعركة الشرسة الطويلة ما يقرب من ثلاثة آلاف جندى مسلم فى البر والبحر ، بالإضافة إلى عدد آخر قتل فى الحواجز التى أقاموها المسلمين بين معسكراتهم ومعسكرات الصليبيين»(١).

ويتضح من الرواية السابقة المبالغة في تصوير انتصار الفرنج على المسلمين إذ لايعقل أن تكون هذه امكانياتهم البشرية والمعنوية ويقتلون هذا العدد الضخم من المسلمين، خاصة وأن المواقع لم تكن مرتبطة بعضها ببعض بل انتشرت المواقع الإسلامية فوق أماكن متباعدة فى قرطاجنة إذ يؤكد نانجى «أن معسكرات المسلمين كانت أشبه بطوق حديدى يحيط بنا، وكانت المسافة بين كل معسكر والآخر تزيد عن أربعة أميال بالإضافة إلى اعتلائهم الجبال ليكونوا غطاء للمعسكرات الموجودة على الأرض»(٢). فكيف يمكن رغم كل هذا ورغم انهيار المعنويات وتساقط المئات منهم صرعى للمرض أن يقتلوا هذا العدد الهائل من المسلمين ، حتى لو ارتجل المسلمون فى وسائل دفاعهم أو تقاعسوا أثناء القتال، فالمقاييس السياسية والعسكرية للصليبيين آنذاك لاتتح لهم الفرصة للفتك بالجيش الإسلامى بهذه الصورة.

وعلى العموم ، فقد كانت هذه هى صفة بعض المؤرخين المسيحيين ممن كتبوا عن تاريخ الحركة الصليبية وهى المبالغة والتحيز لبنى جلدتهم وتهويل انتصاراتهم ، ومع هذا ورغم تأرجح كفتى الميزان بين الطرفين صعودا وهبوطا آنذاك إلا أن المسلمين لم يستبد بهم اليأس بل أعادوا تنظيم خططهم العسكرية على أساس تكريس كل الجهد لحماية مدينة تونس نفسها، لأنهم توقعوا أن آمال شارل وطموحاته لاتنحصر فى قرطاجنة الخربة المهدمة فحسب، بل تتعداها إلى تونس ذاتها ، لذا فقد أحكم الحصار حول المدينة برا وبحرا فى الوقت الذى لم تغمض للمسلمين عين عن معسكرات العدو الموجودة بقرطاجنة والتى اتخذ الصليبيون منها

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 471-473 .

٢- Nangis, Vie de Philippe , p. 473 ; Chartres , Op. cit., p. 36 ; Anonymous , Gesta Sancti , p. 56 .

مركزا لعملياتهم العسكرية .. وقد أظهر التونسيون فى جولة أخرى من صراعهم مع شارل براعة فائقة فى نشر سفنهم على امتداد السواحل المحيطة بقرطاجنة ، فى الوقت الذى اعتمدوا فيه على المناطق المرتفعة التى أصبحت بمثابة معسكرات دائمة لهم، حيث كان بوسعهم سرعة اكتشاف التحركات الصليبية من أى جانب . ولم يفطن الصليبيون لهذا الأمر واقتصرت تحصيناتهم على ما بأيديهم من الأجزاء التى احتلتها قواتهم فى بداية وصول الحملة، وأدرك الصليبيون خطورة الموقف، وأن المسلمين اطبقوا عليهم مثل فكى الكماشة التى أوشكت أن تطبق على صفوفهم .

وبناء على ذلك عقد شارل مجلسا عسكريا طارئا تشاور فيه مع القادة حول كيفية التوصل إلى طريقة تمكنهم من خرق هذا الحزام المحكم الذى فرضه التونسيين حولهم ، وأوضح خطورة الموقف على الساحل ، وأبدى مخاوفه من أن يغير المسلمين من البحر على القلعة التى كانت لاتزال فى قبضتهم ويستعيدونها. ولكن أحد الفرسان طمأنه قائلا «سيدى إن القلعة منيعة ومحصنة بالعديد من الأسلحة وكل من بداخلها على أهبة الاستعداد للدفاع عنها، بل أنهم كانوا متفائلين جدا، وأضاف آخر بأن المسلمين لو حاولوا الاقتراب منها سوف تلحق بهم هزيمة منكرة وسيضطرون إلى القاء السلاح والاستسلام»[١].

والحقيقة كانت غير ذلك تماما، فقد أبلى المسلمون بلاءا حسنا فى جولتهم الثانية من الصدام المباشر مع شارل، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر ١٢٧٠م / ٢٠ محرم ٦٦٩هـ، ولم يستسلم الجند بل لم يفكر أحدهم فى التراجع أو القاء السلاح كما توقع الفرنج، بل استؤنف القتال من جديد وقام المسلمون بالقاء السهام والمنجنيقات من مواقعهم المتعددة داخل تونس سواء برا أو بحرا، مما أحدث هرجا داخل صفوف المسيحيين، ويشير شارتر قائلا: «أنه لم يعد بمقدورهم مواجهة هذه الهجمات الصادرة من جهات متعددة فى وقت واحد. لذا تركزت هجماتهم ، أو رد الفعل لديهم على الاشتباك مع القوات القريبة من معسكرات المسلمين، وتركزت خطتهم على الدفاع فقط وحماية ما بأيديهم من أملاك تابعة لتونس، وأهملوا عنصر الهجوم، أو المباغتة كما فعل المسلمون»[٢]. وقد ترتب على هذه المعركة سقوط عدد آخر منهم

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 473 ; Eracles, Op. cit., p. 459; Reinaud, Op. cit., p. 518.

٢- Chartres , de Vita et actibus rgis Francorum , R. H. G. F, t .XX, p. 37 ; Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H. G. F, t . XX, p. 23 .

قتلى حيث يؤكد نانجى «بأن الصليبيين كانوا يتفادون تلك الضربات المتلاحقة ونادرا ما كانوا يتصدون لها». وهذه دلالة واضحة على لسان أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث برجحان كفة الجيوش الإسلامية وارتفاع معنوياتهم . وقد استمرت هذه المعارك فترة طويلة، وبلغ عددها ما يقرب من اثنتى عشرة معركة ما بين برية وبحرية اتبع فيها المسلمون خططا دقيقة وناجحة حيث عملوا فى بعضها على عدم الخوض بأعداد كبيرة من الجند، بل كانت تتقدم فرقة يتراوح عددها ما بين مائة ومائتين من الرجال وذلك للاصطدام مع العدو فى الوقت الذى تقوم فيه فرقة أخرى لتشكل ستارا لها من الخلف ، على أن تقوم هذه الفرقة بالقاء السهام على العدو بطريقة بارعة فى نفس اللحظة التى يتقدم فيها الصليبيين للاشتباك مع المسلمين»(١) . فوقع الخلل والاضطراب في صفوف الفرنج نتيجة هذه السياسة العسكرية. لقد أذهلتهم براعة المسلمين واصرارهم على حماية بلادهم ضد الغاصب الدخيل. وقد أشار المؤرخون الصليبيون إلى سقوط ما يقرب من ستمائة قتيل وجريح من رجالهم فى هذه المعركة التى رجحت فيها كفة المسلمين (٢). وعلى الرغم من ذلك فقد كان من بين الصليبيين من ثارت حميته ، وأصر على مواصلة القتال. إذ رفض أحد الفرسان ويدعى جى دى بوزوا Jay de Bosoa الفرار من ميدان المعركة واشتبك مع المسلمين ولم يكن معه سوى شقيقه وعدد قليل من المحاربين الأشداء . ودارت معركة حامية بين المسلمين وبوزوا ومن معه بالقرب من ميناء قرطاجنة وذلك يوم ١٩ سبتمبر ١٢٧٠م / أول صفر ٦٦٩هـ، وقد صمد بوزوا فى البداية ولكن نظرا لتفوق المسلمين فى العدد والعدة وبراعتهم فى مباغتة العدو، فقد قتل عدد كبير من رجاله. ولكنه تمكن بعد ذلك من احراز تقدم على المسلمين ، وسقط عدد من جنودهم قتلى «إلا أن الدائرة دارت عليه مرة أخرى وسقط أسيرا فى أيدى المسلمين. وقد حزن عليه المسيحيون كثيرا . وثارت فئة أخرى من الفرسان الفرنج مطالبين باسترجاع بوزوا حتى لو أدى الأمر الألتحام مع المسلمين ، وقد بدأت هذه الفئة بعمل كمين للمسلمين وقاموا بوضع بعض الحواجز التى تعوق وصولهم. إلا أنهم فى أثناء تقدم الفرنج هبت عليهم عاصفة ترابية ، ضلوا على أثرها الطريق واستغل المسلمون الموقف وكثفوا من ضرباتهم على هذه الفرقة ، مما

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 469 .

٢- Eracles , Op. cit., p. 459 ; Anonymous , Gesta Sancti , R. H. G. F, t. XX, p. 57 .

أوصلهم إلى حالة شديدة من الضعف والانهاك لعدم قدرتهم على تحدى الطبيعة وسيوف المسلمين فى آن واحد فلم يكن الصليبيون على دراية كافية بمناخ تونس، ويقول نانجى «أننا ظللنا هكذا وأمورنا تسير من سيئ إلى أسوأ ، ولم يطرأ أى جديد يحسن من هذه الأوضاع رغم وصول كل هذه الإمدادات مع الملك شارل والأمير ادوارد » (١).

ورغم كل هذه الاشارات الواضحة عن سير الأمور لصالح المسلمين وارتفاع معنوياتهم طوال هذه المعارك المتقطعة التى امتدت من أوائل سبتمبر حتى منتصف شهر أكتوبر ١٢٧٠م/ محرم - ربيع أول ٦٦٩هـ، ورغم توفر ظروف عديدة تؤهل لهم الانتصار على الصليبيين واستعادة أراضيهم دون تقديم أى تنازلات ، خاصة بعد الحالة المتردية التى وصلت إليها الجيوش الصليبية والتى لم يرفع من معنوياتها كثيرا وصول شارل أو ادوارد . رغم كل هذا بدأت فجأة المراسلات بين الصليبيين والمسلمين من أجل طلب الصلح. وفى هذا الصدد اختلف المؤرخون من مسلمين ومسيحيين حول من بدأ بالمراسلة فى طلب الصلح، هل الخليفة المستنصر أم شارل كونت أنجو ؟ وهناك آراء تؤكد أن المستنصر كان يراسل الأعداء بصفة مستمرة من أجل الصلح، وأنه قدم تنازلات عديدة فى سبيل ذلك (٢)، وثمة رأى آخر يقول «بأن شارل لم تتوافر لديه روح المثابرة والاصرار على القتال بعد أن شاهد استفحال أمر المسلمين، وتدهور الأوضاع العسكرية والاقتصادية والصحية داخل معسكره ، وأدرك عدم قدرته على الاستمرار فى القتال وهو على هذه الحالة من الضعف ، والقوى الإسلامية تتوافد من كل جهة لمساعدة تونس فى سبيل تطهير أراضيها ويؤكد هذا الرأى أن شارل لم تكن لديه نية مسبقة للدخول فى معارك طويلة من أجل تونس، بل كان يتمنى الحصول على مكاسب سهلة دون تقديم كل هذه التضحيات»(٣) .

١- Nangis , Vie de Philippe, p. 469 ; Eracles , Op. cit., p. 459 ; Matt. of West ., Op. cit. p. 450 .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ ، ابن الفرات تاريخ الدول، ج١٢ ، ورقة ٧٤ ، وأيضا محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٥ .

٣- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٤٨ ، محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، ص١٢٨ ، أنظر أيضا : Eracles, Op . cit., p. 458 ; Matt. of West ., Op. cit ., p. 450 ; Reinaud, Op. cit., p. 519 .

ونحن لانستبعد على الاطلاق أن يبذل المستنصر جهده لاقرار الصلح والدليل على ذلك هو تراخيه في العديد من المواقف والتواء سياسته وعقمها في الدفاع عن بلاده وسلبيته في حماية قرطاجنة ومحاولته الفرار من ميدان المعركة، وهي في ذروتها سواء إلى القيروان أو إلى قسنطينة ، بالإضافة إلى خوفه من العربان بعد أن ازداد انتجاع العرب لأراضيهم في الجنوب، مما أقعد جيشه عن الصمود في القتال[١]، فصمم على عقد الصلح والدليل على ذلك تلك التنازلات المخزية التي بذلها المستنصر للصليبيين مقابل الرحيل عن بلاده ، فلو أنه كان مخلصا لوطنه ، واضحا في سياسته ، كان بامكانه أن يجبرهم طلب الصلح، وأن يملي عليهم شروطه كيفما يشاء، فلماذا تعجل وقدم هذه التنازلات والموازين تميل إلى جانبه ، والاجابة أنه كانت لديه نية مبيتة على عقد الصلح ورحيل الفرنج وانهاء هذه الأزمة بالطرق السلمية بدلا من الحرب والقتال .

ورغم هذا فهناك آراء عالجت هذا الأمر بحيدة كاملة، حيث أشار البعض إلى أنه جرت أمور بين الطرفين آلت في النهاية إلى عقد الصلح[٢]، وتستند هذه الفئة في رأيها على أمرين الأول يتعلق بالمستنصر وهو ما سبق أن أوضحناه ، والثاني يتعلق بشارل الأنجوي ورغبته في عدم استمرار نزيف الدم بين الصليبيين طويلا وتوفير جهده شخصيا لآمال أبعد عن الاستيلاء على تونس .

ومثلما اختلفت الآراء حول من بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، اختلفت أيضا حول يوم عقد الصلح ومدته ، فمنهم من يقول أنه تم خلال شهر صفر ٦٦٩هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٢٧٠م[٣] ولم يحدد هذا الفريق من المؤرخين يوما معينا في هذا الشهر ومنهم من ذكر أنه عقد في ربيع أول ٦٦٩هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٢٧٠م ، دون تحديد لليوم [٤]، هذا بينما يذكر المقريزي أن تاريخه هو يوم ١٥ محرم ٦٦٩هـ / ٥ سبتمبر ١٢٧٠م[٥]، ويوجد فريق رابع يؤكد أنه عقد في

١- محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١ .

٢- المقريزي : السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص٦٥٣ .

٣- محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٤- ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص١٣٢ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٣ ، وأيضا : . Eracles, Op. cit., p. 458

٥- المقريزي : السلوك ، ج١، ق٢ ، ص٦٥٣ .

ربيع آخر ٦٦٩هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٧٠م [١]. هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه وليم دى نانجى مؤرخ الحملة وشاهد العيان فيها، إلى أن الصلح عقد فى يوم الخميس ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ . وهو يتفق فى هذا مع ابن القنفد وابن خلدون والمؤرخ الغربى هرقل [٢]، ونحن نميل إلى رواية نانجى لمعاصرته للأحداث ومشاهدته لها، بالإضافة إلى أن روايات ابن القنفد وابن خلدون أيضا اتسمت بالصدق والواقعية حول أحداث هذه الحملة بصفة عامة.

وكما ثار الخلاف بين المؤرخين القدامي حول تاريخ عقد الصلح، كذلك ثار الخلاف بينهم حول المدة التى قطعتها الحملة فى تونس فبعضهم من يشير إلى أنهم مكثوا أربعة أشهر ومنهم من قال ثلاثة ومنهم من قال ستة أشهر، ولكن بناء على ما تقدم وعلى التسلسل الزمنى لأحداث الحملة من بدايتها إلى نهايتها، تكون الحملة قد قطعت ثلاثة أشهر واثنتي عشرة يوما، على أساس أن وصولهم تونس كان يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذى القعدة ٦٦٨هـ [٣].

وعلى هذا فقد تم اقرار الصلح بحضور كل من «الملك شارل والملك فيليب الثالث والأمير ادوارد والكونت روبرت كونت أرتوا، وابن أخيه رارل، وابن عمه جيرمان وكونت نافارا »[٤] هذا من الجانب الصليبى أما من الجانب الإسلامى «فقد حضر السلطان المستنصر الحفصى والقاضى ابن زيتون الذى تولى كتابة العقد وأبو الحسن على ابن عمر وأحمد بن الغماز والشيخ زيان محمد بن عبد القوى واختص صاحب صقلية بتسلم عقد خاص عن جزيرته[٥]،

١- Chronique anonyme finisant en 1286 , R. H. G.F, t XXI , p. 85 .

وأيضا ابن أبى زرع : الأنيس المطرب، ص٢٧٨ .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 474 ; Matt. of West., p. 450 .

أنظر أيضا حاشية ٣ نفس الصفحة .

٣- ابن القنفد : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، ص١٣٢ ، ابن أبى دينار: المؤنس ، ص١٢٨ ، محمد الباجي المسعودى: الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، محمد الحبيب: لب التاريخ ، ص٢١٦ ، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ، ص١١٣ .

٤- Reinaud , Op. cit., p. 519 .

٥- ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩٣ .

كما حضر أيضا من الجانب الإسلامى الشيخ الفقيه أبو القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى، وحول سيرة هذا الرجل يقول المؤرخ أبو العباس الغبرينى «أنه كان من أفقه علماء عصره، عرض عليه المستنصر وظيفة القضاء فى حاضرة أفريقيا فرفض ، وطلب منه أمير المؤمنين المستنصر الاجتماع به فاعتذر عن ذلك وقال أنى لا أصلح لذلك لعدم معرفتى بلقائهم... ويوم حدوث الصلح بين المسلمين والنصارى أصدر المستنصر رسما شهد فيه مشايخ الفقهاء أن الصلح صلاح وسداد فى حق المسلمين. وطلب المستنصر أن يكون أبو القاسم من جملة الشهود فى هذا الصلح فقيل له تشهد فى الصلح ، فقال : «لا أنى لا أعلم الحال، يشهد من يعرف الحال» فرد عليه أبو القاسم بن البر قائلا : هذا الصلح «جائز أو غير جائز»؟ فرد أبو القاسم القيسى «أنه إذا كان صلاحا وسدادا فى حق المسلمين فهو جائز، وإن لم يكن غير ذلك فهو غير جائز » فقال له : «هو صلاح وسداد» . فصمم أبو القاسم على تقديم توضيح كامل يؤكد هذا القول حتى يوافق على حضور شهادة العقد، فسمع نقرا على باب الغرفة التى كانوا بها وإذا به أمير المؤمنين المستنصر من وراء الحجاب وهو يشير إلى انقضاء المجلس، فخرج أبو القاسم القيسى مصمما على عدم الشهادة واستحسن ذلك من حاله »[١].

وهذه الرواية إن دلت على شئ ، فإنما تدل على أن المستنصر فشل فى تهيئة الرأى العام داخل تونس لقبول فكرة الصلح. بل أنه هضم حق كبار القوم والمشايخ فى الاعلان عن رأيهم بصراحة فى هذا الأمر واعتبر قرار الصلح مرسوم سلطانى لابد أن ينفذ وافق المسلمون عليه أم لم يوافقوا .

وعلى أى الأحوال فقد أورد لنا المؤرخ الغربى رينو نص الوثيقة الذى لايزال محفوظا فى الأرشيف الملكى بفرنسا ، وفيما يلى نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

المادة الأولى : «يكون من حق أمير المؤمنين والمسلمين التابعين له وكل البلاد التى فى سلطته ، حق الحماية والمنعة وعدم الاعتداء من قبل المسيحيين عليه .

١- أبو العباس الغبرينى: عنوان الدراية ، ص١١٦ .

المادة الثانية : «إذا حدث أن ثمة سفينة إسلامية أو مسيحية عليها مسلمين أو مسيحيين قد قامت بعمل يخرق القوانين البحرية فى الشواطئ التابعة للأفراد المسيحيين السالفى الذكر أو للأمير أبوعبدالله محمد، يجب عدم الاعتداء عليها، بل يفرض عليها ارجاع كل ما سلبته بدون وجه حق، وأن تسلم بالكامل للمالك الأصلى. كما يجب توافر الضمان المطلق لهذه السفن بالنسبة للمسيحيين أو المسلمين بأشخاصهم وأمتعتهم وكامل ممتلكاتهم على هذه السفن .

المادة الثالثة : يكون من حق المسيحيين أن يؤسسوا ويتمتعوا بالاستقرار فى الولايات التابعة للمسلمين ، وذلك تحت اسم الأمير المسيحى الذى أرسلهم، ويكون من حقهم المطالبة بتحديد أماكن لهم ليقوموا فيها ببناء منازل لهم كما يسمح لهم بحرية العبادة فى الأماكن المخصصة لهم، وكذلك اقامة الطقوس الدينية الخاصة بهم، ويكون من حقهم عمل أى شئ اعتادوا عمله فى بلادهم .

المادة الرابعة : بالنسبة للتجار المسلمين الذين يعيشون فى الممتلكات الخاصة بالأمراء المسيحيين السالفى الذكر، وهم فيليب وشارل ومن معهم من الأفراد والنبلاء ، والذين قد يتصادف وجودهم فى بلاد أمير المؤمنين ، يكون لهم حق المرور فى بلاده دون عقبات ، وإذا فقد منهم شئ ، يلزم حاكم المسلمين باعادته إليهم ، كما ينبغى عليهم الوفاء بكل التزاماتهم وواجباتهم تجاه أمير المؤمنين . وفوق ذلك فإن الأمير المسلم من حقه أن يردع أى مسيحى يقف ضد السلطة أو يخالف القانون، كما أنه من حقه أيضا أن يرفع الحماية عن كل من يحاول استخدام السلاح لخرق قانون البلاد.

المادة الخامسة : على كلا الجانبين المسيحى والمسلم اطلاق سراح الأسرى وتسليم خصوم شارل الهاربين إليه ليصحبهم معه إلى صقلية [1].

المادة السادسة : من منطلق اعتراف طرفى هذه المعاهدة بسلطة الآخر ، فإنه يتعين على الأمراء المسيحيين السالفى الذكر اخلاء البلاد الخاصة بممتلكات أمير المؤمنين . وبعد توقيع
عدم تواجد أى فرد مسيحى فى تونس إلا من لم يجد مكانا له على
و هؤلاء المحتجزين لسبب أو لآخر ، أو من يطلب أمير المؤمنين

—

: تاريخ أفريقيا، ص١٨١ .

المادة السابعة : تكون مدة هذه المعاهدة خمسة عشر عاما ابتداء من أول نوفمبر القادم (١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ) (١).

المادة الثامنة : على أمير المؤمنين أن يدفع مبلغ قدره عشرة آلاف ومائتين قنطارا من الذهب وكمية مساوية من الفضة (٢)، ويرسل لهم اثنين وثلاثين جملا وتقسم هذه الأموال على قسمين. القسم الأول يدفع قبل رحيل الصليبيين، والقسم الثانى عند نهاية العام المقبل ويدفع المستنصر لشارل غرامة حربية كتعويض لما أصاب الجيوش المسيحية من دمار من جراء هذه الحرب. ويحتم على أمير المؤمنين اعادة دفع ضعف الجزية التى كان مقررا أن يدفعها لآل هو هنشتاوفن من قبل وذلك مقابل حماية صاحب صقلية لتونس من القراصنة ، وعلى أمير المؤمنين أن يدفع خمس سنين مقدما من هذه الاتاوة عن المدة السابقة وخمس سنين مقدما أيضا عن المدة القادمة(٣).

كانت هذه هى شروط الصلح، التى أوضحت كيف نجح شارل في تحقيق أطماعه وأنه كان يعمل لشخصه وبلاده، حيث كانت كل البنود متمشية تماما مع مصالحه فى تونس(٤) والواضح أن المسلمين قد خسروا الكثير من جراء هذه المعاهدة غير المتوازنة ، ولكن ماذا يفعل شعب تونس أمام اصرار المستنصر على عقد الصلح ولا أحد يعلم نواياه الحقيقة ولكن اتضح للجميع أن المستنصر على الأقل لايرغب في الاستمرار فى القتال وأكد هذا رأى المقرى «أن المستنصر غنم غنيمة ما سمع بمثلها قط من جراء هذه الأحداث(٥)» حيث عمل المستنصر

١- والجدير بالذكر أن هناك آراء أخرى قالت بأن مدة الصلح سبعة عشرة عامًا فى حين أكد عدد آخر من المؤرخين المسلمين أن مدته خمسة عشرة عاما فقط. أنظر: . Matt, Of West ., vol . II, p. 450

وأيضا ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس، ص١٢٨ .

٢- ذكر ابن أبى دينار أن المبلغ المدفوع هو ألف ومائة قنطار من الذهب وعشرة قناطير من الفضة. أنظر المؤنس، ص١٢٨ .

٣- نقلا عن : Reinaud . Extr . des . Hist . Arabes, pp. 519 ; Matt . of West ., The flowers of History . vol . II, pp. 450 .

٤- Beaulieu . Vita Ludovici noni . R.H.G.F, t . XX, p. 23-24 ; Nangis, Vie de Philippe, p. 477 ; Paudua, Historia Albigensium . R. H. G. F, T. XX. pp. 774-775 .

٥- المقرى: نفح الطيب، ج٢، ص٣٢٤ .

جاهدا على أن يحكم فى هدوء ، وهذه هى غنيمته، حتى لو كان ذلك على حساب كرامة الشعب التونسى ومصالحه العامة فلقد كان بامكانهم أن ينفضوا عن كاهلهم تلك التبعية المذلة لشارل ويتحرروا من تلك الأعباء المالية التى فرضت كغرامة حربية عليهم . ولو صبر المستنصر قليلا فى ساحة القتال، لتمكن من اجبار المسيحيين على الرحيل دون قيد أو شرط نظرا لحالتهم المتردية من كل الجوانب .

يضاف إلى ما تقدم أن أطماع شارل كانت أكبر من تونس وكان يتمنى فى دخيلة نفسه الرحيل حتى لايستنفذ قواته وجنوده والتى كان فى أشد الحاجة إليها للاستيلاء على بيزنطة وادخال الرعب فى قلب الامبراطور البيزنطى ميخائيل بليولوجوس، ولكن عدم ادراك المستنصر لكل هذه الأمور جعلته يمتهن نفسه وشعبه أمام خصومه، ويخسر حلاوة النصر على الصليبيين ويجنب بلاده محنة اقتصادية من جراء دفع الجزية.

وعلى أى الأحوال فبعد توقيع الصلح مباشرة أمر المستنصر بهدم مدينة قرطاجنة التى كان يحتمى بها الصليبيون وخاصة القلعة والبرج وأفسد صلاحية الميناء وسوى المدينة بالأرض حتى لايعودوا إليها مرة أخرى[١]، وهذا نفس ما فعله الظاهر بيبرس عندما أمر بهدم دمياط لمنع شر اعتداء الفرنج عليها .

وقد قام المستنصر بجمع الأموال من الشعب ، ووجد معارضة شديدة من التونسيين ولكنه تمكن من احتواء الموقف واقناع شعبه بضرورة الدفع لضمان خلاص تونس من محنتها واجبار الصليبيين على الرحيل [٢]. وقد ترك الصليبيون أثناء استعدادهم للرحيل ما يقرب من تسعين منجنيقا داخل قرطاجنة غنيمة سائغة لتونس [٣].

وفى يوم الجمعة ٢١ نوفمبر ١٢٧٠م/ ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ[٤] اكتملت الاستعدادات الخاصة بالرحيل عن تونس وقد اصطحب شارل معه الأمير ادوارد إلى صقلية ، وفى الطريق هبت

١- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٢ ، انظر أيضا : محمد مزالى : تاريخ افريقيا، ص١٨١ .

٢- المسعودى : الخلاصة النقية، ص٦٢ ، ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ .

٣- ابن خلدون : المصدر السابق، نفس الصفحة.

٤- Eracles , Op. cit., p. 450 ; Chronique anonyme Finisant on 1286 , R. H. G. F, t XXI , p. 850 .

عاصفة عاتية أحدثت المزيد من الدمار فى الأسطول الصليبى وتزايد عدد الضحايا غرقا فى البحر حيث هلك عدد كبير من النبلاء والجنود والقادة، وغرقت سفن بأكملها ، وهى محملة بأموال التوانسة التى استولوا عليها تنفيذا للصلح، أما حاملات الجنود الخاصة بالأمير ادوارد فلم تصب بشئ، بل نجت من الهلاك بمعجزة . وفى هذا الصدد يشير متى أوف وستمنستر قائلا «أن الله انقذ جيوش الأمير ادوارد لأنه رفض أن يأخذ شيئا من أموال البربر لنفسه، حيث تأثر كثيرا واعتبر تونس الأرض التى راقت فيها دماء الكثيرين من أبناء الصليب »[١] وتصور أن هذه الأموال هى ثمن دماء الصليبيين الذين ماتوا . وقد نجا الملك شارل من الموت بأعجوبة ولم تغرق سفينته فى حين تساقط النبلاء وزوجاتهم غرقا فى مياه البحر، فقد غرقت ايزابيلا دى أراجون Isabilla d'Aragon زوجة الملك فيليب الثالث، كما غرقت ايزابيلا دى فرانس ابنة الملك لويس والتى قدمت بصحبة جيوش عمها شارل كونت انجو ، كذلك مات فى رحلة العودة ملك نافار «ثيبوت» والفونس كونت بواتييه وتولوز شقيق لويس التاسع، وقد دفن فى كنيسة السيدة العذراء بمدينة سان دينس [٢].

ووصلت فلول القوات الصليبية إلى صقلية فى حالة يرثى لها من التمزق والضعف وكان الأمير ادوارد قد وافق على أن يمضى فصل الشتاء بصقلية. وفعلا بقى هناك حتى يوم ٩ مايو ١٢٧١م / ٢٦ رمضان ٦٦٩هـ حيث قرر الرحيل إلى بلاد الشام لتحقيق الهدف الأساسى الذى قام من أجله من انجلترا . وقبل الرحيل ودع الملك شارل وقدم شكره على حسن ضيافته له، حيث كان زوجة الملك شارل خالة الأمير ادوارد ، كما ودع فيليب الذى كان هو الآخر على وشك العودة إلى فرنسا لتنصيبه ملكا عليها بعد وفاة أبيه وقد أبحر ادوارد فى بداية الأمر إلى قبرص وهناك واجه صعوبات جمة فى الحصول على المساعدات من بارونات الجزيرة ، حيث كانت الخلافات على أشدها، ورفضوا الاشتراك معه أو مساعدته ، ولكن فى نهاية الأمر وافقوا على مشاركته لمدة لاتزيد عن أربعة أشهر ويكشف ذلك الموقف عن الحالة السيئة التى وصل إليها الفرنج سواء فى بلاد الشام أو خارجها . فقد يئس الصليبيون من كثرة الحملات الموجهة ضد المسلمين دون جدوى فضلا عن أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح فكرة تافهة فى نظر

١- Matt. of West., Op. cit., p. 450 .

٢- Eracles, Op. cit., p. 460 .

كل الفئات والطوائف المسيحية آنذاك . إذ أن ذكريات الصراع الدموى بين المسلمين والصليبيين كانت لاتزال ماثلة في الأذهان ولم ينس الفرنج ما فقدوه من أرواح وأموال من جراء ذلك[١] ومن سوء حظه أنه عندما وصل عكا وجد أن الصراع الدامى بين الجنوية والبنادقة كان على أشده. ولم تبد أى جالية منهما استعدادا ايجابيا للتحالف معه. لقد دهش ادوارد لهذا الموقف المتخاذل من قبل أمراء الفرنج فى الأراضى المقدسة خاصة وأنه لم يأت لتحقيق مطامع شخصية قدر رغبته في نجدتهم من الضياع الذى هم فيه. ولذلك لم يجد الفرصة المواتية للقيام بنشاط عسكرى حاسم ضد المسلمين خاصة أن البنادقة قد تحالفوا مع السلطان بيبرس، والجنوية تفرغوا لتجارة نشطة مع مصر، ولم يعط أحدا منهم اذنا صاغية له. وقد انتهز ادوارد فرصة هجوم المغول على شمال الشام وانشغال بيبرس بأمرهم ، فأغار على سهل شارون وعلى حصن قاقون . وقد رد عليه بيبرس بقوة عسكرية صغيرة بقيادة أحد أمرائه ، تمكنت من الحاق الهزيمة به، وانتهى الأمر بتخليه عن الحصن المذكور.

وطال انتظار ادوارد فى حسم الأمور واسترجاع ما فقده الفرنج من مدن وقلاع وفى ربيع عام ١٢٧٢م / شوال ٦٧٠هـ أدرك صعوبة موقفه وأنه ضيع وقته هباء حيث لا أمل من الصليبيين فى تغيير موقفهم . كما أدرك أن أفضل الأمور هو التوصل إلى هدنة مع بيبرس بعد أن أصبحت معظم ممتلكات اللاتين تحت يديه ، بالإضافة إلى احساس ادوارد بانشغال شارل كونت انجو عنه. إذ أنه بعد عودته من تونس وضع القسطنطينية نصب عينيه ، ولم يكن لبلاد الشام أهمية تعادل أحلامه فى الاستيلاء على عرش بيزنطة .

وبناء على ذلك، فقد شهدت مدينة قيسارية العديد من المحاولات لاقرار الصلح بين بيبرس وادوارد وتوسط شارل فى هذا الصلح أولا بحكم صداقته القوية مع بيبرس وثانيا لرغبته فى عدم وجود شخصية قوية تهيمن على الشرق الفرنجى، أملا فى اقتناص فرصة سهلة لكى يضم أجزاء من بلاد الشام إلى امبراطوريته وفعلا تم عقد الصلح بين الطرفين فى ٢٢ مايو ١٢٧٢م / ٢٢ شوال ٦٧٠هـ، على أن تكون مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات [١]، الأمر الذى أعطى لمملكة عكا الفرصة لالتقاط أنفاسها والمحافظة على استقلالها

١- Röhricht , la Croisade du prince Edward, A. O. L., t. II, p. 620 ; Gestes des Chiprois, pp. 199-200 ; Eracles, Op . cit., pp. 460-461 .

٢- Eracles, pp. 461 - 462 ; Matt. of. West., p.540 ; Reinaud, Op. cit., p. 517 .

وأيضا العينى: عقد الجمان، ج٢، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ .

قدر الاستطاعة على أن يحتفظ بممتلكاتها الحالية التى تألفت من السهل الساحى الضيق الممتد من عكا إلى صيدا وأن يكون للصليبيين بعكا الحق فى استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون معارضة من المسلمين [١].

وبعد فقد كانت اقامة ادوارد فى الأراضى المقدسة تستهدف تحقيق أى مكاسب على حساب المسلمين، وأدرك بيبرس آمال ادوارد العريضة فى معاودة القدوم على رأس حملة أكثر تنظيما إلى الشرق، وذلك حتى يرفع من شأن انجلترا ودورها فى الكفاح الصليبى ضد المسلمين، وتحقيقا لرغبة أبيه الملك هنرى الثالث فى أن يعود حاملا راية النصر من أجل الصليب [٢]. ولذلك قرر بيبرس التخلص منه رغم الهدنة المبرمة بينهما. وفى يوم ١٦ يونيه ١٢٧٢م / ١٦ ذى القعدة ٦٧٠هـ دبر بيبرس محاولة لاغتياله من قبل أحد الحشيشية[٣]، الذى تنكر فى هيئة مسيحى وطنى وطعنه بخنجر مسموم، ولم يصب منه مقتلا [٤]. ولم يكد ادوارد يتماثل للشفاء، حتى تجهز للرحيل إلى بلاده، بعد أن تأكد من ضياع أحلامه هباء بسبب فشل حملة لويس على تونس وعدم قدرته على اقتطاف ثمار النصر التى كان يتصور أن لويس قد زرعها هناك، بالإضافة إلى تدهور الأوضاع فى الأراضى المقدسة فعاد إلى انجلترا خالى الوفاض حيث نصب ملكا عليها بعد وفاة والده الملك هنرى الثالث.

وقد شعر بيبرس بارتياح كبير لهذه النتيجة المشئومة التى وصلت إليها جملة لويس على تونس ومن لحق به، وبذل كل جهده فى التفرغ التام لتصفية الوجود الصليبى ببلاد الشام، محاولا الابقاء قدر المستطاع على ما تبقى من علاقات طيبة مع شارل كونت انجو، وهو يعلم

١- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧، ص١٥٧ .

٢- Matt. of the West., p. 540 .

٣- الحشيشية : هم فى الأصل معروفون ببلاد الشام باسم الاسماعيلية والنزارية وذلك لأنهم يدينون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق إلى أن حدث الانشقاق بينهم وأسقطوا اسم اسماعيل ونادوا بامامة ابنه نزار وللمزيد أنظر لويس شيخو: جولة فى الدولة العلوية، مجلة المشرق، السنة ٢٢-١٩٢٤ ، العدد ٧ ، ص٤٩٣ .

٥- الكتبى: عيون التواريخ، ج٢ ، لوحة ٢٤٦ .

راجع أيضا : Röchricht, Op. cit., pp. 626 .

تماما أن أطماع شارل بعدت كثيرا عن الشرق الفرنجي، وتجسدت فى الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية، هذا فى الوقت الذى تبددت فيه كل الجهود لاعادة شمل المسيحيين من جديد ولم يعد هناك أى فكرة أو رغبة فى القيام بعمل عسكرى حاسم ضد المسلمين .

ففى هذه المرحلة من الصراع الصليبى الإسلامى فشلت كل الجهود والدعوات الملحة الذى بذلتها البابوية لاثارة الحماسة من جديد ضد المسلمين. وحتى المجامع الدينية التى كانت تعقد لهذا الشأن كان يرفضها كبار القادة فى أوروبا ، ولم يتحمس لها إلا الامبراطور البيزنطى ميخائيل بليولوجوس لاحبا فى البابوية، ولكنه لكى يجد الحماية لديها ضد أطماع شارل الأنجوى . وظلت البابوية تعانى الأمرين ، ولم تلق تجاوبا على كل المحاور الصليبية سواء فى الشرق الفرنجى أو الغرب الأوروبى لإسقاط الروح الصليبية من جديد. وقد حاول البابا جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) اثارة حماسة الملك الإنجليزى ادوارد الأول أو الملك الفرنسى فيليب الثالث للدعوة لحملة جديدة، محاولا تقديم العذر لعدم امدادهم بالمعونة اللازمة فى صراعهم ضد المسلمين. ولكن هذه الفكرة لم تلق تجاوبا من قبلهما . أما حكام قبرص . فقد أصابهم الفتور هم أيضا تجاه هذه الفكرة وحاول الملك هيو صاحب قبرص (١٢٦٧-١٢٨٤م) الحفاظ على سياسة الصداقة والوفاق المشوبة بالقلق مع بيبرس [١]. هذا فى الوقت الذى انشغل فيه شارل عن اثارة حرب صليبية ضد المسلمين ، ولم يعد يفكر فى محاولة التقرب من المغول لعقد تحالف معهم ضد بيبرس ، بل ركن إلى تكريس جهوده ضد الامبراطورية البيزنطية حسبما أسلفنا ، مما منح الفرصة لبيبرس لكى يتحرك على مستوى واسع لاستئصال جذور الفرنج من بلاد الشام، والتفرغ التام للتخلص من المغول بعد أن أزعجته تلك الوعود المعسولة التى حرصت البابوية على اعطائها للمغول. حقيقة أن وعودها لهم بالثواب فى الآخرة لم تلق تجاوبا فى نفوس المغول، وأدرك بيبرس استحالة الوصول إلى اتفاق وتعاون مثمر بين الصليبيين وبينهم فى هذه الآونة خاصة وأن شارل كان يكره بشدة المغول أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنويين، ولكن هذا لم يمنعه من التيقظ التام لكليهما معا وذلك لتطهير بلاد الشام من أخطارهما .

١- Eracles , Op. cot., p. 462 .

هذا عن أحوال الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني بعد الحملة مباشرة ، أما عن تونس. فقد حرص المستنصر الحفصي بعد رحيل الصليبيين عن بلاده على القيام بنشاط اقتصادى كبير مع جيرانه ، وعقد معاهدات تجارية مع كل من مملكة أراجون عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ، وبيزا والبندقية وجنوة (١٢٧٢م / ٦٧٠هـ) (١). كما سعى جاهدا إلى توثيق الروابط بينه وبين شارل كونت أنجو وعدم مناوئته فى الوقت الذى حرص فيه على كسب مودة الظاهر بيبرس صاحب مصر. فأرسل إليه مبعوثا من تونس هو أبا عبدالله محمد بن الراسى لكى يطلعه على آخر الأخبار التى آلت إليها الحملة. حقيقة أننا لم نعثر على مضمون الرسالة، ولكن يبدو أن المستنصر قد حاول تبرير موقفه فى عقد الصلح أمام سلطان مصر وهو نفس الوقت الذى شهدت فيه العلاقات الحفصية المملوكية تطورا ملموسا (٢)، وتقرب الحفصيون كثيرا من حكام مصر آنذاك . وكان المستنصر يعلم تماما أن بيبرس لن يعاديه بسبب ابرامه الصلح، لأنه بالقطع أغلق أمام جبهة مناوئة أخرى وهى تونس ، أضف إلى هذا حاجة المستنصر لمؤازرة بيبرس له نتيجة الضعف والانقسام فى البيت الحفصى(٣)، بالإضافة إلى مسؤليات بيبرس فى تصفية الوجود الصليبى ببلاد الشام.

بعد ذلك عمل المستنصر على اصلاح شأن البلاد والتغلب على بعض الثورات الداخلية سواء في تونس أو خارجها ، «حيث انتفضت عليه الجزائر، فسار إليها وفتحها عنوة وأسر كبراءها»(٤)، كما تأثر المستنصر كثيرا بالصراع الدائر بينه وبين أخويه اسحاق ابن أبى زكريا وميمون وقد هرب الأول إلى الأندلس (٥)، والثانى إلى المشرق وكانت سياسة المستنصر ازاء هذه الأحداث هى عدم تفجير الموقف ، بل مهادنة حكام البلاد التى يهرب إليها خصومه من أمراء بنى حفص فكان المستنصر يبعث بالهدايا الثمينة إلى الأمير أبى عبدالله بن الأحمر

١- ابتسام مرعى: الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، ص٣١٠، محمد مزالى : تاريخ أفريقيا، ص١٨١ .

٢- Brunchvig . La Berberie Orient Sous Les Hafsides, pp. 81-82 .

٣- ابن القنفد : الفارسية فى تاريخ الدولة الحفصية ، ص١٣٢ ، الغبرينى: عنوان الدراية ، ص١٢٨ .

٤- محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية، ص٦٣ ، محمد مزالى وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٥ .

٥- يذكر أبو الفدا أنه هرب أولا إلى تلمسان ، بينما يشير ابن القنفد أنه فر إلى بلاد الأندلس . وللمزيد أنظر: أبوالفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، ابن القنفد: الفارسية، ص١١٨ .

صاحب الأندلس عندما فر إليه أخيه أبو إسحاق وذلك حتى لايؤازره ويضمن تجمد الموقف على هذا الوضع[١] ولكن تقاعس المستنصر عن تصفية عدائه مع أخويه وكثير من الأمراء الحفصيين الآخرين، ترك نتائج وخيمة على كيان الدولة الحفصية بعد عهد المستنصر ، ذلك أن أبا اسحاق تمكن من تثبيت مركزه ببلاد الأندلس، فزحف نحو أفريقيا ودخل تلمسان ،، وانتظر الفرصة للانقضاض على أخيه. ورغم هذا لايمكن أن نهضم حق المستنصر الحفصى في تثبيت أقدام الحفصيين ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحدين ، وتأسيس امبراطورية متينة الأركان كان يمكن أن تصمد طويلا لولا وفاة المستنصر فجأة وتولية ابنه الواثق حكم البلاد.

ففى يوم الأحد ١٤ جمادى الآخرة عام ٦٧٥هـ / ٢٤ نوفمبر ١٢٧٦م خرج المستنصر في رحلة صيد، وكان الجو شديد الحرارة فمرض وزاد به الألم[٢] فأضطر إلى العودة إلى تونس ومرض بعد ذلك عدة شهور إلى أن مات وله من العمر اثنين وخمسين عاما. وقد اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم وفاته فمنهم من ذكر أنه توفى أول أيام عيد الأضحى عام ٦٧٥هـ/ ١٦ مايو ١٢٧٧م، ومنهم من أشار إلى أن وفاته كانت يوم ٢٣ ذى الحجة ٦٧٥هـ / ٢٩ مايو ١٢٧٧م، فى حين ذكر البعض أنه توفى يوم ٢ شوال ٦٧٥هـ/ ٩ مارس ١٢٧٧م ، ومنهم من قال : أن وفاته كانت يوم ١١ ذى القعدة ٦٧٥هـ / ١٧ أبريل ١٢٧٧م، ويؤكد ابن القنفد «أن وفاة المستنصر كانت ليلة ١١ ذى الحجة ٦٧٥هـ / ١٧ مايو ١٢٧٧م، وفى هذا يقول « ليلة الحادى عشر من شهر ذى الحجة توفى المستنصر وكانت الأمراض قد اعترته والعلل قد تحالفت عليه حتى ضعف ... ففى يوم عيد الأضحى حمل فى محفة خشب وأصعد إلى قبة ورآه الناس وتجلد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية ومات ليلتها وأصبح ولده الواثق يحيى حاكما للبلاد وقد بايعه عمه أبو حفص ، وبايعه الناس وانقضى أمر المستنصر ودفن يوم احدى عشر ذى الحجة المذكور »[٣]، وقد أيده فى تاريخ الوفاة كل من الزركشى وابن أبى دينار وإن كانا قد اختلفا معه حول مدة حكمه . فيشير ابن القنفد إلى أنه حكم تسعا

١- ابن القنفد : الفارسية ، ص١١٨ .

٢- ويقال فى أمر وفاته أنه أثناء رحلة صيد هاجمه وحش وطاردته الجوارح ، فدخل مغارة وكانت اصابته بالغة فسقط مغشيا عليه ، وظل مريضا لهذا السبب إلى أن مات . أنظر الزركشي: تاريخ الدولتين، ص٤٠ .

٣- ابن القنفد : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، ص١٣٤ .

وعشرين سنة ونصف بينما يؤكد الزركشي وابن أبي دينار وعدد آخر من المؤرخين المسلمين المعاصرين على أن مدة حكمه هي فقط ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر واحد عشر يوما[١]. على اعتبار أن توليه الحكم كان في ٢٩ جمادى آخر ٦٤٧هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٤٩م في حين أورد ابن القنفد أنه تولى الحكم في ٣ رجب ٦٤٧هـ / ١٤ أكتوبر ١٢٤٩م، فاختلط عليه الأمر على الرغم من صدق روايته وواقعيتها عن التاريخ الحفصي [٢]، لأن الفارق بين تحديده الزمني لحكم المستنصر، وبين غيره من المؤرخين لم يتعد أربعة أيام وليس عاما باكمله.

وعلى أي الأحوال، فقد تركت وفاة المستنصر فراغا خطيرا، واحتدم الخلاف بين أسرته على عهد ابنه الواثق الذي لم يكن له نفس صفات أبيه من الخبث والدهاء في تعامله مع خصومه، فلم يصمد كثيرا أمام مناوئة عمة أبي اسحاق الذي قدم من تلمسان إلى تونس، واستمر في مضايقة الواثق إلى تنازل له عن الحكم في ٣ ربيع ثاني ٦٧٨هـ / ١٤ أغسطس ١٢٧٩م، وفي عهد أبي اسحاق زادت قوة العربان ونفوذهم، وفي الوقت نفسه لم يحسن أبو اسحاق معاملة خصومه، الأمر الذي ألب الكثيرين ضده كما حدث على عهد الواثق وزادت أطماع بيار الثالث ملك أرجون (١٢٧٦-١٢٨٥م) في تونس، حيث كانت له أطماع واسعة في حوض البحر المتوسط. وتمنى أن يضع يديه على تونس حتى يناوئ خصمه شارل ملك صقلية، حقيقة لم يتمكن بيار من تحقيق أحلامه نتيجة تصدى شارل له [٣]، ولكن هذا لم يمنع تونس من أن تعيش فترة من الاضطرابات المستمرة، وتأرجحت سياسة أبي اسحاق بين القوة والضعف مما ألب عربان الجنوب ضده خاصة بعد ظهور شخصية قوية من بينهم وهو ابن أبي عمارة الذي أوهم البدو في الصحراء أنه ابن الواثق يحيي وأنه أحق بالخلافة من عمه أبي اسحاق ودار صراع عنيف بين هذه الفئات مجتمعة حول الحكم، فقد ثار ضد أبي اسحاق وابن أبي عمارة أخ آخر للمستنصر هو أبو حفص عمر الذي اعتمد على مساعدة العربان من قبائل بني سليم وغيرهم. وقد أثمرت جهوده في خلع أبي اسحاق، وتنصيب نفسه خليفة [٤]،

١- الزركشي : تاريخ الدولتين، ص٤٠، ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٣٤، الفيومي: نثر الجمان، ورقة ١٩٠أ، أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص١٢٦، الغبريني: عنوان الدراية، ص٢٦٧.

٢- ابن القنفد: الفارسية، ص١١٧، الغبريني: عنوان الدراية، ص٢٦٧.

٣- محمد مزالي : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨٢.

٤- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص٤٢، راجع أيضا محمد مزالي: تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٨٢.

إلى أن استمر الحال على هذا المنوال فترة طويلة من الزمان، أتت على الأخضر واليابس فى تونس ، وتضعضع النفوذ الحفصي فيها، وأخذت التجارة والعلوم والفنون طريقها إلى الانحدار، وعم الخراب كثيرا من مدن تونس وسقطت جزيرة جربة نتيجة توالى هجمات الصليبيين عليها، منتهزين حالة الضعف ، وضاربين بالصلح وشروطه عرض الحائط واستولوا على جزيرة فرقنة ١٢٨٧م / ٦٨٦هـ وسقطت قسنطينة وعم الخراب مدينة باجة [٣].

وقد دعت هذه الظروف الكثيرين من المتهافتين على الحكم والسلطة إلى اقتناص الفرصة وتأرجح ميزان الحكم بين أيدى الخلفاء الضعفاء ولم يكن يهمهم سوى مصلحتهم الشخصية ولم يزيد حكم الواحد منهم عن عامين أو ثلاثة[٤].

٣- باجة وجربة وفرقنة من أشهر المدن الافريقية التى ظلت تابعة لفترة طويلة للحكم الحفصى ، انظر ابن أبى دينار : المؤنس ، ص٢٢ ، ٩٣ .

٤- قائمة بأسماء السلاطين الذين حكموا تونس في عصر الضعف منذ عهد الواثق يحيى بن المستنصر : أبوزكريا يحيى الواثق عام ٦٧٥- ٦٧٨ هـ / ١٢٧٦-١٢٧٩م / أبو اسحاق ابراهيم من ٦٧٨- ٦٨١ هـ / ١٢٧٩- ١٢٨٢م / ابن أبى عمار حكم من ٦٨١-٦٨٣هـ / ١٢٨٢-١٢٨٤م / أبو حفص عمر بن أبى زكريا حكم من ٦٨٣-٦٩٣هـ/ ١٢٨٤-١٢٩٣م / أبو عصيدة المستنصر بويع فى ٦٩٤هـ وتوفى فى ٧٠٩هـ / ١٢٩٤- ١٣٠٩ وكان سبب وفاته اصابته بمرض الاستقساء ثم / أبو بكر الشهيد بن يحيى حكم فى ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، وتوفى نفس السنة فكانت ولايته ستة عشرة يوما / أبو البقاء خالد بن أبى زكريا بويع ٧٠٩هـ حتى ٧١١هـ/ ١٣٠٩-١٣١١م، حيث قتل / أبو زكريا محمد اللحيانى بويع من ٢ رجب ٧١١هـ وترك الحكم ٧١٧هـ / ١٣١٧م / ثم محمد أبو ضربة بن أبى يحيى بويع فى ٧١٧هـ وتوفى ٧١٨ هـ / ١٣١٨م / أبو يحيى بن أبى بكر بويع فى ٧١٨هـ وتوفى ٧٤٧هـ / ١٣١٨-١٣٤٦م / أبو حفص عمر بويع فى ٧٤٧هـ وقتل فى جمادى آخر ٧٤٨هـ/ يوليو ١٣٤٧م / أبو الحسن المرينى، بويع فى جمادى الآخر ٧٤٨هـ وطرد منها بعد ثورة عليه فى ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م / ثم أبو العباس الفضل تولى من ٧٥٠هـ- ٧٥١هـ / ١٣٤٩-١٣٥٠م / الأمير ابى اسحاق بن أبى بكر بويع فى ٧٥١م- وتوفى ٧٧٠هـ / من ١٣٤٩-١٣٦٨م / أبا البقاء خالد بويع فى ٧٧٠هـ وعزل فى ٧٧١هـ من ١٣٦٨-١٣٦٩ م/ أبو العباس أحمد بويع فى ٧٩٦هـ، وتوفى فى ٨٣٧هـ/ من ١٣٩٦-١٤٣٧ م / وأبوعبدالله المنتصر بويع يوم عاشوراء ٨٣٨هـ- ٨٣٩هـ / ١٤٢٨-١٤٣٩م / ثم السلطان أبو عمر عثمان بن الأمير ابى عبدالله الذى بويع عام ٨٣٩هـ / ١٤٤٠م، وقد صلحت به البلاد والعباد .

وللمزيد من التفاصيل عن أحوال البلاد فى سني حكمهم أنظر: الزركشي : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية ، ص١٦٤-١٦٨ .

وتأرجحت ميلوهم بين الشرق والغرب تبعا للأقوى، فقد اقتربت الدولة الحفصية في أخريات عهدها من دولة المماليك بمصر، وذلك منذ عهد الواثق يحيي ولكن سياسة التقرب من المماليك لم توقف الانحدار السريع الذى آلت إليه الدولة الحفصية رغم المحاولات العديدة لشد أزرها وبعثها من جديد، إلى أن انهارت تماما مع أخريات القرن التاسع الهجرى/ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (١).

وبانهيار دولة الحفصيين واضمحلال الفكرة الصليبية واندثارها فى نفس الوقت تقريبا نكون قد وصلنا إلى نهاية بحثنا بعد أن حاولنا جاهدين اعطاء نبذة تاريخية عن أحوال الشرق والغرب عقب الفشل الذريع الذى ألم بحملة لويس التاسع على تونس، وهى آخر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم الإسلامى، تلك الحملة التى كانت بمثابة المسمار الذى دق فى نعش الحركة الصليبية وأصيب دعاتها بالشلل وتملكهم اليأس وانشغلوا بأمورهم ومصالحهم الخاصة. وأضحت رحلة الرحيل نحو ديار الإسلام حلما مزعجا لايتمنى أى صليبى فى الشرق أو الغرب أن يحلم به وتنازل بعدها الغرب الأوروبى عن صحيته فى حمل الصليب لتحرير بيت المقدس.

حقيقة أن النظريات التاريخية الحديثة أثبتت أن الفكرة الصليبية لم تمت بحملة لويس التاسع ضد تونس واستيلاء الأشرف خليل على عكا بل عاشت قرنا من الزمان بعد اندحار الصليبيين ببلاد الشام ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى / أخريات القرن الثامن الهجرى[٢]، حيث وضعت العديد من المشروعات الضخمة والمؤلفات العديدة لاثارة أهل الغرب من جديد ولعبت قبرص ورودس دورا خطيرا فى احياء هذه الفكرة من جديد وكانت آخرها هى حملة نيكوبوليس الشهيرة[٣] ١٣٩٦م التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لاخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب، بل للوصول إلى قلب دولة المماليك في بيت المقدس أيضا. ولكن بهزيمة الصليبيين فى هذه الموقعة لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ، وتملك اللاتين اليأس ، وانصرفوا عن هذه الفكرة وتقبلوا الأمر الواقع بأن ارادة الله هى التى اقتضت عودة القدس إلى ايدى المسلمين .

١- الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص١٦٨ ، ابن القنفد : الفارسية، ص١٤٥-١٩١ .

٢- Atiya, Crusade in the later middle ages, pp. 10 , 480 .

٣- Atiya, Crusade of Nico Polis; dem, Crusade in the later middle ages, p.435-462-480.



الخاتمة

أهم القضايا والنقاط التى طرحت على بساط البحث- أبرز الآراء والأفكار والاستنتاجات التى تم التوصل إليها- جدة الموضوع وأصالته- نهاية الحركة الصليبية.

لعله يتضح لنا بعد أحداث آخر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم العربى الإسلامى، أن فكرة الغزو الصليبى أصبحت فكرة لاجدوى منها على الإطلاق . ولعل الفشل الذى منيت به تلك الحملة قد أكد تماما انهيار الوجود الصليبى بديار الإسلام ، وزوال مراكزه نهائيا من بلاد الشام. ولاجدال أن تلك الحملة التى أدت أسباب عديدة متداخلة فى بعضها إلى فشلها فى النهاية. قد أعلنت للغرب الأوروبى كله ضرورة التخلى عن مثل هذه المغامرات الفاشلة فى العالم الإسلامى مشرقه ومغربه .

ومن أبرز القضايا التى طرحت على بساط البحث ، أن الدافع الدينى لحملة لويس على تونس كان قناعا أخفى الصليبيون وراءه أهدافهم الحقيقية ألا وهى التهام ثروات تونس والاستفادة من موقعها الجغرافى والاستراتيجي المتميز كحلقة وصل بين الشرق والغرب، وفرصة للانقضاض بعد ذلك على مصر معقل العروبة والاسلام. ذلك أن احتلال تونس سوف يسهل على الفرنج عملية تطويق مصر برا وبحرا ، وذلك لمحو عار الهزيمة التى لحقت بالملك لويس التاسع أثناء حملته الأولى على مصر . كل هذا يؤكد اضمحلال النزعة الدينية تماما، التى كانت تخفى وراءها الأطماع الاقتصادية والدوافع الشخصية . كذلك أكدنا طبيعة الدور الخطير الذى لعبه شارل الأنجوى فى اشعال حمية شقيقه لويس وتشجيعه للقيام بهذه الحملة، لابحكم الوازع الدينى، ولكن أملا فى الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب والمغانم. وتداعى احداث الحملة يعزز ذلك.

وأثبتنا أيضا أن ادعاءات الصليبيين حول رغبة الخليفة المستنصر فى الدخول فى المسيحية كان أمرا من وحى خيال الصليبيين أنفسهم واسطورة لاتمت للحقيقة التاريخية بصلة ، ولايوجد أى سند تاريخى يعزز هذا الادعاء . وبينا أن المستنصر لم يكن صديقا لأحد، وإنما جعل من صداقته الظاهرية للويس قناعا أخفى وراءه أهدافه الحقيقية، ألا وهى ممالأة الملك الفرنسى واتقاء شره، وضرب عصفورين بحجر واحد خاصة بعد أن كثر اعداؤه بالداخل.

فأراد أن يظهر أمام اعدائه في الغرب بمظهر الصديق المتواطئ معهم، ولكنه في قرارة نفسه كان يضمر خلاف ذلك. كذلك تعرضنا لرواية أخرى من اختلاق الصليبيين ألا وهى ادعاءاتهم بأن الخليفة المستنصر قدم لهم المال والمؤن والعتاد لاحتلال تونس، وقد أثبتنا أن هذا أمر مستحيل على حاكم مسلم مثل المستنصر ، وأن الأمر لايعدو أن يكون مجرد هدايا بعث بها المستنصر إلى لويس التاسع لكسب وده وصداقته . وكان هذا أمرا مألوفا وقتذاك.

كما تناولنا قضية هامة أخرى وهى أن الصداقات التى كانت تربط بين سلطان مصر الظاهر بيبرس وملوك الغرب الأوروبى، وبين هؤلاء الملوك والمستنصر ، قد أتت ثمارها وأعطت فرصة للمسلمين للاستعداد العسكرى لملاقاة الحملة ومعرفة خط سيرها على وجه التحديد.

كذلك كشفنا الستار عن صور عديدة أكدت تقلص الفكرة الصليبية وانهيارها فى نفوس الصليبيين، ومنها المعاناة الشديدة التى لاقاها لويس أثناء دعوته للحملة وانصراف الناس عنها فى الغرب، وعدم مقدرته فى التأثير على الفرسان والقادة الصليبيين للانخراط فى سلكها أو المساهمة المادية فيها. وأوضحنا أيضا شكوك أهل الغرب فى نتائج هذه الحملة، وقد تمثل هذا فى التحديات السافرة التى واجهها لويس وجنوده من أهالى مدينة اجموورت الفرنسية والاشتباكات الدامية على أرض الميناء ، والتى إن دل هذا على شئ فإنما تدل على روح الكراهية التى لمسها الفرنج تجاه أى محاولة لغزو ديار الإسلام بعد فشل الحملات السابقة، وآلاف الأرواح التى ذهبت ضحيتها .

كما أكدنا أن كهولة لويس وتخبطه فى اصدار القرارات الصحيحة كان عاملا مباشرا فى اتخاذ سياسة مرتجلة غير مخططة أو مرسومة ، وفرصة للقوى الإسلامية فى التقاط الأنفاس وتعديل الخطط العسكرية لمواجهة العدو ودفعه وسلطنا الضوء أيضا على دوافع شارل صاحب انجو، ذلك القائد الذى تجرد من المشاعر الإنسانية تجاه أخيه زج به فى حرب خاسرة ، وبينا أنه لم يقصد من وراء ذلك إلا الاستفادة قدر المستطاع من الحشد الهائل من جيش أخيه لإرهاب المستنصر واجباره على دفع الجزية التى كان يدفعها لآل هوهنشتاوفن، وليضمن لنفسه مزايا جديدة داخل تونس، وحتى يتخلص من وجود أخيه لويس فى أوروبا حيث كان يمثل عقبة فى سبيل طموحاته وتطلعاته فى الانقضاض على بيزنطة .

وفضلا عما تقدم، تعرضنا لقضايا عديدة تتعلق بالمدة التى قطعتها الحملة من سردينيا إلى تونس والتى اختلفت حولها المصادر، وأكدنا أنها ثلاثة أيام فقط.

كما أثبتنا بالدراسة والتحليل كذب المزاعم التى قالت أن الحملة توجهت أولا إلى الاسكندرية - وأوضحنا أن هذا كان نسج خيال المؤرخين ، وأن الأمر لايعدو أن يكون مجرد ترجيح من بعض المؤرخين بأن الحملة لابد أن تكون وجهتها مصر لمحو عار الهزيمة السابقة التى لحقت بلويس وجيشه .

كذلك توصلنا عن طريق المقارنات والموازنات التاريخية أن اليوم الذى وصلت فيه لحملة تونس هو ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذى القعدة ٦٦٨هـ، وليس يوم ٢٠ يوليو ١٢٧٠م / ٢٨ ذى القعدة ٦٦٨هـ .

كذلك سلطنا الضوء على مدى استفادة لويس هو الآخر ، من تراخى المستنصر وتلاعبه بالقرارات وعدم اتخاذ موقف موحد لمواجهة الحملة، وأكدنا أن هذه السياسة الملتوية قد أتت بنتيجة هامة ألا وهى تثبيت أقدام لويس فى قرطاجنة وتعرض تونس نفسها لخطر الضياع. وقد دعمنا هذا الرأى بمضمون الرسالة التوبيخية التى وجهها الظاهر بيبرس إلى المستنصر فى هذا الشأن .

كما تناولنا بالدراسة والتمحيص بعض الآراء لعدد من المؤرخين اللاتين التى دونوها بدافع العصبية والتحيز لبنى جنسهم، وأثبتنا كذب تلك الادعاءات ، ومنها القصة التى أتى بها وليم دى نانجى عن دخول فئة كبيرة من علية القوم بتونس فى الدين المسيحى. وأكدنا أن هؤلاء ربما كانوا مجرد أسرى لدى الصليبيين ولجئوا إلى هذه الخدعة لاطلاق سراحهم . وربما تكون أيضا من نسج خيال أولئك المؤرخين .

كذلك ناقشنا بالتفصيل قضية اختفاء المستنصر من ميدان المعركة ، وهل هرب إلى قسنطينة أم القيروان . وأكدنا أنه اختفى فى قسنطينة ، وأن ذلك التصرف منه يؤكد من جديد أنه شخص كان يعمل لحسابه أولا وأخيرا ، ولم يفكر فى مصلحة بلاده وهى فى أمس الحاجة إليه ، خاصة وأن مدينة تونس كانت قاب قوسين أو أدنى من الضياع .

كذلك تناولنا قضية هامة أخرى حاول كثير من المؤرخين ابرازها على أنها من أهم أسباب فشل الحملة على تونس وهى قضية انتشار الأمراض بين جنود الحملة من الفرنج . وأثبتنا على امتداد صفحات البحث أن هذه الأمراض لاتعدو أن تكون مجرد سببا ضمن أسباب أخرى عديدة ، ومنها الصحوة الإسلامية التى فوجئ بها شارل والصليبيون ، ورغبة التونسيين فى استئصال شأفة أولئك الدخلاء .

كذلك ناقشنا قضية هامة، وهى أن المعسكر الصليبى استمر فى القتال تحت قيادة شارل، وهو يدرك تماما أن هذا الرجل لم يأت إلا لمصالحه الخاصة، ولم يكن أمام الجميع أى خيار آخر سوى القتال .

وناقشنا أحوال المعسكرين الصليبى والإسلامى قبيل عقد الصلح بين شارل كونت انجو والخليفة المستنصر وسلطنا الضوء على اليد الخفية التى كانت لها المصلحة الطولى فى هذا الصلح، ونعني بذلك المستنصر وشارل. وأثبتنا أيضا أن الشعب التونسي لفظ فكرة الصلح شكلا ومضمونا ، وأن المستنصر فشل فى تهيئة الاجواء لقبوله بل فرضه رغما عن الجميع . وخرجنا بنتيجة هامة أن المستنصر وشارل كانا بالفعل أهم العناصر المستفيدة ماديا من هذا الصلح وذلك عن طريق مناقشتنا لأهم بنوده .

وفى النهاية كانت لنا وقفة مع قضية أخرى اختلف حولها المؤرخين ، وهى تاريخ عقد الصلح. وأكدنا أنه وقع فى ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ .

تلك هى بعض النقاط التى تناولناها بالدراسة فى ثنايا الرسالة وتوصلنا فيها إلى أراء محددة، كما قمنا بتصحيح عدد من الآراء لبعض المؤرخين من قدامى وحديثين . وأهم من كل هذا وذلك أنه قبل دراستنا هذه لم تكن قد ظهرت دراسة علمية متكاملة تلم بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس، من مختلف مصادرها وأصولها ، من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة وغيرها . وكل ما هناك شذرات مبعثرة هنا وهناك فى المراجع الخاصة بتاريخ الحروب الصليبية لاتعدو أن تكون فصلا أو بعض فصل، عالجت الموضوع فى الغالب من زاوية واحدة اعتمادا على شق واحد من أصول البحث دون الشق الآخر، ولذلك تعتبر الدراسة التى نتقدم بها أول دراسة علمية متكاملة قائمة بذاتها فى هذا الموضوع الحيوى الهام تلم بكل جوانبه وزواياه ، من واقع مختلف أصوله ومصادره ، من عربية وغير عربية، ومهما يكن من أمر، إذا كانت حملة لويس التاسع ضد تونس عام ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ، هى آخر الحملات الكبيرة التى تعرض لها العالم العربى الإسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) ، فقد شهد القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) ما عرف باسم الحروب الصليبية المتأخرة . إذ نشط الدعاة فى الغرب للدعوة من جديد للحرب الصليبية، ووضعوا الكتب والمؤلفات بهذا الخصوص ومن أهم هؤلاء الدعاة بطرس ديبوا ، ورامون لال ، وبير كارد، ومارينو سانوتو، وفيليب دى مزيير . وكان من نتيجة

ذلك قيام عدد من الحملات الصليبية مثل حملة بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية عام ١٣٩٠م وحملة نيكو بوليس الشهيرة عام ١٣٩٦م بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة . وقد منيت هذه الحملات بالفشل مثلما منيت الحملات الصليبية المبكرة . إذ كانت الروح الصليبية قد ماتت تماما، وانفض الناس فى أوروبا من حولها وأخذوا يتشككون فى جدواها وفائدتها ، بعد أن ذهب الآلاف من زهرة شباب أوروبا بين قتيل وجريح وأسير فى سبيل سراب خادع . وبذلك دق آخر مسمار فى نعش الحركة الصليبية التى أصبحت حلما من احلام الماضى البعيد حاول الغرب احياءه فكان نصيبه الاخفاق والخذلان. هذا، فى الوقت الذى طويت فيه صفحة من تاريخ البشرية لتبدأ صفحة جديدة بمثل ومفاهيم جديدة مغايرة لتعلن عن بداية عصر جديد هو عصر النهضة الذى يرتبط بالتاريخ الحديث ومدنيته الزاهرة العملاقة .



الملاحق

الملحق الأول:

نص مأخوذ عن مؤلف مجهول باللغة الفرنسية القديمة، يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المادية التى قدمها الفرسان والنبلاء، إلى الملك لويس التاسع ولم يشتركوا بأنفسهم في إعداد الحملة.

نقلا عن :

Liste des Chevaliers avec saint Louis en 1269, R. H. G. F., t. xx, Paris, pp. 304-306 .

الملحق الثانى :

نص مأخوذ عن «تاريخ الامبراطور هرقل «باللغة الفرنسية القديمة ، ويتضمن أسماء من ماتوا في الحملة من الصليبيين اما بسبب المرض أو نتيجة العواصف التى داهمتهم فى رحلة العودة من تونس .

نقلا عن :

Eracles, L'Estoire de Eracles Emperor et La Conquests de la Terre d'outre me R. H. C. H. Occ. t. II, Paris. 1859 , p. 458 .

الملحق الثالث :

نص باللغة الفرنسية القديمة يتضمن وصفا للعاصفة التى واجهت الصليبيين فى الرحلة من اجمورت إلى سردينيا فى الطريق إلى تونس .

نقلا عن :

Nangis, G. , Vie de Saint Louis, R. H. G. F. t. xx pp. 441 .

الملحق الرابع :

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمنى.

رأينا تزويد البحث بأربعة ملاحق هامة تتصل به اتصالا وثيقا وتسلط الأضواء فى كثير من جوانبه وزواياه . وأولها نص يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المادية التى قدمها الفرسان والنبلاء للويس ، وهو لمؤلف مجهول. ويركز هذا النص على نوعية المساعدات التى تقدم بها الفرسان الذين لم يشتركوا مع لويس، ويوضح التسهيلات التى منحها الملك لهم حتى يشجعهم على الانخراط فى حملته. والنص يلقى الضوء على سلبية وتقاعس الكثيرين، فى وقت بدأت فيه الفكرة الصليبية فى التقلص بينما أخذ الناس فى الغرب ينفضون عنها. والنص لايزال بلغته الفرنسية القديمة ، وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثانى فهو نص مأخوذ من «تاريخ الامبراطور هرقل» ويتضمن أسماء كل من ماتوا فى الحملة سواء داخل تونس أو فى رحلة العودة من تونس إلى أوروبا وقد سجل النص أسماء الأمراء والقادة والملكات والأميرات أيضا، وهو يوضح الحالة المتردية التى آلت إليها الحملة سواء بسبب انتشار الأمراض بتونس التى فتكت بعدد كبير من الفرنج، أو نتيجة للعاصفة الشديدة التى واجهتهم فى رحلة العودة . والنص لايزال هو الآخر بلغته الفرنسية القديمة، وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثالث فهو نص مأخوذ من «سيرة الملك لويس التاسع للمؤلف الفرنسى وليم دى نانجى . ويحتوى على وصف دقيق للعاصفة التى واجهت الجيوش الصليبية أثناء ابحارها من ميناء اجمورت إلى جزيرة سردينيا فى الطريق إلى تونس وهو يكشف عن الحالة المتردية التى أصابت الحملة قبل وصولها تونس، والأنانية التى سيطرت على القادة والفرسان الذين لم يفكروا إلا فى نواتهم ولم يعيروا أدنى اهتمام لجنودهم. بل انصب اهتمامهم على الهروب بأنفسهم من الموت والهلاك، مما يوضح التفكك الداخلى الذى ألم بالحملة قبل مواجهة التونسيين والذى كان له أثره فى النتيجة التى آلت إليها الحملة، والنص لايزال بلغته الفرنسية القديمة وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الرابع والأخير عبارة عن جدول زمنى باليوم والشهر والسنة ، للأحداث الهامة المتعلقة بالحملة منذ الاعداد لها فى فرنسا وحتى رحيلها عن تونس.

الملحـــق الأول

الترجمة العربية

- السيد / راؤول ديسترى ، المارشال وقد قدم ستة من الفرسان وساهم بنسبة ١٦٪ من العملة التورنوا .
- السيد لانكيلوت دى سان مارل، المارشال ، ساهم بنسبة ١٤٪ من العملة التورنوا .
- السيد / بيير دى موليه وقد أدى ١٣٪ من العملة التورنوا فضلا عن ٤٠٠ تورنوا قدمها بصورة سرية.
- السيد / كولار دى موليه شأنه شأن السيد بيير (أى دفع نفس الحصة) .
- السيد / جيبل دى تورنيل ، دفع ١٢٪ من النفقات ، أما عملية اطعام ومعيشة فرسانه فكانت على نفقة الملك.
- السيد / ماهى دى روا، قدم ثمانية من الفرسان ، ودفع آلفين من العملة التورنوا فضلا عن العديد من المنح الخاصة . أما مسألة مأكل الفرسان ومعيشتهم فكانت على نفقة الملك.
- السيد / جيرار دى موربوا، قدم اثنتى عشر من الفرسان، ودفع ٣ آلاف من العملة التورنوا.
- السيد / راؤول دى فيل ، قدم خمسة من الفرسان، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا. أما الاقامة والمأكل فكانا على نفقة الملك أى على حساب البلاط الملكى.
- السيد / عمورى دى ميولانك، قدم خمسة من الفرسان ، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا وبالنسبة للمأكل والاقامة فكانت على نفقة الملك.
- السيد / أنوت دى فمانت ، قدم اثنين من الفرسان، و٢٦٪ من العملات التورنوا وبالنسبة للاقامة والمأكل على نفقة الملك.
- السيد / راؤول ، قدم ستة من الفرسان و٥٠٠ من العملة التورنوا ، والمعيشة على نفقة الملك.
- مسيو بدوان دى لونجئيال قدم أربعة من الفرسان ، و١١٪ من العملة التورنوا .
- السيد / لويس دى بوجوه قدم اثنين من الفرسان، وآلفين وستمائة من العملة التورنوا والمعيشة على حساب الملك .
- السيد / يوحنا دى فيل، قدم أربعة من الفرسان، و١٢٪ من العملة التورنوا ، والمعيشة على حساب الملك.

- السيد / ماهى دى لاتورنيك ، قدم ١٢٪ من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على حساب الملك.
- السيد / ويليام دى كورنتاى، قدم عشرة من الفرسان، وألفين ومائتين من الجنيهات والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيد دى ساتر، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا ، ومعيشته على نفقة الملك.
- السيد / روبرت دى بوا، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا والمعيشة على نفسة الملك.
- السيد / ستيفن ابرانس ، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيل دى ماى، قدم عشرة من الفرسان ، و٣٠٠٠ تورنوا والمعيشة على نفقة الملك كما تحمل الملك نفقات ذهابهم وعودتهم.
- السيد / أنيبه دى مانجراى، قدم خمسة من الفرسان، و١٢٪ من العملة التورنوا مع كفالة ذهاب وعودة هؤلاء الفرسان ومعيشتهم على نفقة الملك .
- السيد / وليام دى فريس قدم عشرة من الفرسان ، و٢٦٪ من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على نفقة الملك.
- الأميرة توجين قدمت عشرة من الفرسان، وألفين وستمائة من التورنوا والنفقات من حيث المأكل والنوم على نفقة الملك.
- الأميرة دى سان بو، قدمت ٣٠٠ من الفرسان لهم حق الذهاب والعودة فضلا عن أشياء أخرى ثمينة ، ١٢,٢ ألف من العملة التورنوا، و١٢ ٪ أخرى تدفع بصورة خاصة.
- السيد / لامبارت دى ليمون ، قدم اثنين من الفرسان، ١٨ ٪ من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيرارد دى شامباني، قدم ١٠ من الفرسان، و٢٧٠٠ من العملة التورنوا ونفقة هؤلاء الفرسان على نفقة الملك.
- السيد / ريموند ابان، قدم خمسة فرسان ودفع ٩١٢ من العملة التورنوا .
- السيد / يوحنا دى بلينس، قدم عشرة من الفرسان و٣ آلاف من التورنوا وعليه تعيين من يساعده فى تنظيم شئون الانفاق على هؤلاء الفرسان داخل القصر الملكى على أن يكفل لهم الملك أمر الذهاب والعودة.
- السيد / دى شامبانيا قدم عشرة من الفرسان ، ولم يطلب شيئا من الملك.
- السيد ؟ جيلان دارت قدم خمسة من الفرسان و٩١٢ من التورنوا .
- السيد / ويليام دى ايلاندر قدم ٢٠ من الفرسان وستة آلاف من التورنوا وأسهم فى مسئوليات الملك لتنظيم شئون الحملة داخل القصر.

الملحق الثانــى

الترجمة العربية

« ... ثم مات ابنه» يوحنا الحزين «امام تونس- - وبعد ذلك توفى القاصد الرسولى» راؤول جروسبارمى» كاردينال وأسقف البانو- ثم مات ملك فرنسا الطيب ولحق به ملك «نافار» وجمع آخر كبير من الكونتات والبارونات وعدد آخر من العامة (أثار العجب) .

بعد وفاة ملك فرنسا ، تولى الملك شارل قيادة الجيش. وتفاوض من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام. وقد حصل هو والبارونات الآخرون على الكثير من الأسلاب التى استولوا عليها من ملك تونس وعادوا مرة أخرى إلى تراجيس[1] . وأثناء عودتهم إلى ذلك الميناء حطموا أكثر من أربعين سفينة وقضوا على ما بها من سلع وأفراد وخيول.

وأثناء العودة إلى فرنسا ماتت «ايزابيل داراجون» زوجة فيليب الجرئ كذلك ماتت ملكة نافار المعروفة بايزابيل الفرنسية ابنة القديس ليوس (لويس ٩) فى مدينة «اكس آن بروفنس» اثناء عودتها من تونس.

كذلك توفى «الفونس» كونت بواتييه وتولوز الذى كان معه عدد كبير من الرجال ولكن بعد عودته من تونس إذ أنه مرض أثناء عودته إلى بلده فنزل فى «البنجا» وهى مدينة تقع بالقرب من جنوة حيث مات، وكانت وفاته خسارة كبيرة فى البر والبحر.

١- لم يتسن لنا العصور على ما يفيد هذا الموقع .

الملحق الثالث

الترجمة العربية

... بعد ذلك بقليل وحين تم تجهيز وإعداد كل شئ فى الميناء دخل الملك لويس فى سفينته يوم الثلاثاء بعد عيد القديس بطرس (وهو الموافق ٢٩ يونيو) من عام ١٢٧٠ ميلادية، وكان معه أولاده «بيير» و«يوحنا» والابن الأكبر «فيليب» ودخل البارونات الآخرون بعد الملك فى سفنهم ومكثوا بها طوال النهار والليل حتى صباح يوم الأربعاء وأقلعت السفن فى ذلك اليوم واليوم التالى وكانت الرياح تساعدهم حتى منتصف ليلة الجمعة إذ هبت عاصفة قوية قلبت البحر وأحدثت دوامات وبعثرت السفن هنا وهناك . وقد حدثت تلك العاصفة فى مياه خليج ليون وقد سمى ذلك اليوم بيوم العاصفة من هولها وشدتها وكثرة الأمواج التى أبعدت السفن عن بعضها البعض والتى كانت حتى تلك اللحظة متقاربة وعلى مرمى بصرنا وحين اجتازوا هذه المياه بصعوبة بالغة وجدوا فى صباح يوم السبت بحرا هادئا وجوا لطيفا حتى أن كل من قاسى من اضطراب ودوار البحر وجد السكينة. وأبحروا فى هدوء وسلام حتى منتصف ليلة الأحد إذ فاجأتهم كتل ضخمة من الضباب ورياح قوية قلبت البحر بدرجة أعنف وأخطر عن تلك التى كانت قد مرت بهم فى مياه خليج ليون (هذا الخليج على السواحل الجنوبية لفرنسا).

وفى صباح اليوم التالى أمر الملك أن تؤدى ٤ صلوات من أجل أن تهدأ العاصفة كانت هذه الصلوات احداها خاصة بالسيدة العذراء والثانية بالملائكة والثالثة بروح القدس والأخيرة بالأموات- ونلاحظ تحسن حالة البعض وتماسكهم بينما كانت تؤدى هذه التراتيل- وفى الترتيل الثالث بدأ البحر يهدأ وانتهى الدوار الذى كان يشعر به الناس وجلسوا لتناول الطعام، إذ أن المياه العذبة التى وجدت معهم على السفن كانت قد فسدت ولاتصلح اطلاقا للشرب فقد مات عدد كبير من الرجال والخيول من شربهم لهذه المياه الفاسدة. فى نفس هذا اليوم عند غروب الشمس تعجب الناس من طول المدة التى قضوها فى البحر ولم يصلوا بعد إلى الميناء «كالياري»[1] فى سردينيا حيث ينتظرهم باقى البارونات الذين يشتركون فى هذه الحملة. لذلك استدعى الملك رئيس البحارة ليحدد له مكانهم من ميناء كالياري. وجاء رد البحار بأنهم ليسوا بعيدين عن الأرض وأحضر له خريطة ليوضح له مدى قربهم من الميناء وأنهم فعلا اقتربوا من الساحل.

١- كالياري هو ميناء يقع جنوب جزيرة سردينيا .

الملحق الرابع

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمنى

٣٠ مارس ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ : رحيل الحملة من باريس إلى اجمورت .

١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢١ شعبان ٦٦٨هـ : أول اجتماع رسمى للويس التاسع مع قادته فى اجمورت .

٢- يوليو ١٢٧٠م / ١١ شعبان ٦٦٨هـ : رحيل الحملة من اجمورت إلى سردينيا بسبب الشغب .

٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذى القعدة ٦٦٨هـ : وصول الحملة إلى جزيرة سردينيا .

١٥ يوليو ١٢٧٠م / ٢٣ ذى القعدة ٦٦٨هـ : الإبحار من سردينيا إلى تونس.

١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدج ٦٦٨هـ : وصول الحملة قبالة تونس .

٢٤ يوليو /١٢٧٠ ٢ ذى الحجة ٦٦٨هـ : مهاجمة الصليبيين قرطاجنة وسقوط القلعة فى قبضتهم .

٢٩ يوليو ١٢٧٠م / ٧ ذى الحجة ٦٦٨ هـ : سقوط ميناء قرطاجنة فى ايدى الصليبيين.

٣٠ يوليو ١٢٧٠م / ٨ ذى الحجة ٦٦٨ هـ : سقوط برج قرطاجنة فى قبضتهم .

٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذى الحجة ٦٦٨هـ: أول معركة مباشرة بين قوات لويس والمستنصر .

٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ : وفاة لويس التاسع قبالة قرطاجنة وهو نفس يوم وصول شارل إلى تونس.

٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ : أول معركة مباشرة بين شارل صاحب انجو والمسلمين .

٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ: عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين .

٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ : رحيل الحملة عن تونس إلى الغرب .



مصادر ومراجع

بيان بالمختصرات

A.O.L. - Les Archives de l'Orient Lation.

Bib. de Crois - Michaud, Bibliotheque des Croisades.

Ency. Brit - Encyclopaedia Britannica.

Encyc. of Islam - Encyclopaedia of Islam.

G. D. F. - Bongars, Gesta Dei per Francos.

Hist, de Fr. - Recueil des Historiens de Gaules et de la France.

Mon. Cart. -Y.Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.

P. P. T. S. - Palestine Pilgrims' Text Society.

R. H.C.Doc, Arm- Recueil des Historiens de Croisades Documents Arcmeniens.

R. H.C. H. Occ - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentoux.

R. H. C. - H. Or. - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux.

R. O. C. - Revue de l'Orient Chretien.

R. O. L. - Revue de l'Orient Latin.

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed), Gesta Die per Francos, Sive Orientaliun peditionum et Vegni Francorum Hierosolimioni Historia (ab a. 1095 ad . 1420) a Variis, Sed illius aevi Scriptoribus, Litteris , 2 t., Hanover , 1612 .

Bouquet , M. (ed.) Recueil des Historiens des Gaules et de France , 24 vols ., Paris, 1938-1904 .

Reinaud , M., Extraits des Historiens arabes relatifs aux guerres des croisades, Paris, 1829 .

Recucil des Croisades, Paris, 1829 .

Recuil des Historiens des Croisade Public - par les Soins de L'Academie des Inscriptions et Belles - Lettres. in 16 hyge folio vols ., Paris, 1841-1906 :

I- Historiens Occidentaux, 5 tomes (18 - 1895) ;

II- Historiens Orientaux , (Arabes) 5 tomes (1872-1906) ;

III- Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881) ;

IV- Documents Are meniens, 2 tomes (1869-1906) ;

V- Lois, 2 tomes (184-1843) .

Les Arch ives de L'Orient Latin Pupliées par la Societe de L'Orient Latin, 2 vols ., Paris, 1881 at 1887 .

Texte invenaires , et etudes originales.

Palestine Pilgrims Texte Society. 13 vols ., and general Index, London , 1887-1897 .

Revue de l'Orient Latin pupliée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer , Paris, 1896-1991 .

Revue de L'Orient Chrétien, dirigée par Graffin et F.N au , Paris, 1906-1924 .

المصادر الأوروبية

Annales de Terre Sainte : 1095-1291 , Publiées par R. Rohricht et G Raynoud, in A.O.L., t. II, Paris .

Anonymous , Chronique Anonyme des rois de France Finissant en 1286. Ed, Hist. de Fr. XXi , pp. 82-86 .

Anonymous , Extraits d'une chronique anonyme , finisant en 1380. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 305-318 .

Anonympous, Listen de Chevaliers Croises avec Saint Louis en 1269 , Ed. Hist de Fr., XX, pp. 305-318 .

Anonymous, Gesta Alia Sancti Ludovici noni , Francorum regis. Ed. Hist. de Fr, XX, p. 56 .

Beaulieu , Geoffroi de, Vita et Sancta conversatio Piae memoriae , Ludovici noni regis Francorum- Ed. Hist. de Fr, XX, pp. 20-26 .

Chartres, Guillaume de , De Vita et actibus inclytae recordationis regis Francorum Ludovici et de miraculis quae ad ejus Sanctitatis declarationem contigerunt - Ed. Hist. de Fr., XX., pp. 28-39 .

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Autremer . Ed. R. H. G.- H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 458-460 .

Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis . Texte Orignal du XIve Siécle acompagne d'une traduction en Francais moderne par M- Natalis de Wailly , Paris , 1874 .

Les Gestes de Chiprois, Ed, R.H.C.- Doc . Arm , t. II, Paris, 1906 .

Louis IX (St. Louis) :

1- St. Louis nolise Seize nvires genois pour Sapremiere croisade . Ed. A.O. L., t. II, Paris, 1884. pp. 232-6).

2- Saint Louis , King of France, English, Trans. by James Hutton , London, 1868 .

Matt. of West., The Flowers of History, 2 vols., London 1853.

Nangis, Guillaume de,

1- Vie de Saint Louis, Ed. Hist. de Fr., XX pp. 439-463.

2- Vie de Philippe III, Ed. Ahist. de Fr. XX, pp. 464-482.

3- De Nangiaco Chronion (1226-1300). Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 543-582.

4- Chronique Abergée on "Chronique des rois de France, Ed. Hist. de Fr., TXX, pp. 647-653.

Paudua, Guillaume de, Historiae Albigensium, auctore Guillelmo de Podio Laurentii, Pars, Ultima, ab anno 1230 ad 1272. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 474.

Paris, Matthew, Matthew Paris, English History from the Year 1239 to 1273, Trans. From the Latin by J.A. Giles, 2 vols., London, 1852-3.

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyre du manuscrit de Rothelin (1299-1261). Ed. R.H.C.- H. Occ., t. II, Paris, 1859; pp. 489-639.

St. Denis, Extraits des Chroniques de Saint Denis, ou les Grandes Chroniques de France - Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 103-123.

St. Pathus, Guillaume de.

Vie de Saint Louis. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 68-69, 103.

Wuegler, Paul, The Infidel Imperor and his Struggles against the pope. A Chronical of the 13 th century by p. Wiegler, tr. by Brian W. Downs, London, 1930.

المصادر العربية

أولا : المخطوطات والمخطوطات المصورة

١- ابن أيبك (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) أبوبكر بن عبدالله :

أ- «درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، »، دار الكتب المصرية، رقم ٤٤٠٩ تاريخ.

ب- «كنز الدرر وجامع الغرر» ، ٩ج - دار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

٢- ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى :
«الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين »، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٢٢ تاريخ .

٣- ابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على:

«تاريخ الدول والملوك»، ١٨ مجلدا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٩٧ تاريخ ، تصوير شمسى .

٤- ابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) عباس بن على بن داود بن يوسف بن عمر:

«نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون » ، مجلدان ، دار الكتب المصرية، رقم ٤٩٦٤ تاريخ.

٥- ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم:

أ- «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »، ٢ ج، مكتبة جامعة الاسكندرية، رقم ٦٤ مخطوط، «تصوير شمسى».

ب- «التاريخ الصالحى» ، مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، رقم ٣١٤٣ب، «تصوير شمسى».

٦- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٥٤م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :
«المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، ٣ ج، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٧- بامخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبدالله أحمد بن على:

«قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر»، ٦ ج، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٤١٠ تاريخ .

٨- بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى:

«زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة »، ج١٠ ، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ. «تصوير شمسى» .

٩- السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن:

«تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات وما يتبع ذلك»، مكتبة بلدية الاسكندرية، رقم ١٤٨٦ب.

١٠- السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد:

«مختصر التواريخ »، دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٣٥ تاريخ .

١١- السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) أبو الفضل عبد الرحمن :

«تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى»، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٥٩ تاريخ .

١٢- العينى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى:

«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان»، ٢٣ ج فى ٦٩ مجلد ، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ، «تصوير شمسى».

١٣- الفيومى (ت حوالى ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) أحمد بن محمد بن على:

«نثر الجمان فى تاريخ أهل الأعيان»، المجلد الثانى ويبتدئ من أثناء سنة ٦٢٣هـ وينتهى إلى ٦٨٩هـ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٧٤٦تاريخ .

١٤- الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين:

«عيون التواريخ» ، ١٦ مجلدا، يهمنا منها مجلد مكتوب عليه الجزء العشرون، ويبتدئ من ٦٤٥ هـ وينتهى إلى ٦٧٠هـ ، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٩٧ تاريخ، «تصوير شمسى» .

١٥- النويرى الكندى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد:

«نهاية الأرب فى فنون الأدب» ٥٥ مجلدا، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، «تصوير شمسى».

١٦- اليونينى (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين :

«ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» ، ج١٥ و١٧دار الكتب المصرية، رقم ١٥١٦ تاريخ .

ثانيا : المصادر المطبوعة

١- ابن أبى دينار (عاش فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى):
أبو عبدالله محمد بن أبى القاسم القيروانى المعروف بابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس ١٩٦٧ .

٢- ابن أبى زرع (ت حوالى ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م) على بن محمد الفاسى:
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٩٧٣ .

٣- ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٢٤م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين:
الكامل فى التاريخ، طبعة بيروت، ١٩٦٦، وبولاق ١٩٣٦م.

٤- ابن القنفد (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) أبو العباس أحمد بن حسين بن الخطيب القسنطينى: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلى النيفرو عبد المجيد تركى، تونس ١٩٦٨ .

٥- ابن الوردى : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:
تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ ابن الوردى، القاهرة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م.

٦- ابن اياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) أبو البركات محمد بن أحمد:
كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور- ٤ ج، الطبعة الأولى، القاهرة (بولاق) ١٣١١-١٣١٤هـ .

٧- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله:
مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ج، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٧ .

٨- ابن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو القاسم بن حوقل النصيبى:
صورة الأرض، ليدن (مطبعة بريل) ١٩٣٨ .

٩- ابن خرداذبة (ت فى حدود ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله:

المسالك والممالك ، ليدن (مطبعة بريل) ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م .

١٠- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد :

- العبر وديوان المبدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ٧ج، القاهرة (بولاق) ١٢٨٤هـ، طبعة بيروت ، ١٩٦٨ .

- المقدمة، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨١ .

١١- ابن خلدون (ت ٧٧٩هـ / ١٣٥٨م) أبو زكريا يحيى بن خلدون:

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد، الجزائر ١٩٨٠ .

١٢- ابن شاهين (ت ٧٨٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى:

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بوكس زاويس، باريس ١٨٩٤م.

١٣- ابن عبدالظاهر (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيى الدين:

الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرباط ١٩٧٦ .

١٤- ابن عذارى المراكشى (ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م) أبو العباس أحمد:

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ٤ ج ، بيروت ١٩٥٠، ماعدا ، ج٣ طبعة تطوان ١٩٦٠ .

١٥- ابن مطروح (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥١م) جمال الدين يحيى:

ديوان ابن مطروح ، الطبعة الأولى ، قسنطينية ١٢٩٨هـ .

١٦- ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) جمال الدين أبو الفضل محمد:

لسان العبر المحيط، ١٠ج، بيروت ، بدون تاريخ .

١٧- أبو الفدا (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن عليك

المختصر فى أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبى الفداء، ٤ج، الاستانة، ١٢٨٦هـ.

١٨- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى:
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ٩ج، القاهرة (دار الكتب المصرية)، ١٣٤٨-١٣٦١هـ / ١٩٢٩-١٩٤٢م.

١٩- البلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٥٨م) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود :
فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ٣ ج، القاهرة ١٩٠٦ .

٢٠- الحميرى (ت ٩٠٠هـ / ١٣٧٩م) محمد بن عبد المنعم:
الروض المعطار فى خير الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٧٥ .

٢١- ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد:
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ج ، بيروت (بدون تاريخ) .

٢٢- الادريسى (٥٦٠هـ / ١١٦٦م) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس:
صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر هذا القسم وقدم له وترجمه إلى الفرنسية دوزى ودى غويه ليدن (مطبعة بريل) ١٨٦٦م.

٢٣- الاصطخرى (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) ابو اسحاق ابراهيم ابن محمد:
مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧ .

٢٤- الخوارزمى (تاريخ الوفاة غير معروف) أبو جعفر محمد بن موسى:
كتاب صورة الأرض، مأخوذة عن كتاب الجغرافيا الذى ألفه بطليموس القلوذى، نسخه وصححه هانس فون شريك، فيينا ١٣٤٥هـ- ١٩٢٦م.

٢٥- الدمشقى (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) محمد بن أبى طالب الأنصارى الصوفى المعروف بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقى :
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، كوبنهاجن ١٨٠٤م، مطبعة ليبزج ١٩٢٣ .

٢٦- الذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين:
دول الإسلام، ٣ج، الهند- حيدر أباد ١٣٣٧هـ .

٢٧- الزركشى (ت ٨٨٢هـ / ١٤٦١م) أبو عبدالله محمد بن ابراهيم:

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦ .

٢٨- السلاوى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٥م) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصرى، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

٢٩- العمرى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله:

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج١ ، نشره المرحوم أحمد زكى ، القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م .

٣٠- الغبرينى (ت ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م) أبو العباس بن أحمد الغبرينى:

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجايه ، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر ١٩٧٠ .

٣١- الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين:

فوات الوفيات، ٢ ج فى مجلدو احد ، القاهرة ١٢٩٩هـ .

٣٢- القزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود:

آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٣ .

٣٣- القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد بن عبدالله :

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ ج، القاهرة ، (دار الكتب المصرية) ١٩١٣-١٩١٩ .

٣٤- المسعودى (غير معروف تاريخ الوفاة) محمد الباجى:

الخلاصة النقية فى ذكر أمراء أفريقيا، تونس ١٣٢٣هـ / ١٨٦١م .

٣٥- المسعودى (ت ٣٤٦هـ) أبو الحسن على بن الحسين:

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٣٦- المراكشى (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) محيى الدين عبد الواحد:

المعجب فى تلخيص المغرب ، تقديم محمد الفاسى، المغرب ١٩٣٨ .

٣٧- المقدسى (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشارى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن (مطبعة بريل) ٩-١٩٠م.

٣٨- المقرى (ت ١٠٤١هـ ١٦٣١م) أحمد بن محمد المقرى التلمسانى:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، عشرة أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.

٣٩- المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

١- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ٢ ج، القاهرة بولاق ١٢٧٠هـ .

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ٢ إلى سنة ٧٤١هـ، نشره وعلق عليه د. محمد مصطفى زيادة.

٤٠- جبران مسعود (تاريخ الوفاة غير معروف) :

الرائد ، بيروت ١٩٨١م.

٤١- مجهول:

الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، نشره وصححه د. سى علوش، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، ج٦ ، الرباط ١٩٣٦ ، وطبعه أخرى تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، الرباط ١٩٧٩م.

٤٢- ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الملقب شهاب الدين:

معجم البلدان ، ٤ ج، ط بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الرابع ، ق٢ طبعة ليبزج ١٨٦٩ .

المراجع الأجنبية

Archer, T.A. & Kingsford, G.L., The Crusades of Jerusalem, 5 th . impersion . London 1919 .

Atiya, A. S.,

1- The Crusade of Nicopolis, London 1934 .

2- The Crusade in the Later Uiddle Ages London , 1938 .

Bailly , A., Saint Louis, Paris, 1949 .

Bainville, J. , Histoire de France, Paris, 1925 .

Barthold, W., Histoire des Turcs d'Asie Centrale, Adaptation francaise par Ume U. Donekis, Paris, 1945 .

Berger , E., Saint Louis et Innocent IV : Etude Sur les rapports de la France et du Saint les Siege Paris, 1893 .

Bordeaux, H., Un Precurseur : Vie , mort et Survie de Saint Louis , Roi de France. Paris, 1949 .

Boulenger, J., La Vie de Saint Louis , Paris, 1929 .

Bray, A., The Good St. Louis and his Times, London, 1870 .

Brunschivig , R., La Berberie Orient Sous les Hafsdas, 2 Tomes, Paris, , 1940-46 .

Calenderier liturgique des dioceses de France, 1978 .

Calmette, J., Le Monde Féodal , Paris, 1937 .

Campbell, G., The Crusades , London, 1935 .

Davis, H. W. C. Mediveal Europe, London 1941 .

Deguignes, C. L., Histoire generale des Huns , des, Turcs, des Mongols , et des autres Tartares occidentaux avant et depuis Jesus - Christ Jusqu; apresent. 4 t., en 5 vols ., Paris 1756-7 .

Daru, Le Comte, Histoire de la republique de venice , 10 Toms, Bruxelles, 1840 .

Gibbon, E., The Crusades: A.D. 1095 -1291 , London , 1870 .

Grousset , R. Histoire des Croisades et du Royame France de Jerusalem, 3 vols., Paris , 1948 .

Guizot, M., Saint Louis and Calvin , London , 1809 .

Hassall, A., France Mediaval and Modern , Oxford , 1918 .

Howorth , H., History of the Mongols from the 9 th to the 19 century , 4 Parts in 5 vols ., London , 1876-1927 .

Kitchen , G., A History of France, vol . 1, Ixford , 1899 .

Lamb, H., The Crusades : The Flame of Islam , London , 1931 .

Ludlow, J.M., The Ago of the Crusades, Edinnburgh, 1897 .

Michaud, M., Histoire desCroisades, 7 toms , Paris 1819-1822 .

Miller , G., History , philosophically illustrated from the fall of the Roman Empire to the French Rovolution ; 4 vols ., London , 1849-1852 .

Richard , J., Orient et Occident au moyen a la contacts et . relations (XIIe - XVe S.), London , 1970 .

Rohricht , R., La Croisade du prince Edward , Angletterre in A.O.L., t. II, Paris , 1881 .

Molinier , A., Les Sources de L'histoire de France depuis les origines Jusque, en 1815 . Cf . vol . III: Les Capetiens : 1180 - 1328 , Paris , 1903 .

Runci man , S.,

1- Byzantine Civilisation , London , 1948 .

2- A History of the crusades, 3 vols ., London , 1971 .

Tenison, E., Chivalry and the Wounded : The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914), London , 1914 .

Treece , H., The Crusades, New York , 1914 .

Wustenfeld, Mahler Sche Vergleichungs- Tabellen Der Mohammedanschen und Curistlichen Zeitrechnung, Traduction en Arabee par DrA-M maged A. M. Ramadan, le Caire , 1980 .

المراجع العربية والمعربة

١- ابتسام مرعي (دكتوره) : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، الاسكندرية ١٩٨٥ .

٢- ابراهيم على طرخان (دكتور) : المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ .

٣- أنور الجندى: الإسلام تاريخ وحضارة ، دار الاعتصام ، بدون تاريخ .

٤- آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، ٤ ج ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٥- أبوزيد شلبى (دكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٦- أحمد الشامى (دكتور) : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، الدمام ١٩٨٣ .

٧- أحمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٨ .

٨- تاريخ البحرية المصرية: نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية المصرية، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

٩- جمال الدين الدناصورى (دكتور) : جغرافية العالم - أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٩ .

١٠- جمال الدين سرور (دكتور) : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

١١- جوانفيل (جان دى) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د. حسن حبشى ، الطبعة الأولى، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٢- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ط. خامسة، الاسكندرية ١٩٨٧ .

٢- العدوان الصليبى على مصر، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٣- العدوان الصليبى على بلاد الشام، الاسكندرية ١٩٨٤ .

٤- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٨٦ .

٥- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٦- الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

٧- العدوان الصليبى والرأى العام الغربى، محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة للعام الجامعى ٦٧ / ١٩٦٨ الاسكندرية، ١٩٦٨ .

١٣- حامد غنيم أبو سعيد (دكتور) :

١- مراكز الحضارة الإسلامية، ٢ج ، القاهرة ١٩٧٦ .

٢- الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ٣ح، القاهرة ١٩٧٣ .

١٤- حسن ابراهيم حسن (دكتور) : تاريخ الإسلام الدينى والثقافى والسياسى والاجتماعى الطبعة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٥- حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٦- حسين مؤنس (دكتور) : فتح العرب للمغرب، القاهرة ، ١٩٤٧ .

١٧- ساليفان (ريتشارد أ) : ورثة الامبراطورية الرومانية ، ترجمة وتقديم د. جوزيف نسيم، الاسكندرية، ١٩٨٥ .

١٨- سامية عامر : (دكتورة) الصليبيون فى فلسطين- بلاد الشام - دار عين ، القاهرة ٢٠٠١

١٩- ستيفن رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ج، ترجمة د. السيد الباز العرينى، بيروت ١٩٦٩ .

٢٠- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

١- المغرب الكبير، العصر الإسلامى، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، الاسكندرية ١٩٦٦ .

٢- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، بيروت ١٩٦٢ .

٣- «المهدى بن تومرت» مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠ .

٤- المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس ، مقالان بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد، القاهرة ١٩٦٠، كتاب الشعب عدد ٧٨ .

٥- «المغرب الإسلامى» كتاب الشعب عدد ١٣٨-١٣٩ ، القاهرة ١٩٦١ .

٢١- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : تاريخ المغرب العربى، الاسكندرية ١٩٥٦ .

٢٢- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى - ٢ ج ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٣- صابر محمد دياب (دكتور) : مدينة تونس فى التاريخ الإسلامى، مقال فى مجلة جامعة القاهرة (فرع الخرطوم) العدد الثامن، القاهرة ١٩٧٧م.

٢٤- عبد الرحمن حميدة (دكتور) : أعلام الجغرافيين العرب، دمشق ١٩٧٩ .

٢٥- غوستاف لوبون (دكتور) : حضارة العرب، نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٦- لويس شيخو: جولة فى الدولة العلوية، انظر مجلة المشرق السنة ٢٢-١٩٢٤، العدد ٧ بيروت ١٨٩٨-١٩٢٨ .

٢٧- محمد الحبيب (دكتور) : لب التاريخ ، تونس ، ١٣٤٤هـ .

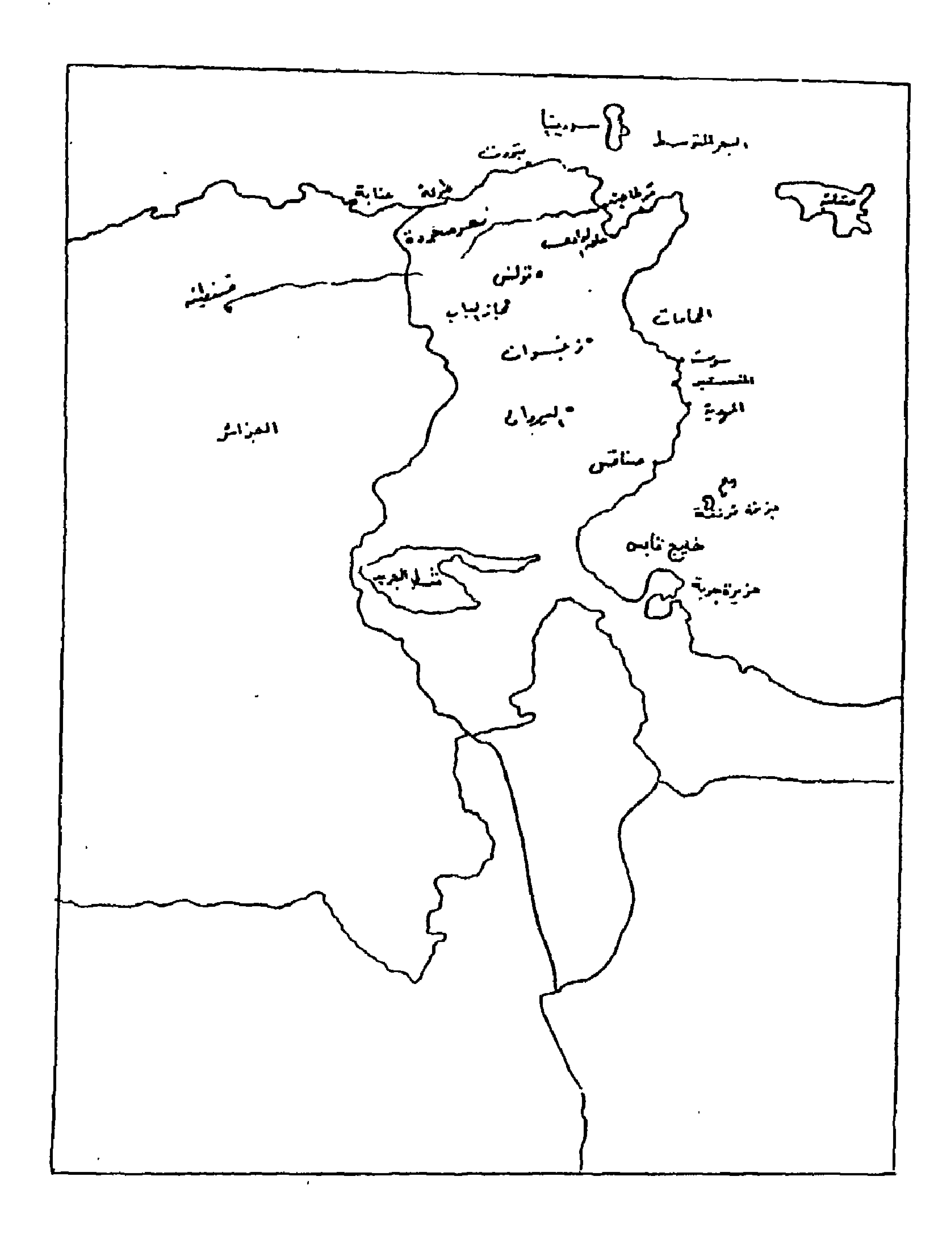
٢٨- محمد الصادق عفيفى (دكتور) : تطور الفكر العلمى عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٦-١٩٧٧ .

٢٩- محمد عبد الله عنان (دكتور) : دولة الإسلام فى الأندلس، ٢ج، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٦٩ .

٣٠- محمد فرج (دكتور) : المدرسة العسكرية الإسلامية، ط٢، القاهرة ١٩٧٩ .

٣١- محمد مزالى وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية - تونس- الجزائر- المغرب من الفتح الإسلامى حتى ١٨٣٠م، تونس ١٩٧٨ .

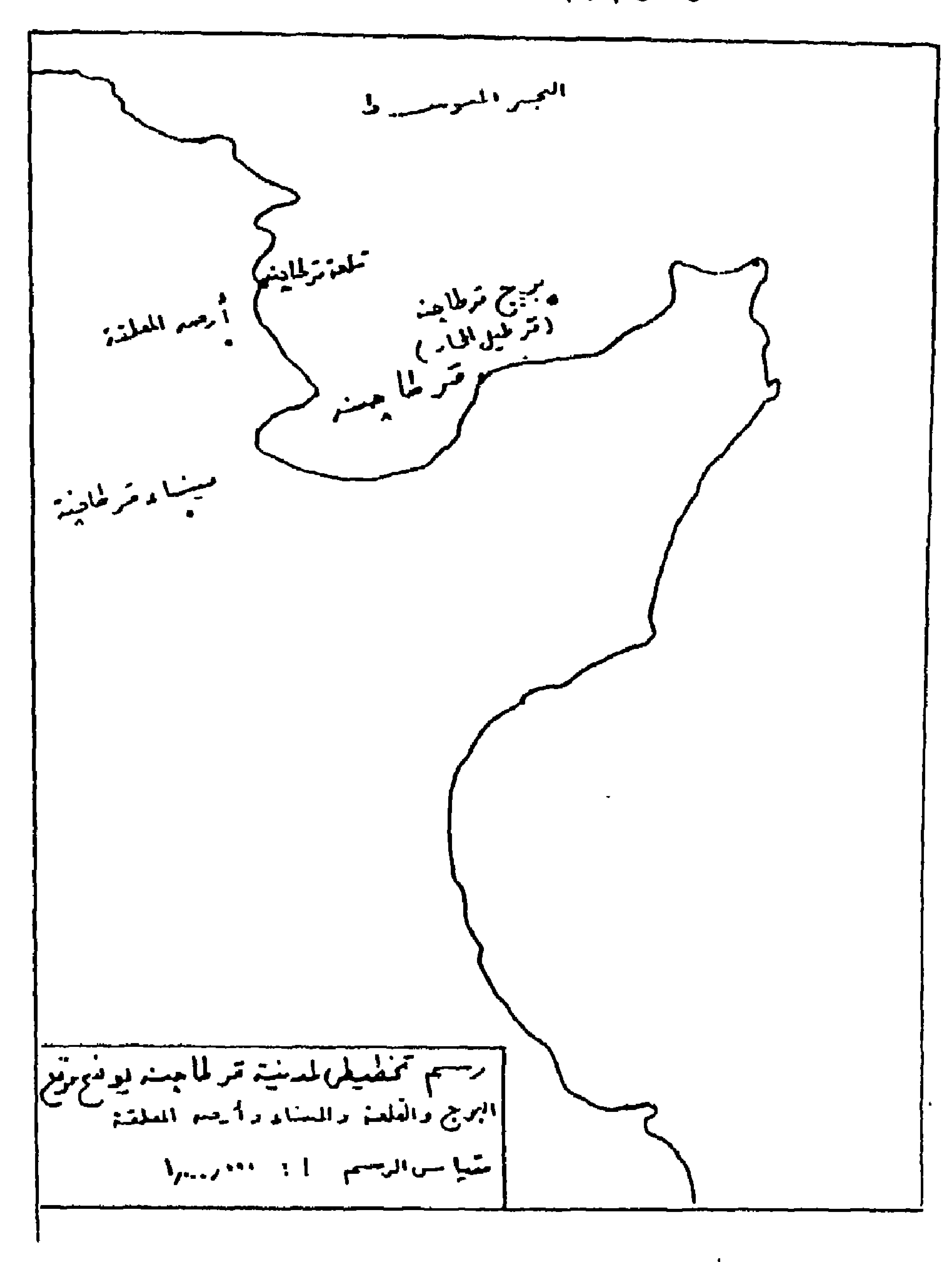
٣٢- مكسميوس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب ، ترجمه من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم، ٢ج، فى مجلدو احد، اورشليم، ١٨٦٥ .



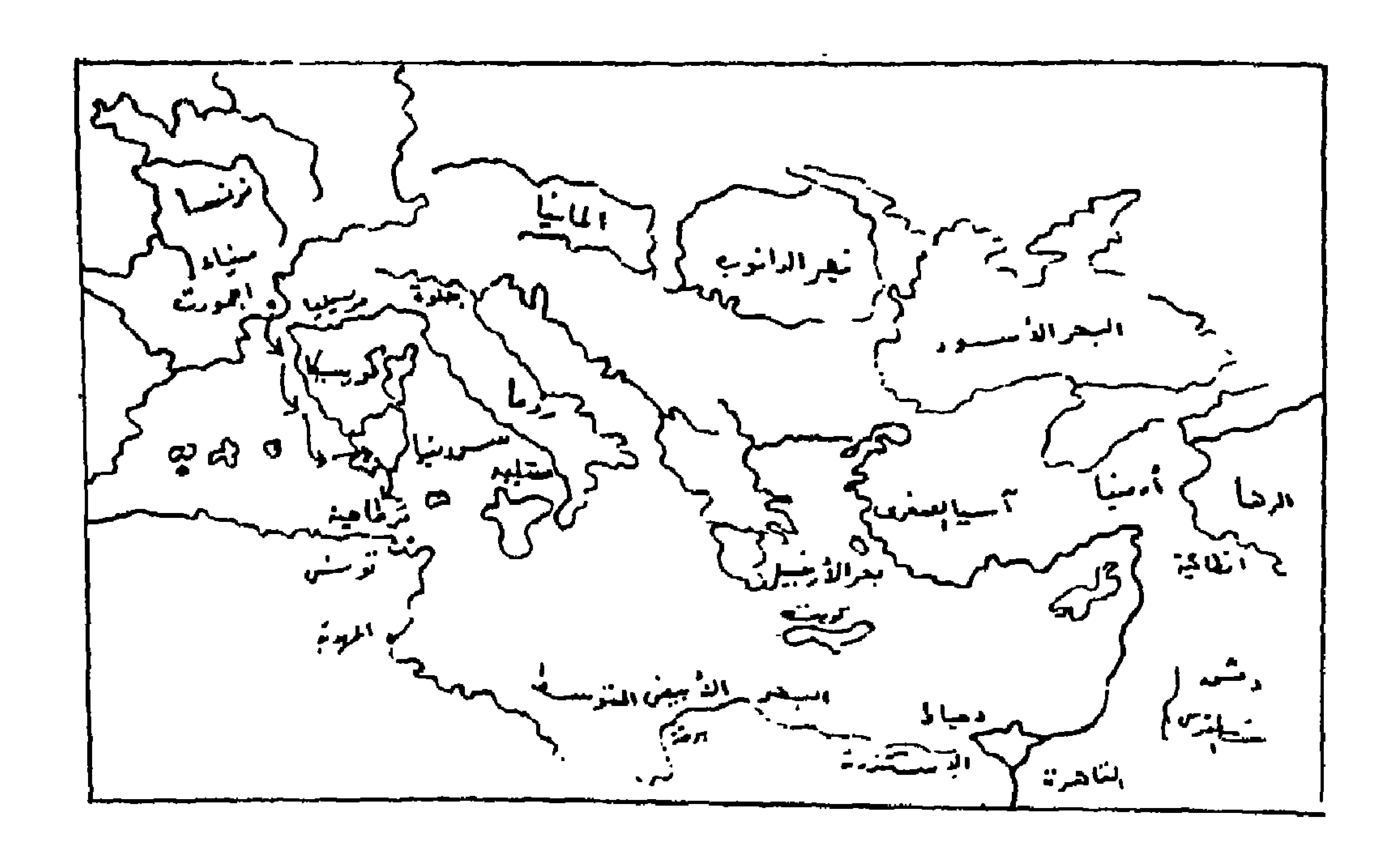
جغرافية تونس وقت وصول الحملة نقلاً عن : أطلس التاريخ الإسلامي ، ص١٩

مقياس الرسم ١ : ٤,٠٠٠,٠٠٠

خريطة رقم (٢)

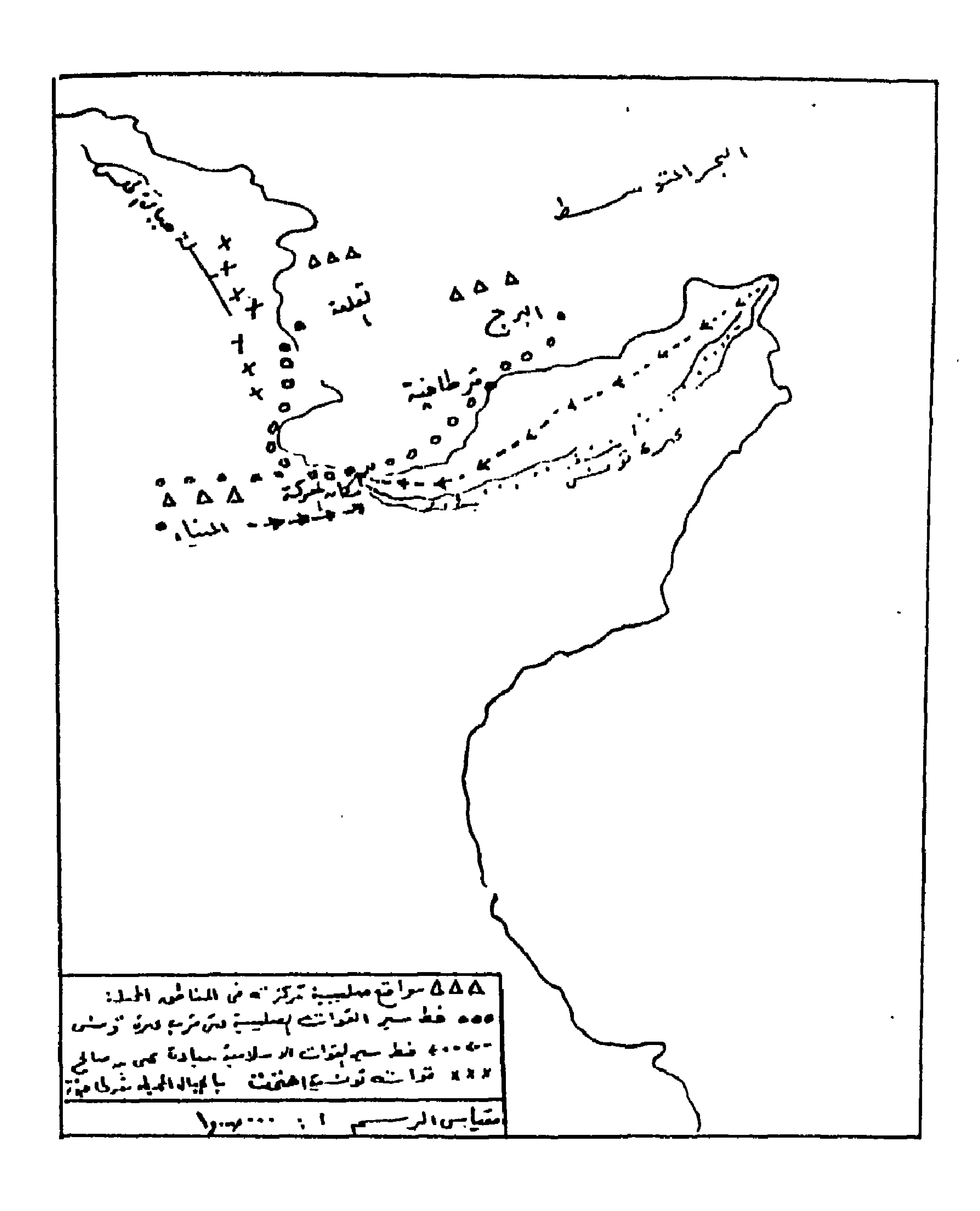


نقلاً عن أطلس التاريخ الإسلامي، ص١٩



خريطة توضح سير الحملة من ميناء اجمورت بفرنسا وحتى ميناء قرطاجنة بتونس

(نقلاً عن د. جوزيف يوسف «العدوان الصليبي على مصر ص٩٧»



وصف تفصيلي للمعركة التي دارت بين المسلمين بقيادة يحيى بن صالح والصليبيين
بقيادة الملك لويس التاسع (٦ أغسطس ١٢٧٠م/ ١٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ)



خريطة توضح أولى المعارك البحرية البرية التى دارت بين الملك شارل والتونسيين (٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ)

مقياس الرسم ١ / ١٠٠,٠٠٠

خريطة توضح خط سير الحملة أثناء عودتها من قرطاجنة إلى أوروبا



محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٢٥٣٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 078 - 8

دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

